نقد الشعر

لأبي الفرج قدامة بن جعفر

تحقيق وتعليق

الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

الطبعة الأولى

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

حسين محمد امبابي وأخوه محمد

٩ ش الصنادقية - الأزهر - القاهرة



نقد الشعر

لأبي الفرج قدامة بن جعفر

تحقيق وتعليق

الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجي

الطبعة الأولى

١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

الناشر

مكتبة الكليات الأزهرية

حسين محمد إمبابي وأخوه محمد

ش الصنادقية - الأزهر - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المدخل إلى الكتاب

تقـــديم

هذا هو « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر (٢٦٠ ــ ٣٣٧ هـ . ٨٧٢ ــ ٩٤٨ م) ، الذى يعد أول أثر نقدى علمى مشهور فى الأدب العربي

أقدمه للباحثين فى صورة جـديدة ، من التحقيق العلمى ، ممهّداً بالكتاب ، وبعملى فيه ؛ سائلا الله عز وجل أن يفيد به القراء والدارسين والباحثين ، وأن يجعله ضوءا هاديا في طريق البحث النقدى والأدبي .

وما توفيقى إلا بالله ؟

المحقق

طبعات الكتاب

١ ــ نقد الشعر لقدامة ـ نشر س . ا بونيباكر ـ مطبعة بريل ـ ليدن ١٩٥٦ .

٢ ــ نقد الشعر لقدامة ـ طبع الجوائب ١٣٠٢ هـ .

٣ ــ نقد الشعر لقدامة ـ تحقيق محمد عيسى منون ١٣٥٢ هـ ، ١٩٣٤ م .

٤ ــ نقد الشعر لقدامة ـ تحقيق محمد كمال مصطفى ونشر مكتبة الخانجى . ـ

كتب مفقودة

١ ـ تبيين غلط قدامة للآمدى (٣ / ٥٨ معجم الأدباء نشر مرجليوث) .

٢ ـ تزييف نقد قدامة لابن رشيق كما ذكره ابن أبى الأصبع فى مقدمة كتابه « بديع القرآن » ويبدو أنه ليس صحيح النسبة لابن رشيق .

٣ ـ شرح نقد الشعر لقدامة ، لعبد اللطيف البغدادى (ـ ٦٢٩ هـ) : راجع ترجمته في فوات الوفيات .

٤ ـ كشف الظلامة عن قدامة ـ للبغدادى نفسه أيضا .

تصدير الكتاب

(١)

* قدامة بن جعفر [٢٦٠ أو ٢٧٦-٣٣٧ هـ : ٨٨٩-٩٤٨م] أشهر النقاد العرب الذين أثروا حركة النقد الأدبي في اللغة العربية ، ودفعوا بها إلى الأمام دفعات قوية ، ووجهوا النقد والنقاد وجهة جديدة استمر صداها على طول العصور . . وكتابه « نقد الشعر » صار أصلا لجميع الدراسات النقدية العربية ، لأنه استحدث مذهبا جديدا فيها صار قدامة صاحبه ، وله فضل الكشف عنه .

وكان لآراء قدامة في كتابه صدى كبير عند النقاد القدماء ، بل لقد أحدث ضجة كبيرة في وسطهم :

- فالآمدي (- ٣٧١ هـ) ألف كتابا في « تبيين غلط قدامة في كتابه « نقد الشعر »(١) .

- وعبد اللطيف البغدادي (- ٦٢٩ هـ) له كتاب في شرح « نقد الشعر » لقدامة(٢) ، وكتاب بعنوان « كشف الظلامة عن قدامة »(٣) .

- وابن رشيق له كتاب « تزييف نقد قدامة » فيما ذكره ابن أبي الاصبع المصري في كتابه « تحرير التحبير » .

* وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء ، والفلاسفة الفضلاء ، كما يقول مؤرخوه(٤) . ونسب إليه كتاب « نقد النثر » ، الذي حققه الدكتوران : طه حسين وعبد الحميد العبادي . وقد وجدت نسخة خطية كاملة من الكتاب نفسه في مكتبة تشستر بيتي برقم ٧٦٧ تحت عنوان كتاب « البرهان في وجوه البيان » لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، فصحت نسبة الكتاب لابن وهب المعاصر لقدامة ، بعد ما ثار جدل كبير حول نسبته

لقدامة . وكان الذى نشر منه ، اعتمادا على نسخة الأسكوريال(٥) باسم « نقد النثر » بتحقيق الدكتور طه حسين والعبادى هو نحو ثلث الكتاب وقد نشر الدكتور أحمد مطلوب فى بغداد الكتاب كاملا أخيرا .

* ولقدامة كتب كثيرة ، منها : سر البلاغة فى الكتابة ، وصنعة الكتابة والألفاظ ، والخراج ، وله كتاب آخر أشار إليه ياقوت فى « معجم الأدباء » وهو الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام (٦) .

(٢)

* وقدامة يرى في مقدمة « نقد الشعر »(٧) أن كتابه أول كتاب يؤلف في النقد ، فيقول :(٨) « ولما وجدت الأمر على ذلك ، وتبينت أن الكلام فى هذا الأمر – أى النقد – أخص بالشعر من سائر الأسباب الأخر ، وأن الناس قد قصروا فى وضع كتاب فيه ، رأيت أن أتكلم فى ذلك بما يبلغه الوسع » .

وهو يغفل جهود العلماء السابقين فى تأصيل قواعد للنقد ، كالأصمعى فى « فحولة الشعراء » وابن سلام فى « طبقات الشعراء »(٩) ، والجاحظ فيما كتبه فى النقد فى كتابيه « البيان والتبيين » ، « والحيوان » وغيرهما ، وابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » ، والمبرد فى كتابه فى « قواعد الشعر » وثعلب فى كتاب له بعنوان « قواعد الشعر » أيضا ، الذى حققته ونشر عام ١٩٤٨ ، وابن المعتز فى كتابه « البديع » وسوى هؤلاء الأعلام الخالدين فى تراثنا العربي النقدى .

* وقد فصل قدامة فى كتابه مذهبه فى النقد ، فقسم الشعر إلى عناصره الأولى المفردة : اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، وإلى عناصر أربعة أخرى مركبة من هذه العناصر . ويذكر أن الشعر قد يكون جيدا ، أو رديئا ، أو بين الأمرين ؛ وأنه صنعة ككل الصناعات يقصد إلى طرفها الأعلى(١٠) ،

ويقول: إنه يذكر صفات الشعر التى تبلغ به غاية الجودة ، فإن وجد بضدهذه الحال كان شعرا فى غاية الرداءة ، وإلا فهو بين بين ، أى بين طرفى الجودة والرداءة بحسب مدى قربه من أى الطرفين أو توسطه بينهما .

ومن صفات المعنى الجيد عنده : الوفاء بالغرض المقصود ؛ أما الغلو فى المعنى فيؤثره قدامة على الاقتصار على الحد الوسط . ويقول : إنه عنده أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وحديثا ، حتى قال بعضهم « أعذب الشعر أكذبه » ، وهو كذلك مذهب فلاسفة اليونان فى الشعر على لغتهم ويقصد بهم أرسطو صاحب أول مدرسة نقدية فى التراث النقدى الأوربى ويؤكد قدامة أن الغلو يعد من باب الخروج عن الموجود والدخول في باب المعدوم ، فالمراد به المثل وبلوغ النهاية في النعت ولما كانت المعانى عند قدامة لا نهاية لها فقد عدد نعوت الشعر في أغراض الشعراء من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف الخ . .

ومن أغراض الشعر عنده المدح والهجاء ، والمدح الجيد عنده نعته هو الصدق وأن يكون بالصفات الأربع : العفة والشجاعة والعدل والعقل أو ببعضها وقد يصف الشاعر الممدوحين ببلوغ الغاية في هذه الصفات من باب الغلو والمبالغة .

والهجاء ضد المدح فى رأيه ، وصفاته مضادة لصفات المدح ، وليس بين المدحة والمرثية فرق عنده إلا في اللفظ دون المعنى ، وهذا خطأ ما بعده من خطأ ، لأن التجربة الشعرية فى المدح غيرها في الهجاء ؛ ولعل عبد الصمد بن المعذل [ـ ٢٢٠ هـ] هو أول من قال بهذا الرأى حيث روى عنه ابن رشيق في العمدة (١ : ١٠٣) أنه قال : « الشعر كله فى ثلاث لفظات : إذا مدحت قلت : أنت ، وإذا هجوت قلت : لست ، وإذا رثيت قلت : كنت » ونحن لا نوافقه على ذلك كله .

(٣)

إن هذا المنهج العقلى المحض في النقد الذى سار عليه قدامة ، صار حديث النقاد فى عصره وبعد عصره .

ولقد تأثر قدامة فيه بالثقافات العقلية التى كانت سائدة فى عصره ، والتى تتلمذ عليها ، وأخذ منها ؛ ففى البصرة وفى القرن الثالث الهجرى ، التقت الثقافات المختلفة التقاء فكريا على نحو رائع ، ونشأت طبقة من المثقفين الذين تثقفوا على هذا الفكر الإنسانى ، وكان فى مقدمتهم المعتزلة الذين رجعوا إلى المنطق اليونانى ، وقرأوا فلسفة أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ، وترجموا آراء الأمم الأخري فى البيان ومناهجه ، كما ترجموا كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية فالشعر ترجمه مختصرا الكندى (ـ ٢٥٣ هـ) ، والخطابة ترجمه إسحاق بن حنين (ـ ٢٩٨ هـ) .

وأخذت هذه الطبقة تؤلف في « صناعة الشعر » ، وللكندى ـ أول الفلاسفة العرب ـ رسالة في صناعة الشعر(١١) ، ولأبي زيد البلخى كتاب بهذا العنوان أيضا(١٢) ، وكذلك لأبى هفان المهزمي راوية شعر أبى نواس(١٣) .

وكان متكلمو المعتزلة ، بتضلعهم من الفلسفة اليونانية ، أصحاب آراء كثيرة فى النقد والبيان .

ومن البدهى أن يقرأ قدامة ابن البصرة كل هذه الثقافات ، وأن يتأثر بها وقد أفاد ناقدنا قدامة من كتابي أرسطو فى الخطابة والشعر ، وإن كان الدكتور طه حسين يرى أنه كان يجهل كتاب الشعر(١٤) .

وعلى أية حال فإن قدامة بمنهجه العقلي في النقد يباين مناهج النقاد العرب الأصلاء ، من مثل : الأصمعي ، ابن الأعرابي ، ابن سلام ، الجاحظ ،

ابن قتيبة ، ابن المعتز ، وغيرهم ، وإن هذا المنهج الذى وضع قدامة أساسه يعد أكبر وأجرأ خطوة نحو تدوين البلاغة العربية وأصول البيان والنقد. وحسبنا أن ثلاثة من كبار النقاد العرب قد أولوا منهجه عناية خاصة ، وتأثروا به تأثرا عميقا ، وهم :

١ - أبو هلال العسكرى فى كتابه « الصناعتين » .

٢ - ابن رشيق القيروانى فى كتابه « العمدة » .

٣ - ابن سنان الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة » .

كما تأثر علماء البلاغة والبديع تأثراً شديداً بقدامة وآرائه فى « نقد الشعر » .

ومن البدهى أن يستفيد قدامة من ابن المعتز (- ٢٩٦ هـ) وكتابه « البديع » فائدة كبيرة ، فكثير من أسباب الجودة عند قدامة هى مما ذكره ابن المعتز فى كتابه البديع على أنها من صنعة الشعر ومحسناته الفنية .

إن منهج قدامة النقدى فى كتابه « نقد الشعر » يعتبر ثورة فكرية عميقة ظهر صداها في تراثنا النقدى ، وصار قدامة حديث العلماء والنقاد من بعده ولا يزال صداه وصدى فكره النقدي قويا وسائدا في تراثنا حتى اليوم ؟

المراجع

(١) ١٢٥ الموازنة طبعة صبيح ، معجم الأدباء لياقوت في ترجمة الآمدي.

(٢) ٢ / ٧ فوات الوفيات لابن شاكر ، ولعبد اللطيف البغدادي كتاب « قوانين البلاغة » ، واختصر كتاب « الصناعتين » للعسكري (٢ / ٨ فوات) ويروي صاحب كشف الظنون أن للبغدادي كتابا اسمه تكملة الصلة في شرح « نقد الشعر » ١ / ٢٤٦ ، وكتابا آخر اسمه « كشف الظلامة عن قدامة » (٢ / ٤٠٠ كشف الظنون) . ولعل الكتاب الأول هو الاسم الكامل لشرح البغدادي لنقد الشعر . وينسب لابن رشيق القيرواني كتاب بعنوان « تزييف نقد قدامة » (٨٨ تحرير التحبير لابن أبي الاصبع) ، ويرجح أنه ليس لابن رشيق صاحب العمدة .

(٣) ٢ / ٤٠٠ كشف الظنون .

(٤) ٦ / ٢٠٣ — ٢٠٥ معجم الأدباء لياقوت ، ١٨٨ الفهرست ، ٢ / ٣٤ كشف الظنون ، تاريخ بغداد في ترجمة قدامة بن جعفر — والنقد الأدبي للدكتور بدوي طبانة ، وكتاب قدامة للدكتور طبانة .

(٥) تحت رقم ٢٤٣ .

(٦) ٦ / ٢٠٤ معجم الأدباء .

(٧) طبع طبعات عديدة : فقد نشره س . ا بو نيبا كر بمطبعة بريل في ليدن عام ١٩٥٦ – ومن قبل طبع في الجوائب عام ١٣٠٢ ، وطبع في القاهرة طبعة أخرى عام ١٩٣٤ بتحقيق محمد عيسى منون ، وبشرح آخر لكمال مصطفى .

(٨) ١٢ نقد الشعر ط القاهرة ١٩٣٤ .

(٩) يرى الكثير من الباحثين أن طبقات الشعراء لابن سلام هو أول مؤلف عربي في النقد (راجع النقد المنهجي عند العرب لمندور ، ٧٤ تاريخ النقد الادبي عند العرب لطه إبراهيم ، ٢/١٠٨ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان)

(١٠) ١٣ نقد الشعر .

(١١) ٣٥٩ الفهرست لابن النديم .

(١٢) ١٩٨ المرجع نفسه .

(١٣) ٢٠٧ « « .

(١٤) ص ٧ مقدمة نقد الشعر . وقدامة في رأي كثير من المستشرقين استفاد من كتاب « الخطابة » لأرسطو لا من كتاب « الشعر » له . وفي رأي د . إبراهيم أنه استفاد منهما معا ـ وكان قدامة من أسرة مسيحية أقامت بالبصرة وأسلم في عهد المكتفي بالله العباسي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ : ٢ ٩ ـ ٩٠٨ م) وتولى في آخر حياته منصب صاحب البريد .

تمهيـــــد

(١)

١ - استعملت اللغة العربية لفظ النقد لمعان مختلفة :

الأول : تمييز الجيد من الرديء ، قالوا : نقدت الدراهم وانتقدتها: أخرجت منها الزيف وميزت جيدها من رديئها ، ومنه : التنقاد والانتقاد ، وهو تمييز الدراهم وإخراج الزائف منها .

والثاني : العيب والانتقاص . قالت العرب : نقدته الحية إذا لدغته ، ونقدت رأسه بأصبعي إذا ضربته ، ونقدت الجوزة أنقدها إذا ضربتها . وفي حديث أبي الدرداء : إن نقدت الناس نقدوك ، ومعناه : إن عبتهم وجرحتهم قابلوك بمثل صنعك

واستعمل الأدباء العرب كلمة النقد(١) بالاستعمالين لنقد الكلام شعره ونثره على السواء ؛ وبدأ ظهور ذلك في القرن الثالث الهجرى على وجه التقريب يقول البحترى عن أبي العباس ثعلب : ما رأيته ناقدا للشعر ولا مميزاً للألفاظ ، ورد عليه آخر فقال أما نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه(٢) ، وألف قدامة كتابيه : نقد الشعر ، ونقد النثر ، وألف ابن رشيق « العمدة في صناعة الشعر ونقده » .

وسار النقاد العرب في نقدهم على كل من الاستعمالين :

١ — استعملوه في القديم وفي الحديث على معنى التحليل والشرح والتمييز

---

(١) الجاحظ رسالة في نقد الكندى (٤٢ الجاحظ لمردم) .

(٢) ١٩٥ دلائل الإعجاز .

والحكم ، فالنقد عندهم دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بغيرها المشابهة لها أو المقابلة ، ثم الحكم عليها ببيان قيمتها ودرجتها ، وأكثر الذين كتبوا في النقد العربي مشوا على هذا المعنى(١) .

٢ — واستعملوه كذلك بمعنى العيب والمؤاخذة والتخطيء ، فألف المرزباني كتابه « الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء » ، ويريد بالعلماء النقاد ، ولا يزال النقد مستعملا بهذا المعنى حتى اليوم عند بعض النقاد المعاصرين ، ويقابله التقريظ وهو المدح والإعجاب من قرظ الجلد إذا دبغه ، وذلك إنما يكون للتحسين والتزيين(٢) .

(٢)

ويعرف المحدثون النقد — بناء على المعنى الأول في الاستعمال اللغوى - فيقولون : إنه التقدير الصحيح لأي أثر فني وبيان قيمته في ذاته ودرجته بالنسبة إلى سواه(٣) ، فكلمة النقد تعني في مفهومها الدقيق الحكم ، وهو مفهوم نلحظه في كل استعمالات الكلمة حتى في أشدها عموما(٤) ، والنقد الأدبي في أدق معانيه هو فن دراسة الأساليب وتمييزها ، على أن نفهم لفظة الأسلوب بمعناها الواسع وهو منحى الكاتب العام وطريقته في التأليف والتعبير والتفكير والإحساس على السواء(٥) .

فللنقد مهمتان مختلفتان : مهمة التفسير ، ومهمة الحكم ، أي إصدار الأحكام الأدبية في قضايا الأدب ومشكلاته .

(٣)

ومن الضروري أن نعرف أن النقد بدأ - منذ استمع الإنسان إلى الأدب

---

(١) ١١٤ و ١١٥ أصول النقد الأدبي للشايب .
(٢) ص ١١٤ المرجع السابق .
(٣) ص ١١٦ نفس المرجع .
(٤) ١٧٣ النقد الأدبي لأحمد أمين ١٩٦٣ .
(٥) ٦ في الأدب والنقد لمندور .

- شعرا ونثراً - بأحكام عامة مقتضبة موجزة لا تحمل تعليلا ، ولا تستصحب أسبابها . شأن الأحكام العامة التي يرشد إليها الذوق ، ويكون للفطرة الأدبية مدخل فيها ، دون أن تتأثر بنزعة علمية ، أو منهج عقلي ، أو أسس موضوعة .

كذلك كان شأنه في الأدب في العصر الجاهلي ، حكم دون تعليل ، لأن أحكام الذوق والفطرة التي لم تسترشد بمناهج أو أصول موضوعة لابد أن تكون كذلك . ثم أخذ يرتقي العقل ، وينضج الحس الأدبي ، ويرتفع مستوى الملكات ، وبدأ العقل لا يقنع بأن يرسل إرسالا دون أن يوضحه توضيحا ؛ فأخذ يومئ من بعيد وعلى سبيل الرمز والتلويح إلى السبب وبعد أن بدأ تدوين العلوم والثقافات ، وأخذ العقل العربي يضع أصولا للبيان والنقد ، بدأت أحكام النقد تصطبغ بصبغة علمية موضوعية ، فالحكم بجانبه السبب والعلة ؟ والنقد يحمل معه طابع التوجيه والتعليل للوصول إلى أحكام موضوعية .

وجملة الأمر أن النقد الأدبي هو الحكم الذي تصدره على الشعر والنثر ، وأنه عند المحدثين تقدير النص الأدبي تقديرا صحيحا وبيان قيمته ودرجته الأدبية(١) . هو تحليل الآثار الأدبية والحكم عليها ، وبيان قيمتها العامة ، والموازنة بينها وبين ما يشابهها من الآثار . . وأصول النقد قراءة وفهم وتفسير وحكم ، والغرض منه دراسة الأساليب أو الكتاب أو الآراء والأفكار(٢)

والخطابة والشعر لأرسطو هما المرجع الأول لكل الدراسات في النقد والبلاغة(٣) ، فأرسطو أول من كتب في النقد الأدبي ، ووضع في كتابه «فن الشعر» قواعد للبلاغة بني عليها طريقته في النقد(٤) .

---

(١) أصول النقد الأدبي للشايب .
(٢) ص ٩٠ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .
(٣) أصول النقد الأدبي .
(٤) ١٠٠ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

وعلى أساس مذهب أرسطو في النقد قامت مدارس النقد الحديث في أوربا ، وعلى رأسها : سانت بوف (١٨٠٤–١٨٩٦) ، وتين (١٨٢٨–١٨٩٣) وبرونتيير (١٨٤٩ – ١٩٠٧) ، وجول ليمتر[١] (توفى عام ١٩١٧) .

والنقد فى الآداب العربية هو « شرح الشعر وتقرير طريقة الشعر الجاهلى لتكون منهجا للشعراء ، لاحركة العقول والأفكار (٢) وأكبر مظاهره عندهم هو علم البلاغة(٣) .

وهكذا نجد أن أصول النقد قراءة وفهم وتفسير وحكم ، وأن الغرض منه كما يقول بعض النقاد دراسة الأساليب أو نفوس الكتاب أو دراسة الآراء والأفكار .

على أن النقد ذو صلة وثيقة بالذوق ، وليس هو مطلق الذوق ، بل ذوق ذوى الثقافات الأدبية العالية . والنقد عند كثير من النقاد فن وليس بعلم ، فليس عندهم قاعدة ثابتة .

(٤)

١ ـ وإذا كانت كلمة النقد تعني في مفهومها الدقيق (الحكم) ، وكان « النقد الأدبى » هو إصدار حكم على الآثار الأدبية ، فإن الأدب الإنشائي يخالف الأدب النقدى الذي هو من الأدب الوصفي ، فالإنشائى هو تفسير للحياة في صور مختلفة من الفن الأدبى ، والأدب النقدى هو تفسير لهذا التفسير ولصور الفن التي يوضع فيها ، وكما يأخذ الأدب من الطبيعة والحياة فإن النقد كذلك يأخذ منهما عن طريق غير مباشر ، ولذلك يقول الناقد وليم واطسون عن الشعراء : « وقد اعتبرت هؤلاء كجزء من عظمة الطبيعة » .

(١) راجع مقدمة لدراسة بلاغة العرب وأصول النقد الأدبى للشايب ، ٤٥ — ٥٠ الأدب الجاهلى .

(٢) ١٥٩ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

(٣) ٦٩ المرجع نفسه .

وإذا كان في الإمكان الرجوع إلى المصدر الأول وهو الطبيعة دون الرجوع إلى النقد، فإن النقد يوحي ويشجع وينير السبيل، ويلهم الأدباء أنفسهم اتجاهات جديدة، وللنقد قيمته الذاتية فى أنه تعبير عن الناقد نفسه، عن شخصيته وفكره ومذهبه ومنهجه.

٢ – إن وظيفة النقد الأدبي هى في تقويم العمل الأدبى من الناحية الفنية وبيان قيمته الموضوعية وقيمته التعبيرية والشعورية، وتوضيح منزلته وآثاره فى الأدب..

يرى سانت بيف أن وظيفة النقد الأدبي هى النفاذ إلى ذات المؤلف، لتستكشف روحه من وراء عبارته بحيث يفهمه قراؤه؛ وفي ذلك يضع الناقد نفسه موضع الكاتب. فالنقد على حد تعبيره يعلم الآخرين كيف يقرأون، ولذلك كان على النقد أن يتجاوز القيم الجمالية العامة إلى بيان روح العصر من خلال نفسية المؤلف، فوظيفة النقد هى تفسير العمل الأدبى للقارىء لمساعدته على فهمه وتذوقه، وذلك عن طريق فحص طبيعته وعرض ما فيه من قيم[١].

ويحمل وردزورث على النقد ويعده عبثا، لأن المقدرة على النقد أحط من المقدرة على الإنشاء، ومن قبل حمل أفلاطون على الشعر وعابه بأنه تقليد التقليد.

ولا شك أن ذلك أمر لا يوافقه عليه ناقد آخر، فإن النقد يوجه ويثرى الأدب، ويعلى من منزلته فى الحياة، ولا غنى للحياة ولا للأدب ولا للأدباء عنه، وهو الذى يخلق المناهج والمذاهب الأدبية، ويقوم أعمال الأدباء، ويوصى باختيار النماذج الجيدة من الأدب ومحاكاتها، ويغرس حب الجيد منه في نفوس الدارسين والناشئين ويعودهم على مثل هذا الجيد منه.

(١) راجع ٥٢ – ٩٦ الأدب وفنونه لعز الدين إسماعيل.

والنقد الأدبي يتنوع إلى :

١ ـ النقد الذاتي أو التأثيري :وهو الذي يقوم على الذوق الخاص،ويعتمد على التجربة الشخصية ، ويبتعد عن المنهج الموضوعي العلمي .

٢ ـ النقد الموضوعي : وهو الذي يركن إلى أصول مرعية وقواعد عقلية مقررة ، يعتمد عليها في الحكم ، كطريقة قدامة في كتابه « نقد الشعر » .

٣ ـ النقد الاعتقادي : وهو النقد الذي تتحكم فيه عقائد وآراء خاصة عند الناقد . وهو يحمل في طياته معنى التعصب والميل إلى نزعة خاصة ، وكلما تحرر الناقد في نقده وآرائه ومعتقداته الشخصية كان نقده عادلا وأكثر إنصافا وصدقا وتحريا للحقيقة ، إذ أن تجرد الناقد من هواه وآرائه شرط أساسي لسلامة أحكامه النقدية من الجور .

٤ ـ النقد التاريخي :وهو النقد الذي يحاول تفسير الظواهر الأدبية والمؤلفات وشخصيات الكتاب ، فهو يعنى بالفهم والتفهيم أكثر من عنايته بالحكم والمفاضلة وتفسير الظواهر الأدبية أو المؤلفات أو شخصيات الكتاب يتطلب معرفة بالماضي السابق لهم ، ومعرفة بالحاضر الذي أثر فيهم .

٥ ـ النقد اللغوي : وهو الذي يحكم فيه على أساس اللغة وقواعدها الأسلوبية واللغوية المقررة .

وفي النقد الموضوعي والذاتي يقول السحرتي[١] : النقد الموضوعي هو النقد الذي يتناول العمل الأدبي من نصوصه ، ويكشف عما فيها من حقائق ، وما يرقد وراءها ، وعن مميزاتها ، والمادة الجديدة أو المطروقة التي تنطوي عليها .

(١) مجلة قافلة الزيت عدد ذي الحجة ١٣٨٤هـ .

فهو نقد كاشف لجوهر الموضوع وروحه في تجرد وإنصاف وحيدة . والناقد الموضوعي في كشفه واندماجه في العمل المنقود أقرب شبها بالنحلة التي تحوم حول الزهر ، فتقع عليه وتمتص رحيقه ، وتخرجه عسلا فيه من الزهر لونه وعطره ونكهته .

وعلى العكس من هذا ، النقد الذاتي ، فهو نقد ذو طابع غير مقنع ، لأنه لا يهتم بالنصوص ، بل كل اهتمامه بأثرها على نفسه ، ومقياس الناقد فيه هو شعوره وذوقه ، وعواطفه وأهواؤه . وهو ليس نقدا في الحقيقة ، إنما هو تعبير عن سمات الناقد ، وترجمة ذاتية لما يجرى في عقله الغافي ، أو عقله الواعى ، ومثل هذا النقد قد يكون مقالا لذيذا ، أو نقاشا ذكيا عن موضوع يتناوله الكتاب المنقود ، ولكنه بعيد عما تناوله الكتاب المنقود ، فالناقد يكشف به عن معرفته بالموضوع ، وزكانته ، أو يبرز فيه انفعالاته نحو الكتاب والناقد في سلوكه هذا أقرب ما يكون شبها بالطاووس الذي يعجب بريشه المزركش الموشى ، ولا يعجب بما حوله ، إلا إعجابا عابراً .

ومثل هذا النقد لا جدوى من ورائه ، فهو لا يضر ولا ينفع ، بل قد يضرّ في كثير من الأحيان ، إذا كان الناقد من ذوى الطبائع المنحرفة ، أو كان بينه وبين المنقود خصومة فيتخذ من قلمه حبلا ليشنق المؤلف به ، كما يقولون .

والنقد الموضوعي يقوم على ركنين جوهريين : أولهما اهتمام الناقد بموضوع العمل الأدبي المنقود ، وحبه لفنه ، وثانيهما طبيعة الناقد وخلقه القوى ، الذى يكبح جماح عواطفه الشرود ، أو انفعالاته النازلة . فالاهتمام هو الركن الركين الذى يحمل الناقد يفتح قلبه وعقله للعمل ، المنقود ، ويقوده لاحتضانه والاستغراق في مادته ، في مودة واحترام ، حتى إذا ما بلغ من غايته ، وقف من العمل الأدبي موقف الحياد ، وتوضيحه ، وبيان حسناته وهفواته .

فعملية النقد الموضوعى تمثل الاهتمام ، أو الشغف بالموضوع ، وهذا الاهتمام هو فى البداية ، نزعة ذاتية ، ولكن الاستمرار فى ارتياد مجالات العمل الأدبى تنقل الناقد إلى النظر في العمل المنقود نظرة واقعية ، تسود نقده فيما بعد .

وهذه النظرة تستلزم من الناقد أن يكون ذا طبيعة قوية سوية ، وبدون هذه الطبيعة السوية التى تتجرد من عواطفها وانفعالاتها لا يقوم الركن الثانى للنقد الموضوعى .

وتوضيحاً لهذه الحقيقة ، نقول : إن الناقد الذى يقحم نفسه فى نقد الشعر دون ما شغف به واهتمام وممارسة ، لن ينفذ إلى جوهره وروحه ، ولن يستطيع التغلغل فى جماله ومضمونه ، ونقده عندئذ لن يكون إلا نقداً سطحياً هزيلا ، أو عابراً طائراً محوّما حومان الفرفر على الأزهار . فإذا كان الناقد من ذوي الطبائع المنحرفة المريضة ، فنقده يكون مؤذيا أشبه بالعنكبوت الذي يترك آثاره السامة في الحديقة .

ونبادر فنقول : إن النقد الموضوعي قد لا يكون نقداً شاملا لعناصر المنقود من الناحيتين الجمالية ، والمضمونية ، فقد يلقى النقد بؤرة اهتمامه على زاوية من زوايا العمل الأدبى ، بأن يتناول محتواه ومضمونه ، أو يتناول البيئة التى نما فيها العمل الأدبي وازدهر ، أو ينظر إلى شخصية الكاتب التى أثمرت هذا العمل ، أو بمعني آخر ، قد يكون النقد داخليا ، أو خارجيا ، حسب اتجاه الناقد ومذهبه النقدى . وتناول هذه الزوايا يدخل في النطاق الموضوعى إذا ظهر إخلاص الناقد فى نقده ، وإذا وضع نصب عينيه النص الذى يفسره أو يقدره أو يحكم عليه ، في حياد وبلا إسراف .

فكل نقد مخلص شريف متصل بالنص ، سواء ألقى أضواء جانبية ، أو أضواء غامرة على النص ، هو نقد موضوعي ما دامت غايته خدمة الأدب ، ولفت الأبصار إلى الموهوبين .

وإذا أبحنا للناقد الاهتمام بزاوية نقدية ، أو منطقة نقدية محدودة يتناولها فليس معنى هذا أنه يتخذ منها وحدها المعيار النهائي لحكمه ، بل إن اهتمامه ينبغى أن يتحول إلى العناصر الأخرى ، والنظر إليها نظرة كلية وإلا خرج على الموضوعية .

فالناقد الذي يصب كل اهتمامه على الناحية الجمالية ، دون أى اعتبار للمضمون ، فيرفع العمل الأدبي أو يهوى به إلى الحضيض بالنظر إلى جماليته ، يجانف بعمله هذا ، سبيل الموضوعية ونظيره هذا الناقد الذى يغرم بمضمون فى العمل الأدبي يتواءم مع هواه فيرفعه إلى القمة ، دون نظر إلى جمال أدائه، فمثل هذا الناقد يجانب الموضوعية ، ولا يصل إلا إلى حكم أبتر على العمل المنقود .

النقد الأدبي عند العرب

النقد في العصر الجاهلي :

نشأ النقد في الجاهلية مرتجلا ، وكان هينا يسير ملائما لروح العصر والشعر العربي نفسه(١) ، عربي النشأة كالشعر ، لم يتأثر بمؤثرات أجنبية ولم يقم إلا على الذوق العربي السليم(٢) .

وُجد في أطوار تهذيب الشعر، وفي اختيار المعلقات وتعليقها في الكعبة(٣) وفي حكومة أم جندب بين امرىء القيس وعلقمة(٤) ، وحكومة النابغة بين الشعراء ، « وكان تضرب له قبة حمراء بعكاظ ويأتيه الشعراء فتنشده أشعارها »(٥) ، وفي حكم ربيعة بن حذار الأسدى على الزبرقان والمخبل السعدى وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الأهتم(٦) . ووجد في نقد الشعراء للشعر : فامرؤ القيس يمر بكعب وأخويه الغضبان والقعقاع فأنشدوه فقال : إني لأعجب كيف لا تمتلىء عليكم نارا جودة شعركم فسموا بني النار(٧) ، ويقول النابغة : أشعر الشعراء من استجيد كذبه وأضحك رديئه(٨) ، وسمى كعب

---

(١) ٢٤ تاريخ النقد الأدبى عند العرب .

(٢) ص ٢٥ المرجع .

(٣) راجع ٣٧٩ جـ ٣ العقد .

(٤) راجع ١٢٨ جـ ٧ الأغانى ، وقد نقد الرافعى هذه الحكومة ورأى أنها جائرة (٢٢٥ ــ ٢٣٤ جـ ٣ آداب العرب للرافعى) ، وتابعه فى ذلك محمد هاشم (١٨٤ الأدب العربى فى العصر الجاهلى) ويرتاب باحث فى هذه القصة ، ويرى أن امرأ القيس غير مقصر ويقول : ولعل ذلك ما حمل ابن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعر امرىء القيس (٢١و٢٢ تاريخ النقد عند العرب) .

(٥) ١٢٣ الشعر والشعراء .

(٦) تاريخ النقد الأدبى عند العرب .

(٧) ٧٠ من المؤتلف للآمدى .

(٨) ٢٥٦ سر الفصاحة لابن سنان ، ٥٠و٥٧ : ١ العمدة .

الغنوى كعب الأمثال لكثرة ما فى شعره[١] منها ، وسمى طفيل الخيل لكثرة وصفه إياها ، والنمر بن تولب « المحبر » لحسن شعره[٢] ، وسموا قصيدة سويد بن أبى كاهل « بسطت رابعة الحبل لنا » اليتيمة كما سموا بعد ذلك خطبة لسحبان الشوهاء لحسنها[٣] ، ويقول زهير ويروى لحسان :

وإن أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ورأى لبيد بعد شيخوخته أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة نفسه[٤] .
إلى غير ذلك من مظاهر النقد في الجاهلية .

---

(١) ٣٤١ معجم الشعراء .
(٢) ١٨٤ المؤتلف ، ١١٢ : ٢ العمدة .
(٣) ٢٢٥ : ١ البيان والتبيين .
(٤) ٢٠ الجمهرة ، ٣٨٠ : ٢ العقد ، ويقول ابن عبد ربه :
وهذا ـ أى تفضيل شاعر وأنه أشعر الشعراء ـ مما لا يدرك غايته ولا يوقف على حد منه ، والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتى منه بديع ، إلا ما اتى ما هو أبدع منه ، ولله در القائل :
أشعر الناس من أنت فى شعره (٣٨١ : ٣ العقد) .

النقد الأدبي في القرن الأول

أخذ النقد في القرن الأول الهجري يسير في طريق النضوج والوضوح مع الفطرة الخالصة والذوق السليم ، وكان كثير من الخلفاء والصحابة نقادا بفطرتهم وذوقهم ، فأبو بكر يقدم النابغة ويقول هو أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا وأبعدهم قعراً(١) ، وكان عمر يتذوق الشعر وينقده(٢) ، وقدم زهيرا ولم يحكم بذلك فحسب بل شرح سبب حكومته بأنه كان لا يعاظل في الكلام ، كان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحدا إلا بما فيه(٣) ، وكان يرى أنه أشعر الناس(٤) ، وكان يجلس هو وأصحابه فيتذاكرون الشعر والشعراء وأيهم أشعر(٥) ، وقال لو قد غطفان عن النابغة : إنه أشعر شعرائهم(٦) .. وكذلك علي بن أبي طالب كان يقدم امرأ القيس على الشعراء لأنه أحسنهم نادرة وأسبقهم بادرة(٧) وكان معاوية يفضل مزينة في الشعر ويشيد بذكر شاعرها في الجاهلية زهير وشاعرها في الإسلام ابنه كعب .

وأنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال : هذا من كلام النبوة .

---

(١) ٧٨ : ١ العمدة .

(٢) راجع : ٧٩ لإعجاز القرآن ، ١٦٩و١٧٠ : ١و٢٢٤و٢٢٥ : ٢ البيان والتبيين ٣٨و٥٩و٦٠و٧٦ : ١ العمدة .

(٣) ١٢٥ للموازنة ، ٨٠ : ١ العمدة ، ٣٢ جمهرة أشعار العرب ، والمعاظلة وتفسيرها في الموازنة وسر الفصاحة وفي ص ١٠٥ نقد الشعر .

(٤) ٣٧٩ : ٣ العقد وما بعدها .

(٥) ٣٢ الجمهرة .

(٦) ٣٤ الجمهرة .

(٧) ٢٧ و ٢٨ : ١ العمدة .

وذكر امرؤ القيس والشعراء عند رسول الله فقال : هو قائدهم وصاحب لوائهم .

وقال عمر بن الخطاب :

أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في حاجاته ، يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللئيم .

وقال عمر بن الخطاب للوفد الذين قدموا عليه من غطفان : من الذى يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مطلب

قالوا : نابغة بني ذبيان ، قال لهم : فمن الذى يقول :

أتيتك عاريا خلقا ثيابي   على وجل تظن بى الظنون

فألفيت الأمانة لم تخنها   كذلك كان نوح لا يخون

قالوا : هو النابغة ، قال : هو أشعر شعرائكم . ولا بدع فعمر كان يعرف قدر الشعر ويستمع لآراء الشعراء .

سئل مالك بن أنس : من أين شاطر ابن الخطاب عماله فقال : أموال كثيرة ظهرت عليهم وأن شاعراً كتب إليه يقول :

إذا التاجر الهندى جاء بفارة   من المسك راحت فى مفارقهم تجرى

فدونك مال الله حيث وجدته   سيرضون إن شاطرتهم منك بالشطر

قال : فشاطرهم عمر أموالهم .

وقال ابن عباس ، قال عمر بن الخطاب ، أنشدنى قول زهير فأنشدته قوله في هرم ابن سنان حيث يقول :

قوم أبوهم سنان حيث تنسبهم   طابوا وطاب من الأفلاذ ماولدوا

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

فقال له عمر : ما كان أحب إلى لو كان هذا الشعر في أهل بيت رسول الله .

ودخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له من أنت قال : أنا ابن هرم ابن سنان قال : صاحب زهير ؟ قال نعم ، قال : أما إنه كان يقول فيكم فيحسن ، قال : كذلك كنا نعطيه فنجزل، قال: ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم .

وقيل للحطيئة : من أشعر الناس، فأخرج لسانه وقال : هذا إذا طمع .

وقيل : بنو هذيل من أشعر قبائل العرب ، وأشعرهم أبو ذؤيب ، وأمير شعره وغرة كلامه قصيدته التى أولها : « أمن المنون وريبها تتوجع »(١) .

وكان لعبد الملك مجالس يتناول فيها مع جلسائه نقد الشعر والشعراء وهى كثيرة(٢) ، وحكم سليمان بن عبد الملك على جرير والفرزدق والأخطل(٣) .

ولكثير من خلفاء بنى أمية وخاصة عبد الملك أحكام نقدية على الشعر والشعراء ومنازلهم الأدبية ، وهى كثيرة . .

(١) ٨١ خاص الخاص للثعالبى .
(٢) راجع مثلا ٣٠ : ٣ الأمالى ، ١٥٢ : ١و١٥٥ : ٢ ديوان المعانى .
(٣) ١٨٩ الشعر والشعراء .

النقد الأدبي في القرن الثاني

بلغ النقد الأدبي في القرن الثاني الهجري مرحلة من مراحل تطوره، تناسب ما بلغه العرب في هذا العهد من نضج ثقافي وأدبي كبير؛

كان الرواة كالأصمعي وخلف وحماد وأبي عبيدة يهتمون برواية الشعر وجمعه، وكان لخلف مكانة في النقد، « وكان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف في حلبة هذه الصناعة -النقد- ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها وحذقه بها، وإجادته لها »(١)، وكان يجمع كثيرا من الآداب(٢)، وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعرا كثير الشعر جيده(٣)، وأصلح للأصمعي رواية بيت من شعر جرير، وقال: ارووه كذلك فلقد كانت الرواة قديماً تصلح شعر الأوائل(٤)، وأعجب بنقد بشار الشعر(٥)؛ وعرض عليه مروان لاميته ففضلها على لامية الأعشى[٦]، وكان أبو عبيدة يرى أن أشعر الناس أمرؤ القيس والنابغة وزهير[٧] وأشعر الإسلاميين الفرزدق وجرير والأخطل لأنهم أعطوا حظاً في الشعر لم يعطه أحد في الإسلام[٨]، وكان الأصمعي يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ولطبعه، وكان يشبهه بالأعشى والنابغة، ويشبه مروان بزهير والحطيئة[٩]، وكان يفضل بشارا على

---

(١) ١/١٩٧ العمدة.
(٢) راجع ٢٢٤ : ٣ البيان.
(٣) ٣٠٨ الشعر والشعراء.
(٤) ٢/١٣ زهر.
(٥) ٣/٤٣ الأغاني.
(٦) ٣/٤٠٢ العقد.
(٧) ٤٤ الجمهرة.
(٨) ٤٦ الموشح.
(٩) ٣/٢٠ الأغاني.

مروان[١] ، وكان يقول هو وأبو عبيدة : عدى في الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها[٢] ، وعاب بين يدي الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك ، بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

لذكره السقيم(٣) ، وسئل المفضل عن الراعى وذى الرمة : أيهما أشعر فصاح صيحة منكرة ، أي لا يقاس ذو الرمة بالراعى(٤) .

وكذلك كان الأدباء ينقدون الشعر بفطرتهم وذوقهم ، كان بشار أجودهم وأدقهم في نقد الشعر ومذهبه ، وكان أبو عبيدة يعجب من « فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده الشعر »(٥) ، وكان خلف يعجب من نقده ومذهبه(٦) ، وغضب بشار علي سلم لسرقته معانيه(٧) ، وكان مروان يعرض شعره عليه(٨) وكان أبوالعتاهية يعتمد على معانى بشار(٩) ، وكان أشجع يأخذ عنه ويعظمه(١٠) وكان ابن الرومى يقدمه ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر(١١) ، وكان كثير من

---

(١) ٢٢٥ ، ٢٠١ الموشح .
(٢) ٢/١٧ الأغانى .
(٣) ٢٧٠/ العمدة .
(٤) ١٧٩ الموازنة . وكان ذو الرمة راوية للراعى ٢٠٧ طبقات ابن سلام .
(٥) ٢/٢٣ الأغانى .
(٦) راجع ١/٤٣ الأغانى ، ٢١٠ الدلائل ، ٧٥ المفتاح ، ١٧ الإيضاح .
(٧) ٣/٤٨ الأغانى .
(٨) ٣/٥٨ الأغانى .
(٩) ١٣٤ : ٣ الأغانى .
(١٠) ٣/١٣٧ الأغانى .
(١١) ١٣ : ٢ زهر الآداب ، وكان بشار يقدم جريراً على الفرزدق (١٣٩ طبقات ابن سلام) من حيث كان البحترى يفضل الفرزدق (٢٤ صناعتين) ونقد بشار قول كثير «ألا انما ليلى عصا خيزرانة » (٨٠ : ٢ الكامل) .

الشعراء يجارون بشاراً فى هذا الميدان .. وكان أبو نواس بدعوته إلى ترك بدء القصيدة بذكر الأطلال ناقدا خبيرا بتأثير الحضارة فى الشعر والأدب .

ولكن جهود علماء اللغة في النقد كانت أقوى وأظهر فوضعوا الجاهليين فى طبقات ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً ، ولا فناً من فنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من جيد ورديء ، وهم الذين جمعوا أقوال النقاد قبلهم فى الشعر والشعراء ، ووزانوا بين الإسلاميين والمتقدمين ، ونقدوا رواية الشعر وبنيته ومعانيه وغير ذلك من الموضوعات .

وقد كان للعرب في حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، كانوا بهما فى غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربي ومذاهبه ، وكذلك كانت أصول النقد بعيدة عن الدراسة والتقرير .

وفى ظلال الحياة الإسلامية اختلطت العناصر وتمازجت الثقافات ، فلقحت العقول ، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن ، وأخذ أئمة العربية يعملون فى صبر وعزيمة في وضع أصول النحو العربي ، وجمع مواد اللغة الغزيرة ، وصحب ذلك وتلاه دراسات أخرى تتناول النقد ، كما تتناول البيان العربى وأصوله ومذاهبه بالبحث والتحليل ، وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الأولى للنقد والبيان العربى ، وظل التقدم الفكرى والنضوج الأدبى والعلمى يسير بهذه البحوث والدراسات نحو الكمال المنشود بخطوات كبيرة .

وكانت الثقافة النقدية البيانية تنمو فى القرن الثاني بجهود طبقتين :

١ — الأولى طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين من أمثال : خلف والأصمعى وأبي زيد وأبى عبيدة ويحيي بن نجيم

وابن كركرة ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب(١) والعربية ، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون إلا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون النحويين واللغويين والأخباريين ، الذين لم يتجهوا هذا الاتجاه(٢) وبجوار هؤلاء أئمة الشعراء(٣) وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة العربية .

٢ - والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة في البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن وحشيا ولا سوقيا(٤) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم(٥) ، وحكم مذهبهم في النقد(٦) ، ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من البلغاء(٧) وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية ، والآخرون من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية ، مما كان له أثره فى فهم أصول البيان وفي توجيه دراسته وبحوثه وفي الدعوة إلى آراء في الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم ، وكان بعضهم يلقن مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشداة الأدب ، كما نرى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م ٢١٠ هـ في أصول البلاغة(٨) ، والتى يقول الجاحظ عنها إن بشراً مر بإبراهيم بن جبلة

---

(١) ٢٠٩ : ١ البيان .
(٢) ٢٢٤ : ٣ البيان .
(٣) راجع ٥٤ : ١ البيان .
(٤) ١٠٥ : ١ البيان .
(٥) ٢٢٥ : ١ البيان .
(٦) ٢٤٠ : ١ البيان .
(٧) ١٠٦ : ١ البيان .
(٨) ١٠٤ : ١ ومابعدها البيان ، ١٢٨ ومابعدها صناعتين .

بن مخرمة(١) وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن إبراهيم أنه وقف ليستفيد فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه في أصول البلاغة وعناصر البيان(٢) ، ومن رجال هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هشام وعبد الحميد الكاتب أوالا كبر كما يقول الجاحظ(٣) وابن المقفع وسهل ابن هرون (٤) والحسن والفضل(٥) ابنا سهل ، ويحيى البرمكي وأخوه(٦) جعفر ، وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وابن الزيات .

(١) يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ٥٥ : ١ البيان .
(٢) ولبشر كتاب فى نظم كليلة ودمنة (٥٨ ابن المقفع لمردم) .
(٣) ١٥١ : ١ البيان .
(٤) كان سهل يقول: سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١٢٤ : ١ البيان ، ٣٢٠ : ٣ العقد).
(٥) ذكر الحصرى كثيراً من بلاغته (١٦ — ١٩ : ٢ زهر) .
(٦) نوه الجاحظ ببلاغته (٨٥ و ٩١ : ١ البيان ، ٨١ : ٢ زهر الآداب) وكان يؤثر الإيجاز (٨١ : ١ البيان ، ١٧٧ : ١ الكامل للمبرد) ، ونوه به سهل بن هارون (١١ : ٢ زهر) .

النقد الأدبي في القرن الثالث

(١)

أخذ النقد الأدبي في القرن الثالث الهجري يستقل بالبحث والتأليف على أيدى النقاد وعلماء الأدب وسواهم : كابن سلام (م ٢٣١ هـ) ، والجاحظ م ٢٥٥ هـ ، وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، وابن المدبر م ٢٧٩ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ وثعلب م ٢٩١ هـ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ وسواهم من الأدباء ، وعلماء اللغة وأصحاب الثقافات الحديثة ، وغيرهم من الذين خاضوا في أصول الموازنات والبلاغة وموازين النقد .

(ا) فمن الأدباء النقاد : أبو تمام م ٢٣١ هـ ، ووصيته للبحترى حول الشعر وفنه ومذهب الشاعر فيه مثال واضح من أمثلة النقد الدقيقة ، وأصل من أصوله الأولى(١) ، وله آراء أخرى في النقد مفرقة في شتى المصادر(٢) ومنهم ابن المعتز(٣) وسواه .

وتميل هذه الطبقة إلى العناية بأدب وشعر المحدثين ونقدهما ، وخاصة شعر أبي تمام والبحترى ، ولعلى بن أحمد المنجم رسالة في العباس بن الأحنف والعتابي والموازنة بينهما(٤) .

(ب) ومن علماء الأدب ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة :

---

(١) راجع الوصية في : ١٥١ : ١ زهر ، ٢٠٩/٢ العمدة ، ١٦٠ حديقة الأفراح لليمنى ط ١٣٢٠هـ ، ٢٧ الطالعة التوجيهية .

(٢) راجع مثلا ص ١٩٢ طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز .

(٣) ويذكر مندور أن ابن المعتز تأثر أرسطو في كتابه البديع ٤٤ — ٤٧ النقد المنهجى لمندور .

(٤) ٩٢ — ٩٤ : ٤ زهر ، وهي في الموشح ٢٩٢و٢٩٣ منسوبة لأبى أحمد يحيي بن على المنجم .

١ – أما ابن سلام فبصرى راوية عالم بالشعر مؤلف فى نقده ، عاش فى النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى والثلث الأول من القرن الثالث ، ودرس وتثقف وأحاط باللغة والآداب والاشعار ، واهتم بالنقد مع تأثر بروح عصره فى الاستيعاب والشرح والتحليل ، وله كتاب طبقات الشعراء الجاهليين وكتاب طبقات الشعراء الإسلاميين(١) ، وقد أدمجا فى بعض وطبعا من عهد قريب باسم ، طبقات الشعراء ، والمقدمة المطبوعة فى أوله هى مقدمة كتاب طبقات الإسلاميين ، يرشد إلى ذلك الكثير من مقدمته كقوله : « ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الإسلام »(٢) .

وكتابه أول مؤلف فى النقد(٣) كما يقولون ، والصحيح أنه ألف قبله كتب أخرى فى موضوع كتابه نفسه ، وبحوث كتابه تشمل ذكر أئمة العربية واتجاهاتهم العلمية ، وتتناول شرح الشعر العربى وأثره ونشأته وتطوره وتنقله فى القبائل وانتحاله ، ثم يذكر طبقات الجاهليين العشر وشعراء المراثى وشعراء القرى العربية ، كما يذكر طبقات الإسلاميين العشر ، جاعلا فى كل طبقة أربعة من الشعراء ، مع الدراسة العميقة والتحليل الدقيق والنقد الممتع لرجال هذه الطبقات وحياتهم ومذاهبهم الفنية فى الشعر ، والكتاب من مصادر ثقافتنا الأدبية فى النقد ، ولا يكاد يستغنى عنه باحث أو دارس ، وهو ضرورى فى دراسة النقد وجامع لكثير من الآراء فيه ، وقد رواه عن ابن سلام ابن أخته أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى ٣٠٥ هـ ، والذى يشيد الحصرى بأدبه وبلاغته(٤) .

---

(١) ١٦٥ فهرست .

(٢) ص ١٦ طبقات الشعراء لابن سلام .

(٣) ١٠٨ : ٢ زيدان ، ٧٤ تاريخ النقد الأدبى عند العرب .

(٤) ٢٥٢ ج ٣ زهر .

٢ - وأما الجاحظ فعلم من أعلام الأدب والنقد والبيان ، وفي كتابه « البيان » وسواه من مؤلفاته ثروة كبيرة في النقد الأدبي ، فتجده يحلل في دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة في الشعر (١) ويشير إلى سرقات أدبية(٢) وموازنات أدبية(٣) ، ويستجيد بعض آثار للشعراء فيقول مثلا : وكان أبو حية أشعر الناس لقوله الخ(٤) ، ويقول : ومن جيد محدث أشعارهم الخ(٥) ، ويقول : ومن جيد الشعر قول جرير الخ(٦) ، ويثني على أبي نواس وشعره وخمرياته(٧) ، ويرى أنه ليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه ولا مولد أشعر بعد بشار من أبي نواس(٨) وأبو نواس عنده أشعر الناس في قوله : « كأن ثيابه أطلعن من أزراره قمراً »(٩) ورأى أن بيتي عنترة « وخلا الذباب بها الخ » من المعاني العقم(١٠) ، ومثله قول أبي نواس « قرارتها كسرى الخ »(١١) ، وينقد أبا العتاهية ذاهبا إلى(١٢) أن شعره أملس المتون

(١) ٥٤ و٥٥ و٦٠ ج ١ ، ٢١ - ٢٦ ج ٢ البيان والتبيين .
(٢) ٨٩ و ١١٦ و ١٧٩ و ٢٥٥ ج ١ البيان .
(٣) ٢٤٣ ج ١ البيان .
(٤) ١٦٦ ج٢ و ٢٠٥ و ٢٠٦ ج٢ البيان .
(٥) ١٧٥ ج ٣ البيان .
(٦) ١٣٣ ج ٣ البيان ، وتجد شرحا لبيتي جرير اللذين ذكرهما الجاحظ في هذا الموضع في ص ٢٠٨ طبقات الشعراء لابن سلام .
(٧) ٤٢ جزء ٤ العقد الفريد .
(٨) ٩١ ج ١ العمدة .
(٩) ١٨٥ ج ٤ زهر .
(١٠) ١٨٤ ج ٣ البيان .
(١١) ١٦٦ ج ٣ زهر ، وراجع شرح البيت في العمدة ٢٧٥ ج ١ وكذلك ذهب المبرد في الروضة في بيت أبي نواس ، ونقدهما ابن الأثير في ذهابهما الى أن بيت أبي نواس من المعاني المبتكرة ورأى أنه من المعاني المعتادة . وأن فصاحة هذا الشعر هي الموصوفة لا هذا المعنى (١٢٢ المثل السائر) .
(١٢) ٥٢ ج ٣ زهر .

ليس له عيون الخ ، ويعجب بقوله « روائح الجنة في الشباب » إعجابا كبيرا[١] ويذكر حوار إبراهيم بن عبد الله لأبيه في شعر كثير[٢] ، وأن الناس كانوا يستحسنون بيت الأعشى « وبات على النار الندى والمحلق » حتى قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

فسقط بيت الأعشى[٣] ، وينقد الكميت لقوله في رسول الله :

لج بتفضيلك اللسان ولو   أكثر فيك الضجاج واللجب

كما ينقده لقوله في رثائه :

لقد غيبوا حزما وعزما ونائلا   عشية واراه الصفيح المنصب

لأنه يصلح في عامة الناس [٤] ، وقد دافعوا عنه بأنه إنما أراد في البيت الأول آل الرسول لا الرسول فورى عنهم بذكر النبي خوفا من بني أمية[٥] ويذكر مناهج الرواة[٦] وتعصب أبي عمرو بن العلاء على الإسلاميين[٧] وأن الرواة كانوا[٨] يحرصون على نسيب العباس بن الأحنف حتى أورد عليهم خلف نسيب الأعراب فتنوا به وزهدوا في نسيب العباس ، والجاحظ ينكر غلو المتعصبين على الشعراء المحدثين ، ويرى أنه لو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد

---

(١) ٣٨ ج ٣ الأغاني ، ٣٦٦ ج ٢ عصر المأمون .

(٢) ١٤٦ ج ٣ البيان .

(٣) ٣٦ جزء ٢ البيان .

(٤) ١٧٢ و١٧٣ ج ٢ البيان ، ١٧٠ ج٥ الحيوان ط ١٩٤٣ ، ١٤٥ ج ٢ العمدة .

(٥) ٢٠ الموازنة و ١٢٦ ج ٢ العمدة .

(٦) ٢٤٤ ج ٣ البيان و ٤ و ٥ الكشف عن مساوئ المتنبي .

(٧) ٢٠٩ ج ١ البيان .

(٨) ٢٢٤ ج ٣ البيان .

من كان، وفى أى زمان كان(١) . . إلى غير ذلك من شتى آرائه في النقد

٣ — وأما ابن قتيبة فهو عالم ملم بالثقافات في عصره ، مجدد فى التفكير . ولكنه مع ذلك محافظ كل المحافظة فى الأدب ، ينعى على الأدباء انصرافهم إلى المنطق وشغفهم به عما سواه من علوم الدين واللغة(٢) ، ويرى وجوب اتباع منهج المتقدمين فى نظم القصيدة(٣) ، ولكنه مع ذلك لا يتعصب القديم ولا للمحدث تعصبا أعمى ولكن يعطى كلا حقه من العدالة والانصاف وكتاب « الشعر والشعراء » وعلى الأخص مقدمته دراسة عميقة للشعر وأقسامه وعناصره والطبع والصنعة فيه والخصومة بين القدماء والمحدثين ، ولدواعى الشعر ونظمه وأسباب اختلاف شعر الشاعر .

والكتاب مظهر لثقافة واسعة(٤) ، واطلاع واسع وذوق سليم ، وفيه عرض لنحو مائة وستين شاعراً من الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين وصدور المحدثين ، وقد عني في دراسته لهم ببيان مذاهبهم وخصائصهم واتجاهاتهم وذكر آراء النقاد فى شعرهم وسرقاتهم وما يستجاد لهم من حكمة أو تشبيه أو وصف وماسبقوا إليه من معان ، وسرد الشعراء سرداً دون ترتيب لطبقاتهم أو لهم بحسب عصورهم بعكس ابن سلام ، وقد اهتم بدراسة لغة الشعراء وأثر البيئة فيها(٥) ، وتكلم على بعض النساء الشاعرات كالخنساء(٦) وليلى

(١) ٤٠ ج ٣ الحيوان وذلك مما يردده بن المعتز الذى حتم عدالة الحكومة الأدبية وحتم ألا يدفع إحسان محسن عدواكان أو صديقا (١٣ و ١٤ رسائل ابن المعتز) ، وكذلك رأى ابن قتيبة (٧ و ٨ الشعر والشعراء) ، وابن رشيق (٧٤ ج ٢ العمدة) .

(٢) ص ٣ أدب الكاتب .

(٣) ١٤ وما بعدها الشعر والشعراء .

(٤) راجع مثلا شرحه للمشكل من شعر أبى نواس (٣١٥و٣١٦و٣٢٠و٣٢٥ الشعر والشعراء) وسوى ذلك .

(٥) راجع رأيه فى عدى وأمية بن أبى الصلت وأبى دؤاد (٦٣ و ٦٩ و ١٧٦ الشعر والشعراء ، ١٧ ج ٢ الأغانى مثلا .

(٦) ١٢٢ الشعر والشعراء) .

الأخيلية(١) ، وهو حريص على ذكر زلات الشعراء من ناحية العقيدة(٢) ، ويعنى بتحقيق نسبة الشعر لقائله عناية كبيرة .

(ج) وأما طبقة علماء اللغة فأثرهم فى النقد واضح جليل ، يتجلى في آرائهم وكتبهم .

وكان هؤلاء كلهم أو جلهم يؤثرون الشعر القديم ، ومنهم : أبو العميثل المتوفي ٢٤٠ هـ وابن السكيت م ٢٤٤ هـ ، وأبو حاتم السجستاني م ٢٥٥ هـ ، وأبو الفضل الرياشي م ٢٥٧ هـ ، والسكرى م ٢٧٥ هـ ، والمبرد م ٢٨٥ هـ وثعلب م ٢٩١ هـ(٣) . وأظهرهم أثراً في ذلك المبرد الذي حفظ « الكامل » كثيراً من آرائه في النقد .

وأهم ما في الكامل للمبرد دراسته للتشبيه وعرضه لكثير من شواهده(٤) وهذا الباب كله نقد أدبي جيد ، ويذكر المبرد كثيراً من السرقات الأدبية فى كتابه ، ويذكر الكثير من آراء القدامي فى النقد والموازنة ، ويشيد بابن مناذر ومرثيته « كل حى لاقي الحمام فمودى(٥) والمبرد لا يتعصب لقديم على محدث ، ويري أنه « ليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ولكن يعطى كلا ما يستحق »(٦) ، ولذلك ضمن كتابه كثيراً من

---

(١) - ١٧٠ المرجع .

(٢) راجع مثلا : ٣٢١ و ٣٢٢ المرجع .

(٣) ينقد ابن الرومى الأخفش لعدم خبرته بالنقد ، وذلك فى أبياته :

قلت لمن قال لي : عرضت على   الأخفش ما قلته فما حمده

قصرت بالشعر حين تعرضه   على عين العمى إذا انتقده

ماقال شعراً ولا رواه فلا   تعلمه كان لا ، ولا أسنده

فإن يقل إنني رويت فكالدفـ   ـتر جهلا بكل ما اعتقده

(٤) الكامل ص ٣٥ — ١٠١ ج ٢ .

(٥) الكامل ص ٢٨٨ ج ٢ .

(٦) الكامل ص ١٨ ج ١ .

شعر المحدثين ، وعقد بابين لأشعارهم خاصة(١) ، ورأى أنها أشكل بالمصر (٢) ، ويروى شعراً لأبي تمام ويقول : « وليس بناقصه حظه من الصواب أنه محدث »(٣) وذكر مكانة الخنساء وليلى الأخيلية فى الشعر(٤) ونقد قول الشماخ :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين(٥)

وإجماع النقاد على نقد قول نصيب ،

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى(٦)

ويذكر مجد آل حسان وابن أبى حفصة فى الشعر (٧) ، كما يذكر بعض المعانى الجديدة في شعر أبي نواس (٨) ، ويعيب(٩) قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

ويذكر وجهاً لتخريجه .

وعلى أى حال فثقافة اللغويين فى النقد كانت قليلة بالنسبة لأدباء الكتاب وعلماء النقد(١٠) ؛ وسئل البحترى عن مسلم وأبى نواس أيهما أشعر

---

(١) الكامل ٢٦٠ ج ٢ ، وص ٢٣٣ — ٢٦١ ج ١ :
(٢) الكامل ٢٢٣ ج ١
(٣) الكامل ٢٦٠ ج ٢ ، وللمبرد مناقشة أدبية بينه وبين ابن درستويه حول معنى لأبى تمام (زهر الآداب ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ج ٢) .
(٤) الكامل ص ٢٧٩ ج ٢ .
(٥) الكامل ص ٧٧ ج ١ .
(٦) المرجع نفسه ص ١٠٦ ج ١ ، ويذكر الجاحظ أن صالح بن سليمان قال : أحمق الشعراء الذى قال : « أهيم بدعد — البيت » (البيان ص ٢١٧ ج ٣)
(٧) الكامل ص ١٥٤ ج ١ .
(٨) الكامل ص ٩٤ ج ٢ .
(٩) الكامل ص ٤٣ و ٤٤ ج ١ .
(١٠) راجع كلمة للجاحظ فى ذلك فى ص ٣ و ٥ الكشف عن مساوىء شعر المتنبى

فقال : مسلم لأنه يتصرف فى كل فن ، فقيل له إن ثعلبا لا يوافقك على هذا ، فقال : ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ، وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه(١) . وقال البحترى لصديق له أراد التوجه لأبي العباس(٢) ليقرأ عليه شيئا من الشعر : رأيت أبا عباسكم هذا فما رأيته ناقداً للشعر ولا مميزاً له ورأيته يستجيد شيئا وما هو بأفضل الشعر(٣) .

(د) وفى هذا القرن نشأت طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافات أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بآداب الأمم الأخرى ، وترجموا آراءهم في البيان ومناهجه إلى اللغة العربية ، أو ألفوا كتبا تبحث في هذه الاتجاهات ، وهؤلاء قد عاشوا في البيئة الإسلامية وأثروا في النقد والأدب والبيان ودراسته وتطوره تأثيرا واضحا كبيرا ، ويمكننا أن نذكر شيئا عن مجهود هذه الطبقة فى خدمة البيان .

أهم عمل علمى قامت به هذه الطبقة هو ترجمة كتابي الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية ، فأما الخطابة فهو أصل كبير من أصول البلاغة ودراساتها وقد « أصيب بنقل قديم ونقله إسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ ، وكذلك نقله إبراهيم بن عبد الله وفسره الفارابي م ٢٢٩ هـ »(٤) ؛ وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندي م ٢٥٣ هـ ، وترجمه إسحاق أيضا(٥) ونقله يحيي بن عدى

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٩٥ ، والكشف ص ٥ ، وإعجاز القرآن ١٠١ ، والعمدة ٩ ج ٢ .

(٢) لعله يريد ثعلبا ، وأبو العباس بن المبرد وثعلب .

(٣) الدلائل ص ١٩٥ .

(٤) ٣٤٩ فهرست وللدكتور إبراهيم سلامة حوله كتابان : خطابة أرسطو ، وبلاغة أرسطو بين العرب واليونان .

(٥) راجع ٢٥٠ الفهرست لابن النديم .

ومتى بن يونس فى القرن الرابع من السريانية إلى العربية(١) . وقد ألفوا فى صناعة الشعر ، وللكندى رسالة فى صناعة الشعر(٢) ، ولأبى زيد البلخى كتاب بعنوان « صناعة الشعر » أيضا(٣) ، وكذلك لأبى هفان(٤) . وهناك آراء مأثورة عن هذه الطبقة فى النقد وفى البلاغة وفى شتى كتب الأدب ومصادره . ويذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان فى الأدب والنقد والبيان ، وينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله وكتابته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوفق ذوقه ، ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا(٥) .

ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البلاغة العربية(٦) ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين فى علم البيان(٧) وأن الكتاب

---

(١) ٣٤٩ و ٣٥٠ فهرست ، ونجد تحليلا كاملا للكتاب فى (٦٤ ـ ١٣٦ قواعد النقد الأدبى) وهو لم يصل إلينا كاملا وليس من شك فى أن الكتاب جزءا ثانيا قد فقد (٦٨ للرجم) ونكاد نجزم بأن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون ردا على أفلاطون فى رأيه الذى ذهب إليه ، وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشرى وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ للرجم) ، ويقول أرسطو فى أوله : سأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفى البناء الصحيح للمنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها » (٧٩ للرجم) وترجمه ابن سينا وابن رشد (٢٤ وما بعدها مقدمة نقد النثر) ـ وهما ترجمتان رديئتان (١٢ فن الأدب ـ المحاكاة لسهير القلماوى) ومن ترجمة متى بن يونس العربية لكتاب الشعر نسخة خطية فى مكتبة جامعة القاهرة ، ومن ترجمات كتاب الشعر الحديثة : ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وترجمة لإحسان عباس ، وترجمة شكرى الله وطه سلام وقد نشرت ترجمة متى لكتاب الشعر محققة .

(٢) ٣٠٩ فهرست .

(٣) ١٩٨ فهرست .

(٤) ٢٠٧ فهرست .

(٥) ٢٠ المثل السائر .

(٦) ٢٧٧ جـ ١ ضحى الإسلام .

(٧) ٣١ مقدمة نقد النثر .

والمتكلمين الذى عاشوا في القرن الثاني وأثروا في البيان وتطوره جلهم أعاجم(١) وأن متكلمى المعتزلة بتضلعهم من الفلسفة اليونانية من مؤسسى البيان العربي ، وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجد إلا بيان عربي واحد كان فى دور الطفولة وكان خصبا جامعا الروح العربى والفارسى واليونانى ، ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربى بحت ويونانى يجهر بالأخذ عن أرسطو(٢) حتي العربي البحت تأثر باليونان(٣) . ويقرر أن عبد القاهر حين وضع فى القرن الخامس كتابه « أسرار البلاغة » لم يكن إلا فيلسوفا يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه(٤) .

ترجم كتاب الخطابة لأرسطو فى النصف الثانى من القرن الثالث . وجاء فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به ، وطبقه على الشعر العربى ولاسيما القسم الخاص بالأسلوب ، وكان يجهل كتاب الشعر فترجم المأساة بالمديح والمهزلة بالهجاء(٥) . وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق . على أن تشريع الفلسفة للأدب فى رأى الدكتور طه حسين يظهر أول مرة فى « نقد الشعر » ثم فى « نقد النثر » الذى هو مستمد من آراء أرسطو فى الجدل والقياس والخطابة(٥) . ويحتمل أن المشتغلين بالفلسفة اليونانية اشتركوا مع الجماعات الأخري فى خدمة البلاغة العربية واستعانوا بطرق اليونانيين ومناهجهم فى دراسات البلاغة والتأليف فيها ، وأن الفرس وما ترجم من

---

(١) ٦ المرجع .
(٢) ٨ مقدمة نقد النثر .
(٣) ص ١١ المرجع .
(٤) ص ١٤ المرجع .
(٥) ص ٧ المرجع .

قواعد بلاغتهم أثرا ما في البلاغة العربية(١) ، كما يؤيده أبو هلال في الصناعتين وديوان المعاني .

وفي غالب الظن أن في البلاغة العربية عناصر ثلاثة : عنصرا عربيا وعنصرا فارسيا وعنصرا يونانيا ، ولا شك أن البلاغة العربية حينما بدأ واضعوها في تدوينها قد أفادوا من هذه العناصر الثلاثة في هذا التدوين إلى حد كبير .

ومن عجب أن يزعم زاعم أن أرسطو كان أبا النقد في الآداب الأوربية ، وفي الأدب العربي كذلك(٢) ؛ فذلك هو الخطأ الذى ليس بعده خطأ .

(٢)

وإذا كان أبو تمام قد شغل النقاد طول القرن الثالث والرابع الهجري حتى ألفوا في سرقاته ونقده ، وصنف فيه الصولي م ٣٣٦ هـ «أخبار أبي تمام» قاصدا بيان فضل الطائي(٣) ووازن الآمدي م ٣٧١ هـ بينه وبين البحتري مع ميل إلى البحتري وتقديم له ، والحاتمي م ٣٨٨ هـ مناظرة بينه وبين أعرابي متعصبا للبحتري والحاتمي لأبي تمام(٤)

فإن أول من كتب في نقده هو ابن المعتز ، فألف فيه رسالته في محاسن شعره ومساويه ، وقد روى المرزباني جزءا منها إن لم يكن ما أثبته في كتابه

(١) يقول أبو هلال : وكان عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي الخ

(٢) راجع ١٧٤ المدخل في النقد الأدبي لهلال .

(٣) ٦ أخبار أبي تمام .

(٤) ٢٠ — ٢٧ / ٣ زهر الآداب .

هو كل الرسالة ؛ وقد نشرناها في كتابنا « رسائل ابن المعتز »(١) ، ولقدامة كتاب الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام(٢) ، وللآمدي كتاب في الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام(٣) .

(٣)

ومن أهم النقاد في القرن الثالث : الناشيء الأكبر (- ٢٩٣ هـ) ، وهو عبد الله بن محمد أبو العباس (ابن شرشير الأنباري البغدادي) كان من كبار النقاد في القرن الثالث وقد توفي في مصر وكان قد هاجر إليها وأقام فيها(٤) آخر حياته .

وكان شاعرا كذلك في عداد الشعراء المجيدين ، كما يذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان وابن المعتز في طبقات الشعراء ، وغيرهما .

ويذكر ابن رشيق كتابا له عنوانه « تفضيل الشعر »(٥) ، ويذكر أبو حيان التوحيدي كتابا له بعنوان « نقد الشعر(٦) »

---

(١) ٣٠٧ - ٣١٩ الموشح ، ١٩ - ٣١ رسائل بن المعتز .

(٢) ١٨٨ فهرست ، ٢٠٤ / ٦ معجم الأدباء نشر مرجليوث .

(٣) ٨٦ معجم الأدباء نشر رفاعي .

(٤) ٤١٧ - ٤١٨ طبقات الشعراء لابن المعتز - ٢١٧ الفهرست لابن النديم - ٩٢ / ١٠ تاريخ بغداد - ٢ / ٢٧٧ وفيات الأعيان - ٨٠ مراتب النحويين ١٠٢ / ١١ البداية والنهاية - ٥٧ / ٦ المنتظم - ٦١ / ٢ أبو الفداء - ١٥٨ - ١٥٩ / ٣ النجوم الزاهرة ، ١٢٨ / ٢ إنباه الرواه - ١٤٠ / ١ - حسن المحاضرة ٢ / ١ العمدة لابن رشيق (محيى الدين عبد الحميد) - وكان الناشيء معتزليا متكلما .

أما الناشيء الأصغر فهو أبو الحسن علي بن عبد الله (٢٧١ .. ٣٦٠ هـ) = ١ / ٢٣٢ يتيمة الدهر - ٢٢٦ الفهرست لابن النديم - ٣ / ٥١ وفيات .

(٥) ٢٠١ / ١ العمدة - تحقيق محيى الدين عبد الحميد .

(٦) البصائر والذخائر ٢ / ٢٧٣ و ٦١٩ - دمشق .

ويروى أن له قصيدة في فنون العلم والكلام فى أربعة آلاف بيت(١)
ويروى له ابن رشيق قصيدتين فى نقد الشعر(٢) .

ويقول التوحيدى عنه : ما أصبت أحدا تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما أتى به الناشىء المتكلم ، وإن كلامه ليزيد على كلام قدامة وغيره(٣) .

ويتحدث إحسان عباس عن الناشىء فى كتابه « تاريخ النقد الأدبى عند العرب »(٤) ، وكتب عنه الدكتور يوسف حسين بكار مقالة في مجلة الأديب اللبنانية(٥) .

وعلى الجملة فإن تراث الناشىء النقدي لا يزال مجهولا لم يكشف عنه بعد .

---

(١) ١١ / ١٠١ البداية والنهاية .
(٢) ٢ / ١١٣ ، العمدة ٢ / ١١٥ أيضاً .
(٣) ٢ / ١١٧ البصائر والذخائر التوحيدى .
(٤) راجع ص ٦٦ من الكتاب .
(٥) عدد يونيو ١٩٧٤ .

النقد فى القرن الرابع الهجرى

اتجه علماء الأدب في مشرق هذا القرن إلى الكتابة في الأدب والنقد ، ثم مزجوا بحوث النقد والأدب بالبيان ، ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلى انتقلت بهم إلى البحث فى مظاهر البيان ومشكلات البلاغة فاتجه تأليفهم فى آخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه .

ونقاد الأدب والشعر فى القرن الرابع فريقان : فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثرا بذوقه الأدبي وطبعه العربي وثقافته الخالصة من شوائب الثقافات الأخرى التى جرت جداول إلى يم الثقافة الإسلامية الصميمة المتدفقة ، ومن هؤلاء الحاتمى ٣٨٣ هـ « صاحب الرسالة الحاتمية » فى نقد شعر المتنبي وبيان سرقاته من حكمة أرسطو الفيلسوف ، والحسن بن بشر الآمدى ٣٧١ هـ صاحب الموازنة بين الطائيين ، وعلى بن عبد العزيز الجرجاني ٣٩٢ هـ صاحب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وابن وكيع ٣٩٣ هـ صاحب « المنصف » في سرقات المتنبي وأبو بكر الباقلانى ٤٠٣ هـ مؤلف « إعجاز القرآن » وقبلهم أبو بكر الصولى ٣٣٦ هـ صاحب «أخبار أبي تمام» وأبو الفرج الأصبهاني ٣٥٦ هـ مؤلف كتاب « الأغانى » . وفريق آخر كتب بروح أدبي هذبت فكرته ووسعت أفقه الثقافات الأخرى التى هضمها القرن الرابع ، وأحالها غذاء عقليا لكل من توسع فى الدراسة والبحث العميق ، ومن هذا الفريق : جعفر بن قدامة وقدامة بن جعفر ٣٣٧ هـ صاحب [نقد الشعر] وابن العميد ٣٦٠ هـ ، والصاحب ابن عباد ٣٨٥ هـ صاحب رسالة « الكشف عن مساوىء شعر المتنبي » وأبو هلال العسكرى ٣٩٥ هـ صاحب « الصناعتين » و « ديوان المعاني » وهذا الفريق الأخير يختلف نقده قوة وضعفا بحسب تمكن الطبع العربي من نفوس رجاله وأعلامه وتتفاوت منازلهم في الإجادة والإحسان بتفاوتهم فى

الذوق الأدبي الذي يعتد به في الحكومات الأدبية العادلة . ودعنا ممن تقدموا الأدب والشعر بدون تمكن الطابع الأدبي في نفوسهم ، من : النحويين علماء اللغة ، والمعنويين رجال العقل والفلسفة ، الذين جاء حكمهم بعيدا عن الذوق المطبوع والفطرة السليمة ، والذين تقدم الجرجاني في (وساطته) نقدا لاذعا ، وطرح آراءهم في النقد والبيان فلم يعتد بها ولم يعرها نصيبا من البحث والمناقشة اللهم إلا حيث أراد أن يبرر موقفه منهم فذكر بعض أخطائهم في النقد لتكون حجة له في هذا الإهمال .

ولا شك أن ظهور قدامة في أول هذا القرن ، ورجوعه إلى البيان اليوناني وما فيه من موازين للنقد ومناهج للبيان يلقح بها البيان العربي ويضع بها أسس النقد الأدبي، جاعلا لألوان الترف في الأداء التي تمس الفكرة وتسبغ على المعنى حظا كبيراً في النقد ، كان تطورا جديدا في بحوث النقد والبيان وكان عقل قدامة المنطقي يغلب ذوقه الأدبي ، فزل أحيانا في نقده من حيث قوم ذوق ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي هلال العسكري أحكام عقولهم في النقد والحكومة الأدبية ، وإن تبعوا منهج قدامة ، وجروا في فهم الشعر وتذوقه ونقده مجراه الذي أوضحه في كتابه : « نقد الشعر » والذي يرجع إلى البحث في عناصر الشعر الأساسية من : اللفظ والوزن والقافية والمعنى .

وجاء الآمدي فوضع نظرية عمود الشعر في النقد ونقد قدامة في كثير من آرائه . بل ألف كتابا بين فيه أخطاءه في نقد الشعر ، وأهداه إلى ابن العميد(١) وبالرغم من ذلك كله فقد تأثر كرها ببعض آراء قدامة ، تأثر به في فهم عناصر ميزان النقد الأدبي التي حالها حين نقد أبا تمام والبحتري فيما يتصل باللفظ وسلامته والمعنى وصحته والغرض واستقامته والأسلوب وموائمته

---

(١) ٣ / ٥٨ معجم الأدباء لياقوت — نشر فريد رفاعي .

لأسلوب العرب في الأداء والوزن ، وملاءمته لموسيقى الشعر وأوزانه ، وتأثره في تنسيق بحوثه وموضوعاته ، عارضا للموضوعات التي أثارها ابن المعتز وقدامة ، كبحوثه في الجناس والطباق والاستعارة والتقسيم ، مدليا برأيه مع رجوعه إلى العربية وحدها في المناقشة والنقد والحكم .

وجاء بعد الآمدي الصاحب بن عباد فسار على ضوء أستاذه ابن العميد في فهم النقد وعناصره وأصوله ، ثم جاء القاضي الجرجاني فوضع منهجا متميزاً في النقد .

ومن ثم نجد أن النقد الأدبي في القرن الرابع :

١ - قد استحال إلى علم له أصوله وقواعده ومبادئه .

٢ - كثرت المؤلفات فيه إلى حد كبير .

٣ - كانت الموازنات الأدبية أظهر فروع النقد في هذا القرن ، وأشهرها الموازنة للآمدي .

٤ - كثر النقاد في هذا القرن وتعددت آراؤهم في النقد .

٥ - كانت مشكلات النقد تثار غالبا عند الحديث عن منزلة شاعر أو الموازنة بين شاعر وآخر .

٦ - تطور النقد فبحث في إعجاز القرآن وأسراره ، ثم أخذ يتحدث عن أصول البيان العربي ، حتى استحال بعد ذلك إلى علم البلاغة الذي وضع أصوله عبد القاهر الجرجاني في كتابيه : الأسرار والدلائل . .

قدامة بن جعفر

(١)

ولد قدامة في البصرة نحو عام ٢٦٠ هـ أو عام ٢٧٦ هـ في خلافة المعتمد العباسي .

وقرأ وتعلم وتثقف على والده وعلى المبرد وغيره - واجتهد وبرع في البلاغة والحساب ، وقرأ صدراً صالحاً من المنطق وهو لائح على ديباجة تصانيفه واشتهر بالبلاغة ونقد الشعر والكتابة .

عاش في خلافة المعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر العباسي ، وأدرك مطلع حكم آل بويه ، وتولى مجلس الزمام لآل الفرات .

وألف كتبا كثيرة منها : نقد الشعر ، وكتاب السياسة ، وكتاب الخراج (ثمانية منازل وأضاف إليه منزلا تاسعا) ، وكتاب الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام ، وكتاب صناعة الجدل ، وكتاب زاد المسافر ، وكتاب الرسالة في أبي على بن مقلة ، وغيرها .

وتوفي في بغداد في خلافة المطيع العباسي عام ٣٣٧ هـ .

(٢)

ظهر قدامة بن جعفر في هذا القرن (٢٦٠ هـ أو ٢٧٦ — ٣٣٧ هـ) فكان له آثار كبيرة في النقد .

وكان قدامة أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء(١) والنقاد الأعلام ، وكتابه نقد الشعر ذو أثر كبير في حركة النقد العربي ونهضته .

فصل قدامة في « نقد الشعر » مذهبه في النقد الذي احتذى فيه حذو أرسطو في كتاب الخطابة الذي ترجمه إسحاق بن حنين في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري ونجد أثر أرسطو واضحا عند قدامة في كلامه على الصفات النفسية التي جعلها أمهات الفضائل ، وذكر أن المدح الجيد لا يكون إلا بها(٢) .

ويرى قدامة أن الرثاء كالمدح في وقوعه بهذه الصفات(٣) ، وأن الهجاء ضد المدح ولا يكون إلا بأضدادها(٤) ، وهذا وغيره أثر لثقافة قدامة العقلية التي تزل في مواضع الذوق والإحساس والشعور في النقد وفهم الشعر والأدب ، وعناصر الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية وما تركب منها(٥) .

ثم يذكر أسباب الجودة التي تلحق بكل عنصر من هذه العناصر في نظم

---

(١) ٢٠٣ــ٢٠٥ : ٦ معجم الأدباء لياقوت ، ١٨٨ الفهرست . وراجع تاريخ بغداد ٢:٣٤ كشف الظنون .

(٢) ٢٩ ــ ٤١ نقد الشعر بتعليق «منول» .

(٣) ٥٩ نقد الشعر ، ١٢٦ الصناعتين .

(٤) ٥٥ نقد الشعر . . ويقول عبد الصمد بن المعذل ٢٣٠ هـ : الشعر كله في ثلاث لفظات : فإذا مدحت قلت أنت : وإذا هجوت قلت لست : وإذا رثيت قلت : كنت ١٠٢: ١ العمدة) ، وهذا أساس لنظرية قدامة . وسار عليها أبو هلال وابن رشيق .

(٥) راجع نقد الشعر ص ١٣ ، ومثل ذلك في العمدة ص ٩٩ ج ١ .

الشعر ويرى أن أضداد هذه الأمور هى أسباب الرداءة في النظم . ويحتم على الشاعر أن ينظم الشعر متبعاً لأسباب الجودة وحذرا من الرداءة وأسبابها ، والناقد يحكم على ضوء هذا النهج نفسه فيري مواطن الجمال والعيب في شعر الشاعر سواء في ألفاظه وأساليبه أو في أوزانه أو قوافيه أو في سوى ذلك مما تركب منها ، فيحكم عليه أو له بالرداءة أو الجودة والإحسان ؛ وهذا نهج عقلي واضح ولكنه في تقييده الشعر بهذه القيود الثقيلة وفى تطبيقه على هذه الأصول التى رسمها فى كتابه يخطىء كثيراً . . وقد ألف الآمدى كتاباً فى « تبيين غلط قدامة فى نقد الشعر » وأهداه لأبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد وقرأه عليه عام ٣٦٥ هـ(١) ، كما نقده كثير من علماء النقد والأدب فى شتى العصور . فلابن رشيق « كتاب تزييف نقد قدامة(٢) » ولابن أبي الأصبع المصري (٥٨٥ — ٦٥٤ هـ) كتاب « الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخصومه »(٣) ، ولعبد اللطيف البغدادى (-٦٢٩ هـ) شرح قواعد الشعر لقدامة(٤) ، وسماه « التكملة فى شرح نقد قدامة » وله كتاب « كشف الظلامة عن قدامة(٥) » .

(٣)

ويقول أبو حيان (٦) — فى أثناء كلامه على بلاغة النثر - ما نصه : « وما رأيت أحداً تناهى فى وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر فى المنزلة الثالثة من كتابه ، قال لنا علي بن عيسى الوزير : عرض على قدامة

---

(١) معجم الأدباء فى ترجمة الآمدى ص ٨٥ جـ ٣ ، وراجع ١٢٥ الموازنة طبعة صبيح.
(٢) ص ٨٨ تحرير التحبير لابن أبى الأصبع المصرى (٥٨٠ — ٦٥٤هـ) .
(٣) ص ٤٩ كتاب تحرير التحبير .
(٤) ١٠/٢ فوات الوفيات ط ١٢٨٣هـ
(٥) كشف الظنون ٢/عمود ١٤٧٣ .
(٦) ١٤٥و١٤٦ جـ ٢ الإمتاع والمؤانسة — طبع لجنة التأليف .

كتابه سنة عشرين وثلثمائة ، وخبرته فوجدته قد بالغ وأحسن ، وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة ، مما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى ، مما يدل على المختار المجتبى والمعيب المجتنب ، ولقد شاركه فيه الخليل ابن أحمد فى وضع العروض ، ولكنى وجدته هجين اللفظ ركيك البلاغة ، حتى كأن ما يصفه ليس ما يعرفه وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه . . وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور » . . فأبو حيان على لسانه حينا ، وعلى لسان ابن عيسى الوزير حينا آخر يقرر :

١ – أن قدامة بذ سابقيه فى وصف النثر وفنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى فى المنزلة الثالثة من كتابه .

٢ – أنه بتأليفه هذا الكتاب وابتكاره لبحوثه يضارع الخليل بن أحمد فى سمو مكانته وابتكاره لعلم العروض .

٣ – أن كتابه هذا عرض على علىّ بن عيسى الوزير سنة ٣٢٠ هـ .

٤ – أن أسلوب قدامة فى كتابه هجين اللفظ ركيك البلاغة فى وصف البلاغة ، واعتذار الوزير عنه فى ذلك رائع ممتع دال على مدى مكانة قدامة عند معاصريه من المفكرين ، ولكن ما هو هذا الكتاب الذى استحق هذا التقدير والإعجاب من رجلين يعدان من أعظم رجال الفكر الإسلامي فى القرن الرابع الهجرى وإذاً فليس « نقد النثر » هو الكتاب الذى عناه أبو حيان والوزير .

ولعله كتاب آخر – ولا شك – غير « نقد النثر » الذى لا يمت إلى قدامة بصلة ، وغير نقد الشعر ، الثابت النسبة إليه والذى نقده الآمدى وشرحه عبد اللطيف بن يوسف . . وقدامة له – غير « نقد الشعر » – كتاب فى صنعة

الـكتابة(١) وهو غير « نقد النثر » ، لأن هذا المرجع قد ذكر نقد النثر ، وجعله مؤلفا آخر سواه(٢) ، وإن كان قد نسبه إلى قدامة ، ويذكر صاحب كشف الظنون أن لقدامة كتابا اسمه « سر البلاغة فى الـكتابة »(٣) ،وكذلك يذكر البزدادى فى كمال البلاغة أن لقدامة تأليفاً فى الـكتابة (ص ١٦ كمال البلاغة) . . . فليس من المستبعد إذاً أن يكون التوحيدى وعلى بن عيسى الوزير قد قصدا كتابا من هذين الـكتابين : صنعة الـكتابة وسر البلاغة ،وقد يكون هذان الاسمان عنوانا لـكتاب واحد لقدامة فى بلاغة الـكتابة ، وعلى أى حال فالذى نراه ونجزم به أن نقد النثر لا يمت إلى أحد الـكتابين بصلة ، وليس هو أيضا من مؤلفات قدامة فى البيان ، ومما يؤيد ذلك وصف البزدادي لكتاب قدامة ، وأنه « فصول مستخرجة من رسائل الـكتاب الخ » (١٦ و ١٩ كمال البلاغة) .

ولقدامة « كتاب الخراج وصناعة الـكتابة » وتوجد مخطوطة منه بمكتبة كوبرلى بالآستانة ، وقد استخرج دى غويه نبذا منها وطبعها تحت عنوان « كتاب الخراج » وهذه النبذ هى الأبواب : الثانى والثالث والرابع والخامس والحادى عشر من المنزلة الخامسة ، والبابان السادس والسابع من المنزلة السادسة . وقد وصف ياقوت هذا الـكتاب فى ترجمة قدامة بقوله : «وله كتاب فى الخراج وصناعة الـكتابة» رتبه مراتب وأتى فيه بكل ما يحتاج الـكاتب إليه ، على تسع منازل ، وكان ثمانية فأضاف إليه تاسعاً ، ويقول

(١) راجع ٢٠٢ ج ٢ كتاب الأدب العربي لجورجي زيدان .
(٢) راجع ١٧٣ ج ٢ نفس المرجع .
(٣) راجع ٤٧٠ ج ١ كشف الظنون .

المطرزى ـ فى كتاب الإيضاح شرح مقامات الحريرى ـ مخطوطة المتحف البريطانى : « وله تصانيف كثيرة منها كتاب الألفاظ ، وكتاب نقد الشعر ، وهو حسن للغاية طالعته ونقلت منه أشياء . وقيل هو لوالده جعفر . ومنها صناعة الكتابة ظفرت به وعثرت فيه على ضوال منشودة ، وهو كتاب يشتمل على تسع منازل ، كل منزلة منها تحتوى على أبواب مختلفة ضمنها خصائص الكتاب والبلغاء » ؛ وقال ابن الجوزى في المنتظم فى حوادث سنة ٣٣٧ هـ موت قدامة مانصه : « وله كتاب حسن في الخراج وصناعة الكتابة » .

كتاب نقد الشعر

(١)

أبو الفرج قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) عالم ناقد بصرى مشهور ، ألف كتابا سماه « نقد الشعر » طارت شهرته في كل مكان ، وصار أصلا ، لجميع الدراسات النقدية عن الشعر (١) .

وقد عرّف قدامة الشعر بأنه قول موزون مقفى يدل على معنى ، وذكر أن الشعر قد يكون جيداً أو رديئا ، أو بين الأمرين ، وأنه صنعة ككل الصناعات يقصد إلى طرفها الأعلى(٢) .

ويقول عن منهجه في نقده للشعر : إنه يذكر صفات الشعر التي تبلغه غاية الجودة ، فإن وجد بضد هذا الحال كان شعراً في غاية الرداءة وإلا فهو بين طرفى الجودة والرداءة بحسب مدى قربه من أى الطرفين أو توسطه بينهما .

ويقرر أن المعانى كلها معرضة للشاعر وله أن يتكلم منها فيما أحب ، إذ كانت المعانى للشعر بمنزلة المادة الموضوعة ، والشعر منها كالصورة ، والمهم بلوغ الشاعر منزلة الجودة ، لا كتابته فى معان رديئة .

---

(١) لشهرة نقد الشعر ألف الآمدى م ٣٧١ هـ كتابا فى تبيين غلط قدامة فى كتابه نقد الشعر (ص ١٢٥ الموازنة للآمدى طبعة صبيح ، ومعجم الأدباء فى ترجمة الآمدى) — وألف عبد اللطيف البغدادى (٦٢٩ هـ) كتابا فى شرح نقد الشعر لقدامة « ٧ ج ٢ فوات الوفيات » ، ولعبد اللطيف البغدادى هذا كتاب اسمه قوانين البلاغة ، واختصر كتاب الصناعتين للعسكرى (٧ و ٨ : ٢ فوات الوفيات) ، ويروى مؤلف كشف الظنون لعبد اللطيف بن يوسف « البغدادى » هذا كتابا اسمه « تكملة العلة فى شرح نقد الشعر لقدامة (٢٤٦ : ١ كشف الظنون) وكتابا آخر اسمه كشف الظلامة عن قدامة « ٤٠٠ : ٢ كشف الظنون » .

(٢) ص ١٣ نقد الشعر شرح « منون » .

ويقرر أن الشعر مؤلف من أربعة عناصر : اللفظ والمعنى والوزن والقافية .
ويتألف من هذه العناصر أربعة عناصر أخرى هي :

١ — ائتلاف اللفظ مع المعني أو الوزن .

٢ — ائتلاف المعنى مع الوزن أو القافية .

أما صفات اللفظ الجيد عنده فهي: سماحة اللفظ - سهولة مخارج الحروف - الخلو من البشاعة - الفصاحة .

وأما صفات الوزن الجيد فهي : سهولة العروض - الترصيع .

وأما صفات القوافي الجيدة فهي : عذوبة حروف القافية - سهولة مخرجها - التصريع فى المطلع .

وأما صفات المعنى الجيد عنده فهي : الوفاء بالغرض المقصود ، أما الغلو في المعني فيؤثره قدامة على الاقتصار على الحد الوسط ، ويقول : إنه عندى أجود المذهبين وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وحديثا ، حتى قال بعضهم : أعذب الشعر أكذبه ، وكذلك ذهب فلاسفة اليونان فى الشعر على مذهب لغتهم، والغلو من باب الخروج عن الموجود والدخول في باب المعدوم ، فالمراد به المثل وبلوغ النهاية فى النعت ، ولما كانت المعانى عند قدامة لا نهاية لها فقد عدد نعوت الشعر فى أغراض الشعراء من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف الخ .

فنعت المدح الجيد عنده هو : الصدق - ويقسم الفضائل الإنسانية إلى أربع : العفة والشجاعة والعدل والعقل ، ويقول : إن المدح المصيب يكون بهذه الصفات أو ببعضها وإن كان ذلك يعد قصورا ، وقد يصف الشاعر الممدوحين ببلوغ الغاية فى هذه الصفات من باب الغلو والمبالغة .. والهجاء ضد

المدح فى رأيه ، وصفاته ضد صفات المدح ، و يقرر إنه ليس بين المرثية والمدحه فرق إلا فى اللفظ دون المعني ، فإصابة المعنى به ومواجهة غرضه هى أن يجرى الأمر فيه على سبيل المدح . . ثم يذكر نعوت التشبيه الجيد ، والوصف الجيد ، والغزل الجيد .

ويقول : إن هذه هى نعوت أغراض الشعر التى تحتها الشعراء من المعانى ، وهذه الأغراض بالنسبة للمعانى جزء من كل ، فأما ما يعم جميع المعانى من نعوت الشعر فهى : صحة التقسيم ـ صحة المقابلة ـ صحة التفسير ـ التتميم ـ المبالغة ـ التكافؤ ـ الالتفات ـ الاستغراب والطرافة .

ثم يذكر قدامة نعوت ائتلاف اللفظ مع المعنى من : مساواة ، وإرداف ، وإشارة ، وتمثيل ، ومطابق ومجانس .

ويعدد نعوت ائتلاف اللفظ والوزن ، وائتلاف المعنى والوزن ، وائتلاف المعنى مع القافية [من ترشيح وإيغال] .

ويذكر عيوب الشعر في اللفظ ، والمعنى ، والوزن ، والقافية ، وعيوب ائتلاف اللفظ والمعنى وائتلاف اللفظ والوزن ، وائتلاف المعني مع الوزن ، وائتلاف المعنى مع القافية ، وهي كلها بعكس ما سبق أن قرره فى صفات الجودة .

(٢)

والكتاب في غاية الأهمية في بابه ، وقد تأثر فيه قدامة بكتاب [فن الشعر] لأرسطو تأثراً واضحا .

على أن قدامة يناقض نفسه حين يذهب إلى أن الشاعر يجب ألا يمدح

أحدا إلا بما هو فيه(١) ، ثم يذكر أن الشاعر المجود في المدح هو من يجمع جميع الفضائل الإنسانية الممدوح . . وحين يرى قدامة أن المبالغة أجود يعود فيقيدها بنهج العرب ومألوفهم(٢) ، ثم يقيدها بألا تخرج إلى حد الممتنع الذى لا يكون(٣) .

وقدامة مع تفضيله المبالغة يرى أن كثيرا في قوله لعبد الملك : « على أبي العاصى دلاص حصينة » الخ أجود من الأعشى في قوله : « كنت المقدم غير لابس جنة الخ » ، وقدامة مخطىء هنا لأن العرب قد تصف الرجل بالشجاعة ، وقد تصفه بالاحتراس ولبس الدروع ، وذلك منهجان من مناهج العرب في المدح(٤) .

وقدامة يحكم عقله المنطقى في النقد إلى أبعد حد ؛ فيجعل المدح الجيد بذكر جميع الفضائل الإنسانية ، ويعيب المدح إذا كان بشرف الآباء لأنه ليس مدحا بفضائل(٥) ، ويجعل الهجاء بنفى أن يكون الرجل شريف الحسب معيبا ، ويقرر أنه ضد المدح ، ويجعل المرثية هى المدح مع جعل الأسلوب ماضيا وذلك كله خطأ ما بعده من خطأ .

وقدامة يجعل طرافة المعنى واختراعه ليس نعتا للشعر بل للشاعر(٦) وذلك بين الخطأ .

وقدامة يستجيد أبياتا ويعيب أبياتا أخرى دون ذوق أدبي مصقول ، ومن مثل ذلك أيضا أنه يجعل تناقضا معيبا في بيت ابن هرمة :

---

(١) ص ٣٨ نقد الشعر .
(٢) ص ٣٧ سطر ١٠ـ١٢ .
(٣) ص ١٢٥ سطر ١٢ـ١٥ .
(٤) ص ٣٢٨ـ٣٣١ الوساطة .
(٥) ص ١١١و١١٢ نقد الشعر .
(٦) ص ٨٨و٨٩ المرجع .

تراه إذا ما أبصر الضيف كلبه　　يكلمه من حبه وهو أعجم

لقوله « يكلمه » و « أعجم » (١) .

ونراه يعيب البيت :

كانت بنو غالب لأمتها　　كالغيث في كل ساعة يكف

لأنه كما يقول : ليس في المعهود أن يكف الغيث كل ساعة أي يمطر (٢) .

وكذلك يثبت التناقض في قول زهير (٣) :

قف بالديار التي لم يعفها القدم　　بلى وغيرها الأرواح والديم

(٣)

على أن قدامة في كتابه يضع منهجا نقديا لنقد الشعر، متأثرا فيه بالثقافتين العربية الأصيلة ، والفلسفية اليونانية ؛ ونهج قدامة في نقد الشعر نقد عقلي ، فقد صور المثل الأعلى للشعر وما يجب أن يكون عليه ، وذلك ببيان عناصر الشعر والأوصاف الجميلة لكل عنصر ، ثم قال إن هذا المثل الأعلى يرشدنا أولا وبالذات إلى معرفة جيد الشعر ، وثانيا وبالتبع إلى معرفة رديئه الذي هو ضد الجيد منه ، وثالثا معرفة درجة الرداءة بالنسبة إلى ما كان من الشعر بين الجودة والرداءة .

ولقد اطلع قدامة على الأدب العربي وعلى آراء الفلاسفة في نقد الشعر وشرع للأدب العربي قوانين جديدة لنقده على ضوء ما قرأ في النقد اليوناني والعربي ، ولكنه كان متأثرا في ذلك بعقله المنطقي أكثر من تأثره بمناهج النقاد العرب كالأصمعي وابن الأعرابي وغيرهم من الذين حكموا الذوق الأدبي

---

(١) ١٢٣ نقد الشعر .
(٢) ص ١٢٦ المرجع .
(٣) ص ١٢٤ المرجع .

وحده بالنهج العربي في الأسلوب دون سواه .. قدامة حكم عقله ، وثقافته اليونانية فيما ذكر من موازين النقد فأسرف وأحال .

على أن هذا النهج الذي نهجه قدامة كان أكبر خطوة جريئة لتدوين البلاغة العربية وأصول النقد الأدبي ، وحسبك أن ثلاثة من النقاد العرب احتذوا قدامة ونهجه في النقد احتذاء كاملا ، وأولهم هو أبو هلال العسكري [٣٩٥ هـ] في كتابه « الصناعتين » وثانيهما ابن رشيق [٤٥٦ هـ] في كتابه « العمدة » ، وثالثهما ابن سنان الخفاجي (٤٦٦ هـ) في كتابه «سر الفصاحه» وقد تأثر علماء البلاغة تأثرا شديدا بقدامة وآرائه في « نقد الشعر » ومنهم عبد القاهر الجرجاني والسكاكي وسواهم .

ويمتاز قدامة في كتابه بالمنهجية العقلية والعلمية وبتخير الشواهد والمثل .

كتاب نقد الشعر لقدامة

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر لإتمامه

[مقدمة المؤلف لكتابه]

﴿ قال أبو الفرج قدامة بن جعفر ﴾ :

العلم بالشعر ينقسم أقساما :

فقسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه .

وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه .

وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته .

وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد به .

وقسم ينسب إلى علم جيده ورديئه .

وقد عنى الناس بوضع الكتب فى القسم الأول وما يليه إلى الرابع عناية تامة ، فاستقصوا أمر العروض والوزن وأمر القوافي والمقاطع وأمر الغريب والنحو ، وتكلموا فى المعانى الدال عليها الشعر ، وما الذي يريد بها الشاعر .

ولم أجد أحدا وضع(١) فى «نقد الشعر» وتخليص جيده من رديئه كتابا ، وكان الكلام عندى في هذا القسم(٢) أولى بالشعر من سائر الاقسام المعدودة ، لأن علم الغريب والنحو واغراض المعانى محتاج إليه فى أصل الكلام للشعر والنثر، وليس هو باحدهما أولى بالآخر ، وعلما (٣) الوزن والقوافى وإن خصا بالشعر

---

(١) أى ألف .

(٢) وهو نقد الشعر .

(٣) الأصح : وعلمى بالعطف « على علم » سابقاً .

وحده فليست الضرورة داعية إليهما لسهولة وجودهما فى طباع أكثر الناس من غير تعلم . ومما يدل على ذلك أن جميع الشعر الجيد المستشهد به إنما هو لمن كان قبل وضع الكتب فى العروض والقوافى ، ولو كانت الضرورة إلى ذلك داعية لكان جميع هذا الشعر فاسدا أو أكثره ؛ ثم ما نرى أيضا من استغناء الناس عن هذا العلم بعد واضعيه إلى هذا الوقت فإن من يعلمه ومن لا يعلمه ليس يعول فى شعر إذا أراد قوله إلا على ذوقه دون الرجوع إليه فلا يتوكد عند الذى يعلمه صحة ذوق ما تزاحف منه بأن يعرض عليه ، فكان هذا العلم مما يقال فيه إن الجهل به غير ضائر وما كانت هذه حاله فليست تدعو إليه ضرورة .

فأما علم جيد الشعر من رديئه فإن الناس يخبطون فى ذلك منذ تفقهوا فى العلوم ، فقليلا ما يصيبون ، ولما وجدت الأمر على ذلك ، وتبينت أن الكلام في هذا الأمر أخص بالشعر من سائر الأسباب الاخر ، وأن الناس قد قصروا في وضع كتاب(١) فيه ، رأيت أن أتكلم فى ذلك بما يبلغه الوسع فأقول :

---

(١) هذا يشير إلى أن كتاب قدامة هذا هو أول مؤلف فى نقد الشعر كما يرى قدامة .

الفصل الأول

إن أول مايحتاج إليه في شرح هذا الأمر(١) معرفة حد(٢) الشعر الجائز عما ليس بشعر ، وليس يوجد في العبارة عن ذلك أبلغ ولا أوجز مع تمام الدلالة من أن يقال فيه : إنه قول موزون مقفى يدل على معنى ، فقولنا « قول » دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر ، وقولنا « موزون » يفصله مما ليس بموزون / إذ كان من القول موزون وغير موزون /، وقولنا « مقفي » فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع ، وقولنا « يدل على معنى » يفصل ما جري من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معني ، فإنه لو أراد مريد أن يعمل من ذلك شيئا على هذه الجهة لأمكنه وما تعذر عليه .

فإذ قد تبين أن ذلك كذلك ، وأن الشعر هو ما قدمناه ، فليس من الاضطرار إذاً أن يكون ما هذه سبيله جيدا أبدا ولا رديئا أبداً ، بل يحتمل أن يتعاقبه(٣) الأمران(٤) مرة هذه وأخرى هذه على حسب ما يتفق، فحينئذ يحتاج إلى معرفة الجيد وتمييزه من الردىء .

ولما كانت للشعر صناعة ، وكان الغرض في كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال ، إذ كان جميع ما يؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن فله طرفان ، أحدهما غاية الجودة ، والآخر غاية الرداءة ، وحدود(٥) بينهما تسمى الوسائط ، وكان كل قاصد لشيء من ذلك فانما يقصد الطرف الأجود ، فإن كان معه من القوة في الصناعة مايبلغه إياه سمي حاذقا

---

(١) وهو بيان وجه الحاجة الى معرفة كل من الجيد والردىء ، أو بيان ان من الشعر ما هو جيد ومنه ماهو ردىء .

(٢) أي ماهيته .

(٣) أي يتداوله .

(٤) الجودة والرداءة .

(٥) عطف على « طرفان » .

تام الحذق ، فإن قصر عن ذلك نُزّل له اسم بحسب الموضع الذى يبلغه فى القرب من تلك الغاية والبعد عنها ، إذ كان الشعر أيضا جاريا على سبيل سائر الصناعات ، مقصوداً فيه وفى ما يحاك ويؤلف منه إلى غاية التجويد ، وكان العاجز عن هذه الغاية من الشعراء إنما هو من ضعفت صناعته . فإذ قد صح أن هذا على ماقلناه فلنذكر صفات الشعر الذي إذا اجتمعت فيه كان في غاية الجودة ، وهو الغرض الذى تنحوه الشعراء بحسب ماقدمناه من شريطة الصناعات ، والغاية الأخرى والمضادة لهذه الغاية هى نهاية الرداءة وأذكر أسباب الجودة وأحوالها وأعداد أجناسها ليكون ما يوجد من الشعر الذى اجتمعت فيه الأوصاف المحمودة كلها وخلا من الخلال المذمومة بأسرها يسمى شعراً في غاية الجودة ، ومايوجد بضد هذه الحال يسمى شعراً في غاية الرداءة ، وما يجتمع فيه من الحالين أسباب ينزل له اسما(١) بحسب قربه من الجيد أو من الردىء أو وقوعه في الوسط الذى يقال لما كان فيه : صالح أو متوسط أو لا جيد ولا ردىء ، فإن سبيل الاوساط فى كل ماله ذلك أن تحد بسلب الطرفين ، كما يقال مثلا في الفاتر الذي هو وسط بين الحار والبارد إنه لا حار ولا بارد ، والمز الذى هو وسط بين الحلو والحامض إنه لا حلو ولا حامض .

ومما يجب تقدمته وتوطيده قبل ما أريد أن اتكلم فيه أن المعانى كلها معرضة للشاعر ، وله أن يتكلم منها في ما أحب وآثر ، من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه ، إذ كانت المعانى للشعر بمنزلة المادة الموضوعة والشعر فيها كالصورة ، كما يوجد فى كل صناعة ، من أنه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها ، مثل الخشب للنجارة ، والفضة للصياغة . وعلى الشاعر إذا شرع في أى معنى كان — من الرفعة والضعة ، والرفث والنزاهة ، والبذخ

---

(١) الأصح : اسم على بناء « ينزل » للمفعول .

والقناعة ، والمدح(١) وغير ذلك من المعانى الحميدة أو الذميمة ، أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة .

ومما يجب تقديمه أيضا أن مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين ، بأن يصف شيئا وصفا حسنا ثم يذمه بعد ذلك ذما حسنا ، بينا غير منكر عليه ، ولا معيب من فعله ، إذا أحسن المدح والذم ، بل ذلك عندى يدل على قوة الشاعر في صناعته ، واقتداره عليها .

وإنما قدمت هذين المعنيين(٢) لما وجدت قوما يعيبون الشعر إذا سلك الشاعر هذين المسلكين(٣) ، فإني رأيت من يعيب امرأ القيس فى قوله :

فَمِثْلُكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ ... فأَلْهَيْتُها عن ذِي تمائمَ مُحْوِلِ (٤)

إذا ما بَكَى مِنْ خَلفِها انصرَفَتْ لهُ ... بِشِقٍّ وتَحتِي شِقُّها لم يُحَوَّلِ

ويذكر أن هذا معنى فاحش وليس فحاشة المعنى فى نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه ، كما لا يعيب جودة النجارة فى الخشب مثلا رداءته فى ذاته .

وكذلك رأيت من يعيب هذا الشاعر أيضا (٥) فى سلوكه المذهب الثاني (٦) الذى قدمته حيث استعمله باقتدار وقوة ، وتصرف فيه إحسانا وحذاقة ، وذلك قوله فى موضع :

---

(١) الأصح : والمدح والهجاء .

(٢) وهما : أن المعانى كلها معرضة للشاعر ، وأن مناقضة الشاعر نفسه أمر غير منكر .

(٣) بأن حمل المعاني فيه كلها معرضة للشاعر أو ناقض الشاعر نفسه فى كلمتين أو قصيدتين .

(٤) الطروق : الاتيان ليلا . المرضع : هي التي لها ولد رضيع . محول : أتى عليه حول .

(٥) وهو امرؤ القيس .

(٦) وهو مناقضة الشاعر نفسه فى كلمتين .

فلَو أنَّ ما أسعَى لأدْنى معيشةٍ   كَفاني ولمْ أطلبْ قليلٌ من المالِ
ولـكنَّما أسعَى لمجدٍ مُؤثَّلٍ   وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالى(١)

وقوله في موضع آخر :

فتمـلأُ بيتَنا أقِطًا وسَمْنًا   وحسبُكَ مِنْ غِنًى شِبعٌ ورِيٌّ(٢)

فإن من عابه زعم أنه من قبيل المناقضة ، حيث وصف نفسه في موضع بسمو الهمة وقلة الرضى بدنىء المعيشة ، وأطرى فى موضع آخر القناعة وأخبر عن اكتفاء الانسان بشبعه وريه .

وإذ قد ذكرت ذلك فلا بأس بالرد على هذا العائب في هذا الموضع(٣) ليكون في ما احتج به بعد التطريق(٤) لمن يؤثر النظر في هذا العلم(٥) [طريق] إلى التمهر فيه ، فأقول :

إنه لو تصفح أولا قول امرىء القيس حق تصفحه لم يوجد معنى ناقض معنى ، فالمعنيان فى الشعرين متفقان ، إلا أنه زاد فى أحدهما زيادة لا تنقض ما في الآخر ، وليس أحد ممنوعا من الاتساع فى المعانى التي لا تتناقض ، وذلك أنه قال فى أحد المعنيين :

فلَو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ   كَفاني ولم أطلبْ قليلٌ منَ المـالِ

وهذا موافق لقوله :

وحسبك من غنى شبع وري

(١) مؤثل : ثابت .
(٢) الأقط : اللبن الخاثر أو هو لون من الجبن
(٣) وهو الثانى (أى المناقضة) .
(٤) طرق له تطريقا اتخذ له وعبد له طريقا
(٥) وهو النقد .

ولكن في المعنى الأول زيادة ليست بناقضة لشيء ،وهو(١)قوله : لكني لست أسعى لما يكفيني ولكن لمجد أؤثله ، فالمعنيان اللذان ينبئان عن اكتفاء الإنسان باليسير متوافقان في الشعرين ، والزيادة في الشعر الأول التي دل بها على بعد همته ليست تنقض واحداً منهما ، ولا تنسخه، وأرى أن هذا العائب ظن أن امرأ القيس قال في أحد الشعرين : إن القليل يكفيه ، وفي الآخر : إنه لا يكفيه .

وقد ظهر بما قلنا أن هذا الشاعر لم يقل شيئا من ذلك ، ولا ذهب إليه ، ومع ذلك فلو قاله وذهب إليه لم يكن عندي مخطئا ، من أجل أنه لم يكن في شرط شرطه يحتاج إلى أن لا ينقض بعضه بعضا ، ولا في معنى سلكه في كل واحدة أيضا لم يجر مجرى العيب ، لأن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقا ، بل إنما يراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائنا ما كان أن يجيده في وقته الحاضر ، لا أن ينسخ ما قاله في وقت آخر، ومع ما قدمته فاني لما كنت آخذا في معنى(٢) لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها ، احتجت أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها ، وقد فعلت ذلك والاسماء لامنازعة فيها ، إذ كانت علامات ، فان قنع بما وضعته من هذه الاسماء وإلا فليخترع كل من أبي ماوضعته منها ما أحب ، فانه ليس يُنَازَعُ في ذلك .

* * *

وإذ قدمت ما احتجت إلى تقديمه فأقول :

إنه لما كان الشعر على ما قلناه لفظا موزونا مقفي يدل على معنى ، وكان هذا الحد مأخوذاً من جنس الشعر العام له وفصوله التي تحوزه(٣) عن غيره ، كانت معاني هذا الجنس والفصول موجودة فيه ، كما يوجد في كل محدود

(١) أي والزائد قوله .
(٢) وهو وضع ميزان دقيق للنقد .
(٣) تفصله .

معاني حده ، لأن الانسان مثلا يحـد بأنه حي ناطق ميت ، فحي بمعنى الحياة التي هي جنس الانسان الموجود فيه ، وهو التحرك والحس ، وكذلك معنى النطق الذي هو فصله ممـا ليس بناطق موجودٌ فيه ، وهو التخيل والذكر والفكر ، ومعنى الموت الذي في حد الانسان وهو قبـول بطلان الحركة ، وكذلك أيضا معنى اللفظ الذي هو جنس للشـعر موجود فيه ، وهو حروف خارجة بالصوت ، متواطأ عليها ، وكذلك معنى الوزن ومعنى التقفية ومعنى ما يدل عليه اللفظ ؛ فإن كان ذلك كما قلنا فالشعر إنما هو ما اجتمع من هذه الأسباب التي يحيط بها حده ولما كان كل مجتمع وكل مؤلف من أمور ، فالأمور فؤلف من بعضها مع بعض ، يزيد عددها فيه وينقص على حسب كثرة الأمور وقلتها ، وجب أن يكون الشعر أيضا لمـا كان مجتمعا من أسباب أن تكون أقسام تأليف هذه الاسباب بعضها إلى بعض جاريا هذا المجرى ، وأن يكون تعديد هذه التأليفات إذا استوعب وأضيف إلى ذلك عدة الأسباب المفردات من غير تأليف ، فقد أتى على جميع الأسباب التي يجب الكلام فيها من أمر الشعر ؛ فأقول :

إنه لما كانت الأسباب المفردات التي يحيط بها حد الشعر على ماقدمنا القول فيه أربعة ، وهي : اللفظ ، والمعنى ، والوزن ، والتقفية ؛ وجب بحسب هذا العدد أن يكون لها ستة أضرب من التأليف ، إلا أني وجدت اللفظ والمعني والوزن تأتلف ، فيحدث من ائتلافها بعضها إلى بعض معان يتكلم فيها ، ولم أجد القافية مع واحد من سائر الأسباب الأخر ائتلافا ، إلا أني نظرت فيها فوجدتها - من جهة ما أنها تدل على معنى لذلك المعنى الذي تدل عليه - ائتلافا مع سائر البيت فاما مع غيره فلا لأن القافية إنما هي لفظة مثل لفظ سائر البيت من الشعر ، ولها دلالة على معنى لذلك اللفظ أيضا ، والوزن شيء واقع على جميع

لفظ الشعر الدال على المعنى ، فاذا كان ذلك كذلك فقد انتظم تأليف الثلاثة الأمور الأخر ائتلاف القافية أيضا ، إذ كانت لا تعدو أنها لفظة كسائر لفظ الشعر المؤتلف مع المعنى ؛ فأما من جهة ماهى قافية فليس ذلك ذاتا يجب بها أن يكون لها به ائتلاف مع شيء آخر ، إذ كانت هذه اللفظة إنما قيل فيها إنها قافية من أجل أنها مقطع البيت وآخره ، وليس أنها مقطع ذاتى لها ، وإنما هى شيء عرض لها بسبب أنه لم يوجد بعدها لفظ من البيت غيرها ، وليس الترتيب أن لا يوجد للشيء تال يتلوه ذاتا قائمة فيه ، فهذا هو السبب في أنه لم يكن للقافية من جهة ما هى قافية تأليف مع غيرها . فأما من جهة ما تدل عليه فان ذلك تأليف معني إلى ما يتألف ، إلا أني نسبته في هذا الكتاب إلى القافية على سبيل التسمية ، وإن أراد مريدٌ إلى أن ينسب ذلك إلى أنه تأليف معنى القافية إلى ما يتألف معه لم أضايقه ، فصار ما أحدث من أقسام ائتلاف بعض هذه الأسباب إلى بعض أربعة ، وهي :

ائتلاف اللفظ مع المعنى .

وائتلاف اللفظ مع الوزن .

وائتلاف المعنى مع الوزن .

وائتلاف المعنى مع القافية .

وصارت أجناس الشعر ثمانية ، وهى الأربعة المفردات البسائط التي يدل عليها حده ، والأربعة المؤلفات منها .

ولما كان لكل واحد من هذه الثمانية صفات يمدح بها ، وأحوال يعاب من أجلها ، وجب أن يكون جيد ذلك ورديئه لاحقين للشعر إذ كان ليس يخرج شيء منه عنها . فلنبدأ بذكر أوصاف الجودة فى كل واحد منها ،

ليكون مجموع ذلك إذا اجتمع للشعر كان في نهاية الجودة ، وإذا لم يكن فيه شيء منها كان في نهاية الرداءة لا محالة ، إذ كان هذان الطرفان مشتملين على جميع النعوت أو العيوب التي نذكرها ، ولما لم يكن كل شعر جامعا جميع النعوت أو العيوب ، وجب أن تكون الوسائط التي بين المدح والذم تشتمل على صفات محمودة وصفات مذمومة ، فما كان فيه من النعوت أكثر كان إلى الجودة أميل ، وما كان فيه من العيوب أكثر كان إلى الرداءة أقرب ، وما تكافأت فيه النعوت والعيوب كان وسطا بين المدح والذم . وتنزيلُ ذلك إذا حصر ما في الطرفين من النعوت والعيوب لا يبعدُ على من أعمل الفكر ، وأحسن سَبْرَ الشعر(١) .

(١) سبر الجرح : نظر ما مدى غوره وكل أمر رزته وجربته وخبرته فقد سبرته .


الفصل الثانى

فلنبدأ من ذكر الاجناس الثمانية بأولها من الأربعة المفردات وهو اللفظ ونذكر نعوت ذلك ، ونعوت سائر الأجناس ، ونجعل هذا الفصل مقصوراً على ذكر النعوت .

١ - نعت اللفظ

أن يكون سمحا ، سهل مخارج الحروف من مواضعها ، عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، مثل أشعار يؤخذ فيها ذلك وإن خلت من سائر النعوت للشعر ، منها أبيات من تشبيب قصيدة للحادرة الذبيانى وهى :

وتصدَّفت حتّى اُستبَتكَ بواضِحِ صلتٍ كمُنتَصِبِ الغزالِ الأتلعِ (١)
وبمُقلَتَيْ حوراءَ تَحسبُ طَرفها وسْنانَ حرة مُستَهِلِّ المدمعِ (٢)
وإذَا تُنازِعكَ الحديث رأيتَها حَسَناً تبسُّمها لذيذَ المكرَعِ (٣)
كَغَرِيضِ سارِيةٍ تُنَفِّحُهُ الصبَا بمَزِيلِ أسحرَ طيّب المستَنقَعِ (٤)
لَعِبَ السيُّولُ بهِ فأصبحَ ماؤُهُ غللاً يُقطِّع في أصولِ الخِروعِ (٥)
فَسُمَيُّ ويحكِ هلْ علِمتِ بفتيةٍ غاديتِ لذَّتهمْ بأدكَنَ مترَعِ (٦)
بَكروا عليَّ بسُحرَةٍ فَصبحتُهُم من عاتقٍ كدَمِ الذَّبيحِ مشعشعِ (٧)

---

(١) الواضح : الأبيض اللون أى بجيد واضح الصلت : الواضح استبتك : أسرتك الأتلع : الطويل العنق .

(٢) الحور : اشتداد بياض العين وسوادها . الطرف : العين . وسنان : نائم . حرة : خالصة . ومستهل : هاطل . المدمع : المدموع .

(٣) المكرع هو الفم .

(٤) السارية : السحابة تسرى ليلا . أسحر : اسم مكان . الصبا : ريح الشمال وهي باردة .

(٥) الخروع كدرم نبت لا يرعى .

(٦) سمى : اسم المحبوبة أدكن : أى إبريق أدكن اللون . مترع : مملوء .

(٧) العاتق : الخمر القديم مشعشع : ممزوج .

ومن هذا الجنس قول محمد بن عبد الله السلامانى :

ألا ربما هاجت لكَ الشوقَ عرصةٌ ... بمروانَ تمريها الرياحُ الزّعازعُ(١)
بها رسمُ أطـلال وجُثْمٌ خواشعٌ ... عليهن تبكى الهاتفاتُ السّواجع(٢)
وبيضٍ تهادَى في الرّياط كأنها ... مَهَا ربوةٍ طابتْ لهنّ المراتع(٣)
تحرّينَ منّا موعداً بعد رِقبةٍ ... بأعقرَ تعلوهُ الشّروح الدّوافعُ(٤)
لجِئْنَ هدوّا والثّياب كأنها ... من الطلّ بلّتها الرّهام النّواشع(٥)
طروقًا وألجأنا الهوَى نحوَ رَبْوَةٍ ... بها غفلتْ عنّا العيونُ الخوادع(٦)
فلمّا قضَينا غصّةً منْ عتابنا ... وَقد فاضَ من بعدِ العِتاب المدامع(٧)
جرَى بيننَا منّا رَسيسٌ يزيدُنا ... سِقاماً إذا ما استيقَنَتْهُ المسامع(٨)
قليلاً وكانَ الليلُ في ذاكَ ساعةً ... وقمن ومعروفٌ من الصبح صادع(٩)
وولينَ منْ وجدٍ بمثل الذى بنَا ... وسالت على آثارهنّ المَدَارع(١٠)
يُزجّين بكراً يَبهرُ الرّيطَ متنُها ... كما مارَ ثعبان الفَضا المتدافعُ

---

(١) العرصة كل بقعة بين الدور ليس بها نبات . تمريها . تدرها . الزعازع — الرياح الشديدة الحركة . مروان : موضع .

(٢) الرسم : الأثر . الجثم : ما تلد فى الأرض . الهاتفات : هتف الحمامة تهتف صاتت . السواجع : الحمامة رددت صوتها وجمعها سواجع .

(٣) وبيض أى ونساء بيض . الرياط : جمع مفرده ريط وهو الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقتين . المها: البقرة الوحشية . الربوة: ما ارتفع من الأرض . المراتع جمع مرتع .

(٤) الرقبة : الانتظار : تحرين : استوثقن . أعقر: الموضع من الرمل لا نبات به.

(٥) الرهام : المطر الضعيف الدائم . النواشع : جمع ناشع من نشع إذا أمطر قطرة قطرة .

(٦) طروقا : أى بليل .

(٧) غصة : يجعل العتاب ومرارته كالغصة فى الحلق .

(٨) الرسيس : أول الحب . السقم : المرض . استيقنه المسامع : علمته وتحققته .

(٩) صادع : مشرق .

(١٠) المدارع : نوع من الثياب الطويلة ودرع المرأة قميصها .

وقُمنَ إلى خُوصٍ كأنّ عيونَها قلاتٌ تراخى ماؤها فهو ناصع(١)

ومنه بيتان لشماخ(٢) يذكر نهيق الحمار:

إذا رجعَ التعشير ردًّا كأنه بناجذه من خلفِ قارحِهِ شجِ(٣)
بعيدُ مدى التطريبِ أولى نهاقِهِ سحيلٌ وأُخراه خفيٌّ الحشرجِ(٤)

ومنها أبيات لجبهاء الأشجعي

أمنَ الجميعِ بذي اليفاعِ رُبوع راعت فؤادكَ والربوع تروع(٥)
مِن بعدِ ما بليت وغيّر آيها قَطرٌ ومسبلة الذيول خَدِيع(٦)
جوّالةٌ برُبى الملا غَزليةٌ برغامهنّ مربةٌ زعزوع(٧)
ياصاحبيّ ألا ارفعاني إنّهُ يشفى الصداع فيُذهل المرفوعُ
ألواحُ ناجيةٍ كأنّ قليلها جذعَ تطيفُ بهِ الرقاة منيعُ(٨)
تنجو إذا نجدتْ وعارضَ أوبها أشلاء لحنَ منَ النياطِ خضوع(٩)
في كلّ مطّردِ الرّفاقِ كأنّهُ نِسرٌ يُرنّقُ قد دهاهُ وقوع
عرّينَ دائرةَ الظهيرةِ بعدَ ما وغونَ والحدَق السكنين خشوع

---

(١) خوص : الخوص جمع أخوص والأخوص من غارت عينه فى رأسه . القلت : النقرة فى الجبل . ناصع : خالص من كل شىء .

(٢) شاعر مخضرم بدوى مجيد .

(٣) رجع : ردد . التعشير : نهيق الحمار عشراً . الناجذ : واحد النواجذ وهي أقصى الأضراس وهي أربعة أو هي الأنياب . شج : شجى بالعظم إذا اعترض فى حلقه .

(٤) المدى : الغاية . التطريب : ترجيع الصوت وتزيينه . أولى : أول . السحيل : النهاق .

(٥) اليفاع : المكان المرتفع .

(٦) آيها : رسمها . القطر : مطر السحاب مسبلة الذيول : أى سحابة طويلة الحواشى . خديع : من خدعه أى ختله .

(٧) جوالة : طوافة . الرغام : التراب اللين . زعزوع : كثيرة زعزعة الأشياء .

(٨) الناجية : الناقة . الرقاة : جمع مفرده : راق .

(٩) لاح : ظهر . النياط . المفازة البعيدة الطرق .

بأمقَّ أغبرَ يلتقي حنَّانُهُ للرِّيحِ بينَ فروعِهِ ترجيع
يَتَمسُّ متنزلهنَّ أطلسُ جائع طَيَّانُ يتلِف ماله ويضيع(١)

ومثله أيضا (٢) :

ولما قضينا من مِني كلَّ حاجةٍ ومسَّح بالأركان من هوَ ماسح
وشدَّت على دُهم المَهارِي رحالنا ولم ينظر الغادِي الذِي هوَ رائح (٣)
أخذنا بأطرافِ الأحاديث بيننا وسالَتْ بأعناقِ المَطيِّ الأباطِح(٤)

---

(١) اعاس طاف . الأطلس : الذئب فى لونه غبرة الى السواد ، والمراد به الرجل القبيح
طيان : طاوى الأيام بدون أكل .
(٢) الأبيات لكثير عزة الشاعر الأموى المشهور .
(٣) دهم المهارى : سودها .
(٤) الأباطح : مفرده أبطح وهو المسيل الواسع فيه دقاق الحصى .

٢ — نعت الوزن

أن يكون سهل العروض من أشعار يوجد فيها وإن خلت من أكثر نعوت الشعر . . منها قصيدة حسان :

مَا هاجَ حَسانَ رسومُ المقام وَمظْعن الحيِّ وَمبني الخيام(١)
والنُّؤى قَد هدَّمَ أعضادَه تَقادُم العَهدِ بوادٍ تهام(٢)
قَد أدْرك الوَاشونَ ما أمَّلوا فالحبلُ من شعثاء رثُّ الزِّمام(٣)
كأن فاها ثَغَبٌ باردٌ في رَصفٍ تحتَ ظلالِ الغَمام(٤)

ومنها قصيدة طرفة :

مَن عَائدي اللَّيلة أم من نصيح بِتُّ بنصب فَفؤادي قَريح(٥)
بانت فأمسى قَلبُهُ هائما قَد شفَّه وَجد بها ما يريحْ(٦)
في سلفٍ أرعنَ مُنفجر يقدم أولى ظعن كالطُّلوح(٧)

---

(١) رسوم : جمع رسم وهو ما كان لاصقا بالأرض من آثار الديار . مظعن : مصدر ميمي من ظعن أى سار ورحل . والحى : بطن من بطون القبيلة والمراد به هنا القوم . ومبنى الخيام : بناؤها أو مكان بنائها وإقامتها .

(٢) النؤى الحفر حول الخباء لئلا يدخل ماء المطر . أعضاده : نواحيه . تهام : تهامى نسبة إلى تهامة ، وتهامة مكة وبلاد جنوب الحجاز .

(٣) رث : خلق بال . شعثاء : محبوبته .

(٤) الثغب : الغدير فى ظل جبل لا تصيبه الشمس فيبرد ماؤه . الرصف : الحجارة المتراصفة المتدانية

(٥) عائدى : العائد : زائر المريض . قريح بمعنى مقروح أي مجروح .

(٦) ما يريح : ما يتباعد .

(٧) منفجر : متدفق فى سيره . يقدم : يتقدم . طلوح : جمع مفرده طليح وهو شجر شبه الظعن به .

عالينَ رَقْمًا فاخِرًا اونهُ مِن عَبقرِى كنَجيع الذّبيح(١)

ومثله أبيات المنخل بن عبيد اليشكرى :

ولقَدْ دَخلتُ على الفتـــاةِ الخدرَ فى اليومِ المَطير(٢)
الـكاعبِ الحَسناءِ تَرفُـــلُ في الدّمقسِ وفي الحرير(٣)
فَدفعتُهـــا فَتدافَعت مَشيَ القَطَاةِ إلى الغدير(٤)
وعَطفتُهـــا فتعطَّفت كتَعطفِ الغُصنِ النَّضير(٥)
واشْمَتُهـــا فتنَفّست كتنَفُّسِ الظبي الغَرير(٦)
ولقَد شَرِبت مِنَ المدامَةِ بالـكبير وبالصغير(٧)
فاذا سَكِرتُ فإنني ربُّ الخورنَقِ والسدّير(٨)
وإذا صحوتُ فإنني رب الشُّوَيهةِ والبعير(٩)

ومثله أبيات كعب بن الأشرف اليهودى :

رُب خال لى لو أبصرتهُ سَبِط المَشية أبّاء أنف(١٠)
لَيِّنُ الجانب فى أقربه وعلى الأعداء سُم كالزّعف(١١)

(١) عالين : رفعن والرقم : ضربا من الوشى فيها حمرة . فاخرا جيدا : . عبقر : بلدة الجن كما يزعم العرب وينسب إليها كل صنعة رائعة . النجيع : الدم الطرى . الذبيح : المذبوح .
(٢) المطير : اليوم الذى يمطر ساعة ويكف أخرى .
(٣) الكاعب : ذات الثدى المكعب . ترفل : تجر ذيلها . الدمقس : الابريسم.
(٤) الغدير جانب من الماء يغادرها السيل .
(٥) عطفتها : أملتها . فتعطفت : مالت على الغصن . النضير: الشديد الخضرة .
(٦) لثمتها : قبلتها الغرير ولد الظبي الصغير. تنفست الصعداء لموضعى من قلبها .
(٧) كناية عن كثرة شرابه .
(٨) الخورنق : قصر للنعمان الأكبر . السدير : نهر بناحية الحيرة .
(٩) الشويهة : تصغير شاه .
(١٠) سبط : حسن .
(١١) الزعف : القاتل .

لنا بئرٌ رَواء جمة تُخرج الثمل كأمثال الأكف(١)
وصريرٍ من مَجالٍ خلتهُ آخر الليلِ أهازيج تَدف(٢)

* * *

ومن نعوت الوزن الترصيع ، وهو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف كما يوجد ذلك في اشعار كثير من القدماء المجيدين من الفحول وغيرهم وفى أشعار المحدثين المحسنين منهم ، فمما جاء فى أشعار القدماء قول امرئ القيس الكندى :

مِخشٍ مجشٍ مقبلٌ مُدبرٍ معًا كتيسِ ظباء الحُلّبِ العدوَان(٣)

فأتى باللفظتين الأولين مسجوعتين فى تصريف واحد وبالتاليتين لهما شبيهتين بها فى التصريف وربما كان السجع ليس في لفظة « ولكن » في لفظتين بالحرف نفسه كقوله :

ألصُّ الضُروُسِ حَنيُّ الضلوع تبوعٌ طلوبٌ نشيطٌ أشر(٤)

وقصيدة أخري سجع في لفظتين لفظتين بالحرف نفسه مثل قوله :

وأوتادُه مَاذِيةٌ وَعماده رُدينية فيها أسنةٌ تَقضب(٥)

وقال زهير بن أبي سلمى :

---

(١) رواء كثير مرو . الثمل : المسكر .
(٢) وصرير : ورقه صرير . الهزج : صوت مطرب فيه ترنم .
(٣) المخش : الجرىء الماضى . مجش : غليظ الصوت . التيس : فحل الظباء . الحلب نبتة تأكلها الوحوش تضمر عليها بطونها . العدوان : الشديدالجرى وامرؤ القيس هو زعيم الشعراء الجاهليين وصاحب معلقة « قفا نبك » .
(٤) الص الضروس : ملتصق الأسنان بعضها ببعض . حنى الضلوع : ظاهرها تبوع للصيد قوى عليه .
(٥) الماذية : قيل بيضاء وقيل الماذى خالص الحديد وجيده . أسنة : رماح . تقضب : تقطع .

كبدَاءُ مقْبِلةً وركاءُ مدبِرَةً قودَاءُ فيها إذا استعرضتَها خَضَع(١)

فأتى بفعلاء مفعلة تجنيسا للحروف بالأوزان . وقال أوس بن حجر :

جَشًّا حناجرُها علما مَشافِرُها تثن أولادها في دحض إيضاح(٢)

وقال طرفة :

بطيء إلى الداعي سَريع إلى الخنا ذلولٌ بإجماع الرِّجال ملهَّد(٣)

وقال عمرو بن أحمر الباهلي :

فمثلكِ ألوَى بالفؤادِ وزار بالعداد وأضحَى في الحياة وأسكرا (٤)

وقال النمر بن تولب :

من صَوب سارية علّت بغادية تنهلُّ حتى يكادُ الصبحُ ينجاب(٥)

وقال :

طويلُ الذراع قصيرُ الكراع يواشك في السبْسبِ الأغبر(٦)

وقال اللعين المنقري :

مكيثٌ إذا استرخى كميش إذا انتحى على القرب الأقصى وشدَّ له الازرا(٧)

---

(١) الكبداء : المرأة الضخمة « الوسط » البطيئة السير . القوداء : الثنية العالية .

(٢) جشاحناجرها : غليظة شديدة : علما مشافرها : مشقوقة المشافر من أسفل .

(٣) بطيء : فعيل من البطء . الداعي : المستغيث ، ويروى عن الجلى وهو الأمر العظيم الخنا : الفحش . ذلول : فعول من الذل . ملهد : مدفع . وطرفة هو الشاعر الجاهلي المشهور صاحب معلقة « لخولة أطلال » .

(٤) فمثلك ألوى بالفؤاد : أي مثلك يذهب به . وزار بالعداد : زيارتك معدودة .

(٥) الصوب : انصباب المطر . السارية : السحابة تسقط ليلا . علت امتزجت . الغادية الآتية بالغداة . تنهل : تسقط . ينجاب ينكشف .

(٦) الكراع الأطراف السفلى من الإنسان . يواشك : يقارب . السبسب : المفازة أو الأرض المستوية البعيدة .

(٧) المكيث : الرزين . الكميش : السريع .

وقال الأسود بن يعفر :

همُ الاسرةُ الدنيا وهم عدَد الحصاَ   وإخواننا من أمنّا وأبينا

وقال أبو زبيد الطائى :

غير فاش ٍ شئما ولا مخلف ٍ طعما إذا   كان بالسديف ِ السبيكُ (١)

وقال الافوه الازدى :

سودٌ غدائرها بلجٌ مَحاجرُها   كأن أطرافها لما اختلى الطنف(٢)

وقال العجير بن عبد الله السلولى :

َحم الذرّى مرسلة منه العرى   وزجلاتُ الرّعد في غير صعق(٣)

وقال سليك بن سلكة :

إذا سهلَت جنَّت وإن أحزنت مشت   وتمشى بها بين البطون وتَصدِف(٤)

وقال الشماخ :

رَعين النّدَى حتى إذا وقدَ الحصى   ولم يبقَ من نوء السماك ُبروق(٥)

---

(١) السديف : شحم السنام . السبيك : مفرد جمعه سبائك وهو ماسبك من الدقيق ونخل فأخذ خالصه . وأبو زبيد شاعر مخضرم أجاد فى وصف الأسد وتوفى عام ٤١ هـ .

(٢) الغدائر : الشعر الطويل بلج محاجرها : نقية مشرقة والمحاجر مابدا من البرقع أو ما يظهر من نقابها .

(٣) زجلات الرعد : أصوات الرعد . الصعق : محركة شدة الصوت .

(٤) اسهلت :مشت فى السهل . جنت : أسرعت . أحزنت :سارت فى الجبال . البطون: الشقوق بين الجبال .

(٥) رعين : من الرعى . والندى : المطر والمراد بهما أنبته مجاز مرسل . ووقد الحصى : اشتداد حرارته . النوء : فى الأصل النجم ، والمراد به انقطاع المطر لأن العرب يضيفون المطر إلى النجوم السماك : نجم وهو أحد السماكين ، بروق جمع برق وهو الذى يلمع فى الغيم ،

وقال عبيد الراعي :

ضعافُ القوى ليسوا كمن يبتني العُلى   جماسيسُ قصَّارون دون المكارم(١)

وقال أيضا :

سودٌ معاصمها جعدٌ معاقصها   قد مسَّها من عَقيد القار تفصيل(٢)

وقال بشامة بن عمرو بن الغدير :

هوانُ الحياةِ وخزى المماتِ   وكلاً أراه طعاماً وبيلا (٣)

وقالت ليلى الاخيلية :

وقد كان مرهوبَ السنان وبيِّن   اللسانِ ومجذام السَّرى غير فاتر (٤)

وقال ناهض بن توبة الكلابي :

صخوب الصَّدى ظمأى القطا مرّةالسرى   رَكا ماؤُها بين النَّعام الخرائش(٥)

وأكثر الشعراء المصيبين من القدماء والمحدثين قد غزوا هذا المغزى(٦) ، ورموا هذا المرمي . وإنما يحسن إذا اتفق له في البيت موضع يليق به ، فإنه ليس فى كل موضع بحسن ، ولا على كل حال يصلح ، ولا هو أيضا إذا تواتر واتصل في الأبيات كلها بمحمود ، فإن ذلك إذا كان دل على تعمد وأبان عن

---

(١) الجسوس : القصير الدميم . والراعى شاعر أموى مشهور ، توفى عام ٩٠ هـ .
(٢) المعصم : موضع السوار من اليد أو اليد . جعد معاقصها : أي قصيرة .
(٣) هوان الحياة : ذلها .
(٤) مرهوب السنان : ماضى السيف : بين اللسان : فصيحه . ومجذام السرى : قاطع السرى — والبيت فى رثاء توبة الخفاجى (٦٧هـ)— وقد عاشت ليلى حتى توفيت عام ٨٠هـ — وهي من أعلام الشعراء الأمويين .
(٥) صخوب الصدى : شديدم ,
(٦) أي قصدوا هذا المنحي .

تـكلف . على أن من الشعراء القدماء والمحدثين من قد نظم شعره كله ، ووالى بين أبيات كثيرة منه ؛ منهم أبو صخر الهذلى فإنه أتى من ذلك بما يكاد لجودته أن يقال فيه إنه غير متـكلف ، وهو قوله :

وتلكَ هيكلة خَوْدٌ مُبتَّلة صفراءُ رعبلة فى منصبٍ سنم(١)
عذبٌ مقبَّلُها جـدل مخلخلُها كالدّعص أسفلها مخضودة القدم(٢)
سودٌ ذوائبها بيضٌ ترائبها محضٌ ضرائبها صيغت على الكرم(٣)
عبلٌ مقيـدها حال مُقلّدها بضٌّ مجردها لفّاء في عمم(٤)
سمح خلائقُها درمٌ مرافقها يُروي معُانقها من بارد الشبم(٥)
كأن مُعْتقةً فى الدّن مغلقةً صهباء مصفقة من رابئ ردم
شيبت بمرهبةٍ من رأسِ مرقبة جرداء سلهبة فى حالق شمم
خالطَ طعم ثناياها وريقتَها إذا يكونُ توالى النجم كالنظم(٦)

ومنهم أبو المثلم أنه قال :

لو كان للدهر مالٌ كان متلده لـكان للدّهر صخر مال قنيان(٧)

---

(١) الخود الحسنة الخلق الشابة . والمبتلة من النساء الحسنة الخلق فلا تـكون حسنة العين سمجة الأنف ولا بالعكس . رعبلة ذات خلقان . منصب حسب . سنم : عال .

(٢) عذب مقبلها أى محل تقبيلها وهو الفم . مخلخها : موضع الخلخال من الساق يوضع فيه الخلخال . الدعص الرمل . مخضودة القدم مثريلته .

(٣) الذوائب : الشعر فى أعلى الجبهة الترائب : الصدور . أو ما تحت العنق . محض ضرائبها : خالصة الأخلاق .

(٤) عبل : ضخم . المقيد : موضع الخلخال من المرأة . البض : الجسد الرقيق الجلد الممتلىء . مجردها عند تجردها .

(٥) درم مرافقها : مستوية مرافقها : بارد الشبم : البارد يقال ماء شبم أى بارد .

(٦) الثنايا:الريق . لذا يكون توالى الخ أى فى هذه الوقت . شيبت . مزجت . المرهبة: المـاء البارد . المرقبة : المـكان العالى .

(٧) المتلد : المـال القديم .

آبِي المضيمة ناءٍ بالعظيمة متلافُ الكريمةِ جلدٌ غيرُ ثنيانِ (١)
حامي الحقيقةِ بسالُ الوديعةِ معتاقُ الوسيقةِ لا نكسٌ ولا وانِي
رباءُ مرقبةٍ منّاعُ مغلبةٍ وهابُ سلهبةٍ قطاعُ أقرانِ (٢)
هباطُ أوديةٍ حمّالُ ألويةٍ شهادُ أنديةٍ سرحانُ فتيانِ (٣)
يُعطيكَ ما لا تكادُ النفسُ تُرسله منَ التِّلادِ وهوبٌ غيرُ منّانِ (٤)

ومثل ذلك للمحدثين أيضا كثير ، وإنما يذهبون فى هذا الباب إلى المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضا ، فإنه لا كلام أحسن من كلام رسول الله عليه وآله وسلم ، وقد كان يتوخى فيه مثل ذلك ، فمنه ما روى عنه عليه السلام من أنه عوذ الحسن والحسين عليهما السلام فقال « أعيذهما من السامة والهامة وكل عين لامة » ، وإنما أراد ملمة فلإتباع الكلمة أخواتها فى الوزن قال لامة ، وكذلك ما جاء عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : خير المال سكة مأبورة ، ومهرة مأمورة ؛ فقال مأمورة من أجل مأبورة ، والقياس مؤمرة وجاء فى الحديث : « يرجعن مأزورات غير مأجورات » وإذا كان هذا مقصودا له فى الكلام المنثور فاستعماله فى الشعر الموزون أقمن وأحسن .

---

(١) آبى المضيمة : يأباها : ناء بالعظيمة حامل لها ، الكريمة النفيس من المال . جلد غير ثنيان : قوى متين .

(٢) الرباء : الرقيب الذى يتقدم القوم لئلا يدهمهم العدو . المرقبة : الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب : السلهبة : الخيل . قطاع أقران : غالب لأقرانه وأنداده .

(٣) هباط : صيغة مبالغة أودية أى كثير الهبوط فيها . ألوية : جمع لواء وهى الراية التى تكون فى مقدمة الجيش ، والمعنى أنك تجده فى كل مكان يدل على الشجاعة والكرم وعلو الهمة . والسرحان : الذئب .

(٤) التلاد : المال القديم يورث . منان : صاحب من على الناس .

٣ - نعت القوافي

أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج ، وأن تقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها (١) ، فإن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك ولا يكادون يعدلون عنه ، وربما صرعوا أبياتا أخر من القصيدة بعد البيت الأول ، وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره ، وأكثر من كان يستعمل ذلك امرؤ القيس لمحله من الشعر فمنه قوله :

قفا نبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزل ... بسقط اللِّوى بين الدخولِ فحومل(٢)

ثم أتى بعد هذا البيت بأبيات فقال :

أفاطم مهلاً بعض هذا التَّدلُّلِ ... وإن كنت قد أزمعتِ صرمي فأجملي(٣)

ثم أتى بأبيات بعد هذا البيت فقال :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألا انجلي ... بصبحٍ وما الإصباحُ منك بأمثل(٤)

وقال في قصيدة أخرى أولها :

ألا انعِم صباحاً أيها الطلل البالي ... وهل ينعمَنْ من كان في العُصُر الخالي(٥)

---

(١) ويسمى هذا تصريعا ، وهو لحاق العروض بالضرب وزنا وتقفية سواء بزيادة أو بنقصان .

(٢) قفا : خطاب للاثنين أي لصديقيه لمعاونته في بكاء الاطلال والوقوف عليها . اللوى : ما التوى من الرمل . وسقط اللوى : منتهاه وهو مثلث السين . والدخول وحومل : مكانان يقع بينهما سقط اللوى ، وفيه منزل الحبيب .

(٣) أزمع الأمر وأزمع عليه إذا ثبت عزمه على إمضائه . الصرم : الهجر والقطيعة . الإجمال : الرفق .

(٤) أمثل : أفضل ، يذكر أن همومه وأحزانه موصولة فليس الصبح خيراً من الليل .

(٥) ألا انعم صباحاً : تحية الصباح في الجاهلية ، وكانوا يقولون في المساء : ألا انعم مساء ، وبالليل ظلاما ، ثم جاء الإسلام فأبطل هذا مما أبطله من الألفاظ الجاهلية ، وأبدل بدلها كلمة « السلام عليكم » .

وقال بعد بيتين :

دِيارٌ لِسلمى عافِياتٌ بذِي الخالِ أَلَحّ عليها كلُّ أسحَم هطّال(١)

ثم قال بعد أبيات أخرى :

ألا إنَّني بالٍ على جمـلٍ بالى يقودُ بنا بالٍ ويتبعُنا بالى(٢)

وقال في قصيدة أخرى أولها :

غشيتُ ديار الحيِّ بالبكرات فعارمةٍ فبُرقـة العيرات(٣)

ثم قال بعد بيتين :

أعنِّي على التّهمام والذكرات يبتن على ذى الهمِّ مُعتكرات(٤)

وقال في قصيدة أخرى أولها :

عيناكْ دمعُهما سجالْ كأنّ شـأنيهما أوشـالْ (٥)

وقال بعد أبيات :

قلوب خِزّانَ ذي أوْرالْ قوتا كما تُرزقُ العيالْ(٦)

---

(١) طافيات : دارسات . وذوخال : موضع ، يذكر أن ديارها بليت لاستمرار سقوط المطر عليها . الأسحم : الأسود ، والمراد به السحاب الكثير الماء . الهطال : المطر الدائم فى لين ، يريد أن هذه الدار تغيرت ودرست بدوام المطر عليها .

(٢) بال أى أنه مضنى بلاه الحب .

(٣) غشيت : جئت . البكرات : أعلام بطريق مكة . عارمة : مكان . برقة : البقعة التى يخالط حجارتها السود رمل . العيرات : الحمر الوحشية .

(٤) التهيام : تفعال من الهم . والذكرات : جمع ذكرة من التذكير معتكرات : منحدرفات . ذو الهم : أى صاحب الحزن الطويل .

(٥) سجال جمع سجل وهو الدلو العظيم مملوء ماء . شانيهما جانبهما أو مجارى الدموع منهما . أوشال جمع وشل وهو الماء ينحدر من أعالى الجبال بكثرة .

(٦) الخزان : ذكور الأرانب جمع خزن أورال : صاحب ورل والورل : دابة كالضب

وقد سلك هذا السبيل غير امرىء القيس شعراء كثيرون ، فمنهم أوس [بن حجر] قال في قصيدة أولها :

ودّع لميس وداع الصّارم الّلاحى   قد نمست في فسادٍ بعد إصلاح(١)

ثم قال :

إني أرقتُ ولم تأرقْ معى صاحِبي   لمُستكينٍ بعيد النّوم لوّاح (٢)

ومنهم مرقش قال في قصيدة أولها :

أمن رسم دار ماء عينك يسفحُ   غداً من مقام أهله وتروحُوا (٣)

ثم قال :

أمن بنت عجلان الخيال المطرح   ألمّ ورحلى ساقطٌ متزحزحُ (٤)

وقال حسان بن ثابت قصيدة أولها :

ألم تسأل الرّبع الجديد التّكلما   بمدفع أشداخٍ فبُرقة أظلما (٥)

وقال في البيت التالى لهذا :

أبى رسمُ دار الحيِّ أن يتكلمَا   أينطقُ بالمعروف من كان أبكمَا(٦)

---

(١) اللميس المرأة اللينة الملمس .

(٢) المعنى لم تشاركنى فى أرقى ياصاحبي .

(٣) رسم الدار : آثارها . يسفح : من سفح الدمع أرسله سفحا . وسفوحا ، والدمع سافح : منصب

(٤) بنت عجلان : محبوبته . الخيال : مبتدأ مؤخر . المطرح ، يروى بدله : المبرح . الشديد : التبريح .

(٥) أشداخ : واد . والمدفع : مجرى سيوله . وبرقة اظلما : موضع .

(٦) رسم الدار : آثارها .

وقال الشماخ قصيدة أولها :

ألا ناديَا أظعانَ ليلَى تعرِّج فقد هِجنَ شوقًا ليتهُ لم يُهَيَّجِ (١)

ثم قال بعد أبيات :

ألا أدَّلجتْ ليلاكَ من غيرِ مدلجِ هَوَى نفسها إذ ادلجت لم تُعرِجِ (٢)

وقال عبيد بن الابرص قصيدة أولها :

أقفَرَ من أهلهِ ملحوبُ فالقُطَبِياتُ فالذَّنوبُ (٣)

ثم قال بعد أبيات :

أرضُ توارثُها شَعوبُ فكلُّ من حلّها محروبُ (٤)

ثم قال بعد أبيات :

والمرء ما عاشَ في تكذيبِ طولُ الحياةِ له تعذيبُ

وقال الراعي قصيدة أولها :

أبت آياتُ حبي أن تَبِينَا لنَا خبراً فأبكينَ الحزينا (٥)

وربما أغفل بعض الشعراء التصريع في البيت الأول فأتى به في بعض من

---

(١) ناديا : خطاب لرفيقيه . الأظعان : جمع ظعينة وأكثر ماتطلق على المرأة فى هودجها ثم أطلق على الهودج ثم المرأة بالهودج . تعرج : تحبس مطاياها وهو جواب لناديا . هجن شوقا : حركنه والشماخ شاعر مخضرم مجيد ـ توفى عام٢٢ هـ .

(٢) أدلجت من الإدلاج وهو السير آخر الليل . والشماخ شاعر أموى مشهور . هوى نفسها : مفعول له : لم تعرج . لم تعطف .

(٣) ملحوب : اسم موضع . القطبيات : ماء بعينه وجمعه بما حوله . الذنوب : اسم موضع بعينه .

(٤) الشعوب : المنية . المحروب : المسلوب المال . وعبيد : شاعر جاهلى مشهور .

(٥) آيات : جمع مفردها آية وهي العلامة ووزنها فعلة فى قول الخليل وعند غيره أصلها فعلة بفتح الفاء والعين . والراعي : شاعر أموى مجيد .

القصيدة فيما بعد .
قال عمرو ابن أحمر الباهلي قصيده أولها :

قد بكرَت عاذِلَتى بكرةً تزعُم أنى بالصِّبا مشتهَر

فلم يصرع أول القصيدة وأتى ببيتين بعد الأول ثم قال :

بَل ود عيني طفل أنّي بكر فقد دنا الصُّبح فمَا انتظر

وقال أيضا من قصيدة أولها :

لعمركَ ما خلَّفتُ إلاَّ لما ترى وراء رجالٍ أسلمونى لمـا بيا (١)

فأتى بالأول غير مصرع ثم قال بعد أبيات :

فأمسى جنابُ الشّول أغبرَ كابيا وأمسى جناب الحيُّ أبلجَ واريا (٢)

وقال أمية بن حرثان بن الأسعر الكناني قصيدة أولها :

أصبحتُ هزءًا لراعى الضان أعجبه ماذا يُريبك منى راعيَ الضأن (٣)

فلم يصرع أول بيت وأتي بعده ببيت واحد قال فيه :

يا بنى أميّةَ إنِّى عنكما غانِى وما الغِنَى غيرَ أنِّى مُشعرٌ فَانِي

وإنما يذهب الشعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك لأن بنية الشعر إنمـا هى التسجيع والتقفية ، فكلما كان الشعر أكثر اشتمالا عليه كان أدخل له فى باب الشعر وأخرج له عن مذهب النثر .

---

(١) خلفت : تأخرت عن الرجال فى الطريق .

(٢) الجناب : الناحية . الشول : الناقة التى جف لبنها وارتفع ضرعها . واريا : متقدا . كابيا : من كبا لونه كمد ، وكبا تغير ، ورجل كابى اللون عليه غبرة ، والاسم من ذلك الكبوة . أبلج : مضيئا ظاهراً .

(٣) هزءاً : سخرية وأضحوكة : والمعنى : مابى من الكبر والهرم جعلنى أصبح سخرية لكل شخص حتى لراعى الضأن .

٤ - باب المعاني الدال عليها الشعر

جاع الوصف لذلك أن يكون المعنى مواجها للغرض المقصود ، غير عادل عن الأمر المطلوب ، ولما كانت أقسام المعاني التي يحتاج فيها إلى أن تكون على هذه الصفة مما لا نهاية لعدده ، ولم يمكن أن يؤتى على تعديد جميع ذلك ، ولا أن يبلغ آخره ، رأيت أن أكر منه صدرا ينبيء عن نفسه ، ويكون مثالا لغيره ، وعبرة لما لم أذكره ، وأن أجعل ذلك في الأعلام من أغراض الشعراء ، وما هم عليه أكثر حوما ، وعليه أشد روما ، وهو : المديح والهجاء ، والنسيب ، والمراثي ، والوصف ، والتشبيه .

وأقدم أمام كلامي في هذه الاقسام قولا يحتاج إلى تقديمه ، وهو أني رأيت الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر ، وهما : الغلو في المعني إذا شرع فيه ، والاقتصار على الحد الاوسط في ما يقال منه .

وأكثر الفريقين لا يعرف من أصله ما يرجع اليه ، ويتمسك به ، ولا من اعتقاد خصمه ما يدفعه ويكون أبدا مضادا له ، لكنهم يخبطون في ظلماء ، فمرة يعمد أحد الفريقين إلى ما كان من جنس قول خصمه فيعتمده ، ومرة يقصد ما جانس قوله في نفسه فيدفعه ، ويعتقد نقضه .

وقد شهدت أنا من هذه ، وله سبب ، قوما يقولون إن قول مهلهل بن ربيعة :

فلولا الرِّيحُ أُسمع من بحجرٍ صليلَ البيض تقرع بالذُّكور(١)

(١) صليل البيض : صوت طنين السيوف ومهلهل من قدامى الشعراء الجاهليين وهو خال امرىء القيس . الذكور : السيوف ذات الحديد اليابس . حجر : موضع وهو مكان الرياض الحالية .

خطأ ، من أجل أنه كان بين موضع الرقة التي ذكرها وبين حجر مسافة بعيدة جدا .

وكذلك يقولون فى قول النمر بن تولب :

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ أشباهَ سيفٍ قديمٍ إثره بادى
تظل تحفر عنهُ إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادي(١)

وكذلك فى قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النُّطف التى لم تخلق (٢)

ثم رأيت هؤلاء بأعيانهم فى وقت آخر يستحسنون ما يرون من طعن النابغة(٣) على حسان بن ثابت رضى الله عنه فى قوله :

لنا الجفناتُ الغرُّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطُرن من نجدةٍ دما (٤)

وذلك أنهم يرون موضع الطعن على حسان في قوله « الغر » وكان ممكنا أن يقول البيض ، لأن الغرة بياض قليل فى لون آخر غيره ، وقالوا : فلو قال « البيض » لكان أكثر من الغرة ، وفي قوله « يلمعن بالضحى » ولو قال « بالدجى » لكان أحسن ، وفى قوله « وأسيافنا يقطرن من نجدة دما » قالوا : ولو قال «يجرين» لكان أحسن ، إذ كان الجرى أكثر من القطر .

فلو أنهم يحصلون مذاهبهم لعلموا أن هـذا المذهب في الطعن على شعر حسان غير المذهب الذى كانوا معتقدين له من الإنكار على مهلهل والنمر

---

(١) الهادى : العنق لتقدمه والجمع هواد . والنمر شاعر جاهلي مجيد .
(٢) أخفت أهل الشرك : أفزعتهم وروعتهم . النطفة : ماء الرجل جمعه نطف .
(٣) النابغة الذبيانى شاعر جاهلي كبير وكان حكم الشعراء فى سوق عكاظ .
(٤) الجفنات : جمع وهي القصعة تجمع أيضاً على جفان . الغر : البيض . يلمعن : يبرقن . النجدة : الشجاعة .

وأبي نواس ، لأن المذهب الأول إنما هو لمن أنكر الغلو ، والثاني لمن استجاده ، فإن النابغة على ما حكى عنه لم يرد من حسان إلا الإفراط والغلو ، بتصيير مكان كل معنى وضعه ما هو فوقه وزائد عليه ، وعلى أن من أنعم النظر علم أن هذا الرد على حسان ، من النابغة كان أو من غيره ؛ خطأ وأن حسان مصيب إذ كانت مطابقة المعنى بالحق فى يده ، وكان الرد عليه عادلا عن الصواب إلى غيره .

فمن ذلك أن حسانا لم يرد بقوله « الغر » أن يجعل الجفان بيضا ، فإذا قصر عن تصيير جميعها بيضا نقص ما أراده ، لكنه أراد بقوله « الغر » المشهورات ، كما يقال « يوم أغر » ، « ويد غراء » ، وليس يراد البياض فى شيء من ذلك ، بل يراد الشهرة والنباهة .

وأما قول النابغة فى « يلمعن بالضحى » وأنه لو قال « بالدجى » لكان أحسن من قوله « بالضحى » إذ كل شيء يلمع بالضحى ، فهذا خلاف الحق وعكس الواجب ، لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور الشديد الضياء فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه ، فمن ذلك الكواكب ، وهي بارزة لنا ، مقابلة لأبصارنا ، دائما تلمع بالليل ، ويقل لمعانها بالنهار حتى تخفى ، وكذلك السرج والمصابيح ، ينقص نورها كلما أضحى النهار وفي الليل تلمع عيون السباع لشدة بصيصها ، وكذلك اليراع حتى تخال نارا .

فأما قول النابغة أو من قال إن قوله(١) في السيوف « يجرين » خير من قوله « يقطرن » لأن الجرى أكثر من القطر فلم يرد حسان الكثرة وإنما ذهب

(١) أى قول حسان بن ثابت .

إلى ما يلفظ به الناس ويعتادونه من وصف الشجاع الباسل والبطل الفاتك بأن يقولوا سيفه يقطر دما ولم يسمع سيفه يجرى دما . ولعله لو قال يجرين دما يعدل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع النجد إلى ما لم تجر عادة العرب بوصفه . .

فلنرجع إلى ما بدأنا بذكره من الغلو والاقتصار على الحد الأوسط فأقول: إن الغلو عندي أجود المذهبين وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وقد بلغنى عن بعضهم أنه قال أحسن الشعر أكذبه ، وكذا نرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم ؛ ومن أنكر على مهلهل والنمر وأبي نواس قولهم المتقدم ذكره فهو مخطىء لأنهم وغيرهم ممن ذهب إلى الغلو إنما أرادوا به المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل فى باب المعدوم ، فإنما يريد به المثل وبلوغ النهاية فى النعت ، وهذا أحسن من المذهب الآخر فإن قول النابغة في معنى قول النمر [بن تولب] على مذهب الاقتصار ولزوم الحد الأوسط :

وقد أبقتْ صروفُ الدّهر منّي كما أبقت من السيف اليماني(١)

دون قول النمر [وأتى]دليلا قويا على أن ما بقى منه أكثر مما بقى من النابغة . وكذلك قول كعب بن مالك الانصارى(٢) في معنى قول مهلهل(٣) ووصفه صوت الضرب(٤) .

من سرّهُ ضربٌ يُرعبل بعضُه بعضاً كمعمعة الإناء المحرق (٥)

---

(١) صروف الدهر: حدثانه ونوائبه السيف اليمانى : المنسوب إلى بلدة باليمن اشتهرت بصنع السيوف .

(٢) من شعراء رسول الله ﷺ وكان هو وحسان وعبد الله بن رواحة من أشهر الشعراء المخضرمين .

(٣) مهلهل : أقدم الشعراء الجاهليين وهو الذى طول القصيدة وبدأها بالغزل .

(٤) فى بيت المهلهل المشهور :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور

(٥) يرعبل : فى اللسان قال الجوهرى من رعبلت اللحم قطعته .

دون قول مهلهل لأن في قول مهلهل مايدل على أن الضرب الذى ذكره أشد وأبلغ .

وكذلك قول الحزين الكنانى في معنى قول أبي نواس(١) :

يُغضى حياء ويُغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم(٢)

دون قول أبي نواس لأن هذا وإن كان قد وصف صاحبه بما دل على مهابته فان في قول أبي نواس دليلا على عموم المهابة ، ورسوخها في قلب الشاهد ، والغائب ، وفى قوله « حتى إنه لتهابك » قوة لتكاد تهابك ، وكذا كل غال مفرط فى الغلو إذا أتى بما يخرج عن الموجود فإنما يذهب فيه إلى تصييره مثلا وقد أحسن أبو نواس ، حيث أتى بما ينبيء عن عظم الشيء الذي وصفه .

وإذ قدمت ما أردت تقديمه فانرجع إلى ذكر واحد واحد من المعانى الستة التى قلت : إنها الأعلام من أغراض الشعراء فى المعانى ، فأبدأ أولا بذكر المديح . . .

(أ) نعت المديح

ما أحسن ما قال عمر بن الخطاب في وصف زهير (٣) حيث قال : إنه لم يكن يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال ، فإنه في هذا القول إذا فهم وعمل به منفعة عامة ، وهي العلم بأنه إذا كان الواجب أن لا يمدح الرجال إلا بما يكون لهم وفيهم ، فكذا يجب أن لا يمدح شيء غيره (٤) إلا بما يكون له وفيه ، وبما يليق به أو لا ينافره .

---

(١) أى السابق وهو قوله : وأخفت أهل الشرك حتى إنه ــ البيت .

(٢) يغضى حياء : الضمير فى يغضى عائد الى زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما والإغضاء : إدناء الجفون بعضها الى بعض ــ والبيت منسوب للحزين الكناني .

(٣) من أعلام الشعراء الجاهليين

(٤) أي غير الرجل .

ومنفعة أخرى ثانية، وهي توكيد ما قلنا في أول كلامنا فى المعانى ، من أن الواجب فيها قصد الغرض المطلوب على حقه وترك العدول عنه إلى ما لا يشبهه .

ولما كان المدح اسما مشتركا لمدح الرجال وغيرهم ، عمه بالقول في مدح الرجال ، إذ كان غرض الشعراء إنما هو مدحهم ، إلا ما يستعملون من أوصاف النساء فإن ذلك له قسم آخر سنأتى به في ما بعد إن شاء الله تعالى(١) ، وعلمنا أن أخذنا في التعريف بجودة مدح للرجال كيف يكون ، فقد يتعلم من حواشي قولنا فى هذا كيف يسلك السبيل إلى مدح غيرهم ، فنقول :

إنه لما كانت فضائل الناس ، من حيث إنهم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب ، من الاتفاق في ذلك ، إنما هي : العقل — والشجاعة — والعدل — والعفة ؛ كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا ، والمادح بغيرها مخطئا . وقد يجوز فى ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والاغراق فيه ، دون البعض ، مثل أن يصف الشاعر إنسانا بالجود الذى هو أحد أقسام العدل وحده فيغرق فيه ، ويتفنن فى معانيه ، أو بالنجدة فقط ، فيعمل فيها مثل ذلك ، أو بهما ، أو يقتصر عليهما دون غيرهما ، فلا يسمى مخطئا ، لاصابته في مدح الانسان ببعض فضائله ، لكن يسمى مقصرا عن استعمال جميع المدح ، فقد وجب أن يكون على هذا القياس المصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلال ، لا بغيرها ، والبالغ فى التجويد إلى أقصى حدوده من استوعبها ، ولم يقتصر على بعضها ، وذلك كما قال زهير بن أبي سلمى في قصيدة :

---

(١) وهو النسيب.

أخي ثقةٍ لا تُهلِكُ الخمرُ مالَه ... ولكنهُ قد يُهلِكُ المالَ نائلُه (١)

فوصفه في هذا البيت بالعفة ، لقلة إمعانه في اللذات ، وإنه لا ينفد ماله فيها ، وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال ، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات ، وذلك هو العدل ثم قال :

تَراهُ إذَا ما جِئتَهُ متهلِّلاً ... كأنكَ مُعطيهِ الذي أنتَ سائِلُه(٢)

فزاد في وصف السخاء بأن جعله يهش له ، ولا يلحقه مضض ، ولا تكره لفعله ، ثم قال :

فَمن مِثل حصن في الحروبِ ومِثلهُ ... لإنكار ضيمٍ أو لخصمٍ يُجادِلُه(٣)

فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة ، والعقل ، فاستوعب زهير في أبياته هذه المديح بالأربع الخصال ، التي هي فضائل الإنسان على الحقيقة ، وزاد في ذلك ما هو – وإن كان داخلا في هذه الأربع ـ فكثير من الناس لا يعلم وجه دخوله فيها ، حيث قال « أخي ثقة » صفة له بالوفاء ، والوفاء داخل في الفضائل التي قدمنا ذكرها .

وقد تفنن الشعراء في المديح ، بأن يصفوا حسن خلقة الإنسان ، ويعددوا أنواع الأربع الفضائل التي قدمنا ذكرها ، وأقسامها ، وأصناف تركيب بعضها مع بعض ، وما أقل من يشعر بأن ذلك داخل في الأربع الخلال على الانفراد أو بالتركيب ، إلا أهل الفهم ، مثل أن يذكروا من أقسام العقل ثقافة المعرفة ،

---

(١) أخي ثقة : يوثق بما عنده من الخير لاشتهاره بالجود والكرم . النائل : العطاء . يريد أن ماله لا يتلف بشرب الخمر إنما يتلف بالعطاء . والبيت من قصيدة في مدح هرم بن سنان . وزهير من أعلام الشعراء الجاهليين .

(٢) المتهلل : الطلق الوجه المستبشر . المعنى : أن الممدوح يسر بمن يقصده للعطاء فكأنه بهذا السرور آخذ العطاء لا معطيه السائل .

(٣) الضيم : الظلم .

والحياء ، والبيان ، والسياسة ، والكفاية ، والصدع بالحجة ، والعلم والحلم عن سفاهة الجهلة ، وغير ذلك ، مما يجرى هذا المجرى .

ومن أقسام العفة القناعة وقلة الشره ، وطهارة الإزار ، وغير ذلك مما يجرى مجراه .

ومن أقسام الشجاعة الحماية ، والدفاع ، والأخذ بالثأر ، والنكاية في العدو والمهابة ، وقتل الأقران ، والسير في المهامه الموحشة ، وما أشبه ذلك .

ومن أقسام العدل السماحة ، ويرادف السماحة التغابن ، وهو من أنواعها والانظلام ، والتبرع بالنائل ، وإجابة السائل وقرى الأضياف ، وما جانس ذلك .

وأما تركيب بعضها مع فيحدث منه ستة أقسام :

أما ما يحدث عن تركيب العقل مع الشجاعة فالصبر على الملمات ، ونوازل الخطوب ، والوفاء بالإيعاد .

وعن تركيب العقل مع السخاء فانجاز الوعد وما أشبه ذلك .

وعن تركب العقل والعفة فالرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة وما أشبه ذلك .

وعن تركب الشجاعة مع السخاء الاتلاف ، والاخلاف ، وما أشبه ذلك .

وعن تركب الشجاعة مع العفة : إنكار الفواحش ، والغيرة على الحرم .

وعن السخاء مع العفة الإسعاف بالقوت ، والإيثار على النفس ، وما شاكل ذلك .

وجميع هذه التركيبات قد ذكرها الشعراء في أشعارهم ، وسأذكر من جيد ما قالوه في ذلك صدرا إن شاء الله تعالى ، إلا أني أبدأ قبل ذلك فأقول :

إن كل واحدة من الفضائل الأربع المتقدم ذكرها وسط بين طرفين مذمومين ، وقد وصف شعراء مصيبون متقدمون قوما بالافراط في هذه الفضائل ، حتى زال الوصف إلى الطرف المذموم ، وليس ذلك منهم إلا كما قدمنا القول فيه ، في باب « الغلو في الشعر » من أن الذي يراد به إنما هو المبالغة والتمثيل ، لا حقيقة الشيء . .

ومن الأخبار التي يحتاج إلى ذكرها ، وشرح الحال فيها ، ليكون ذلك مثالا يبني الأمر عليه ، ويعلم به ما يأتي من مثله ، أن كثيرا أنشد عبد الملك ابن مروان :

على ابن أبي العَاصي دِلاصٌ حصِينَةٌ   أجادَ المسرىء نسجها وأذالَها (١)
يَودُّ ضعيفُ القومِ حَمل قَتيرها   ويَستظلِعُ القرمُ الأشمُ احمالَها

فقال له عبد الملك قول الأعشي لقيس بن معدى كرب أحسن من قولك حيث يقول له :

وإذا تَجيء كَتيبَةٌ مَلمومةٌ   شَهباء يخشَى الزّاهِدُونَ نِهالَها(٢)
كنتَ المقدَّمَ غيرَ لابِسِ جُنّة   بالسَّيفِ تضربُ مُعلماً أبطالَها(٣)

---

(١) الدلاس : الدرع الملساء اللينة أجاد المرىء : صانعها الماهر . والقتير : رؤوس مسامير الضلوع . القرم الاشم : الرجل العظيم ذو المكانة العالية . وكثير شاعر أموى عذرى مشهور توفى عام ١٠٥ هـ .

(٢) الكتيبة : الجيش . أو جماعة الخيل اذا أغارت من المائة الى الألف . شهباء : عظيمة كثيرة .

(٣) الجنة : بالضم كل ما وقاك .

فقال يا أمير المؤمنين وصفتك بالحزم ووصف الأعشى صاحبه بالخرق .

والذى عندى في ذلك أن عبد الملك أصبح نظاراً من كثير ، إلا أن يكون كثير غالط واعتذر بما يعتقد خلافه ، لأنه قد تقدم من قولنا في أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية ، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة ، حيث جعل الشجاع شديد الإقدام ، بغير جنة ، على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب ، ففي وصف الأعشى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه ، لأن الصواب له ، ولا لغيره ، إلا لبس الجنة ، وقول كثير تقصير في الوصف .

فلنرجع إلى ذكر مدائح الشعراء المحسنين ، ثم نأتى بعد ذلك بصدر يشتمل على افتنانهم فى المدح ليكون مثالا لما تقدم الاخبار عنه ، وعبرة في اختيارات المدح . . . فمن ذلك قول زهير بن أبى سلمى :

يَطلبُ شأوَ امرأين قدَّما حسناً ... نالَا الملوكَ وبذَّا هذه السُّوقا

هوَ الجوادُ فإن يَلحق بشأوهما ... على تكاليفه فمثلُه لحقا

أو يَسبقاه على ما كانَ من مَهل ... فَمِثلُ ما قدَّما من صالحٍ سَبقا(١)

ومن هذه القصيدة :

(١) الشأو : الطلق من الجرى والشأو أيضا الغاية . والمراد بالمرأين أباه وجده أى يعارضهما بفعله ويسعى سعيهما فى المكارم . نالا أى أنعالهما أفعال الملوك . بذ : غلب أى أنه سبق أبواه أوساط الناس وساويا الملوك فهو يطلب سبقهما . هو الجواد : أي الممدوح بمنزلة الجواد من الخيل في مسابقة أبويه في الكرم والجود . المهل : التقدم .

من يَلقَ يوماً على عِلاّتِه هَرِما ... يَلق السَّماحةَ منهُ والنَّدَى خُلقا (١)

ليثٌ بعثرَ يصطادُ الرِّجال إذَا ... ما كَذَبَ اللَّيثُ عن أقرانِهِ صدَقا

يَطعنُهم ما ارتَموا حتَّى إذَا اطَّعَنوا ... ضارب حتّى إذَا ما ضارَبوا اعتنقا

فَضلُ الجوادِ على الخيل البطاءِ فَلا ... يُعطي بذلكَ ممنونا ولا نَزِقا

هذا وليسَ كمَن يعيا بخُطبتهِ ... وسط النديّ إذا ما ناطقٌ نطقا (٢)

لو نالَ حيٌّ من الدُّنيا بمكرمةٍ ... أُفقَ السماءِ لنالتْ كفُّهُ الأُفُقا

ومن أخرى له :

هُنالك إن يُستَخبلوا المالَ يُخبلوا ... وإن يُسألوا يعطوا وإن ييسروا يَغلوا (٣)

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوهُهم ... وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ (٤)

فإن جئتهم ألفَيتَ حولَ بيوتِهم ... مجَالسَ قد يشفَى بأحلامها الجَهل

على مُكثريهم حقٌّ من يعتريهم ... وعندَ المُقلِّين السَّماحةُ والبذلُ (٥)

سعَى بعدهم قومٌ لكي يُدركوهم ... فلم يُدركوا ولم يُليموا ولم يألوا (٦)

---

(١) على علاته : على قلة ماله والمعنى أنك إن تلقه على قلة ماله تجده سمحا كريما فكيف به وهو على غير تلك الحال . عثر : اسم موضع . أقرانه : القرن : الصاحب فى القتال . والمعنى هو فى الجرأة والإقدام على الاقران كالليث .

(٢) الندى : مجلس القوم . يصف ممدوحه بأنه يزيد عليهم فى كل حال من أحوال الحرب .

(٣) الاستخبال : أن يستعير الرجل ابلا فيشرب ألبانها وينتفع باوبارها . ييسروا : يغلوا أى اذ قامروا بالميسر أخذوا سمان الجزر فيقامرون عليها لاينحرون الاظاليه .

(٤) المقامات : المجالس والمراد بها أهلها . الأندية : جمع ندى وهو المجلس . ينتابها القول الخ : يبث فيها الجميل من القول .

(٥) على مكثريهم : مياسيرهم وأغنيائهم . المقل : القليل المال . البذل : العطاء . أى يبذل الفقراء على قدر جهدهم وطاقتهم .

(٦) لم يليموا : لم يأتوا مايلامون عليه حين لم يبلغوا منزلة هؤلاء .

فما كانَ من خيرٍ أتوه فإنما   تَوارثَه آباءُ آبائِهم قبلُ(١)
وهل يُنبتُ الخطيُّ إلا وشيجه   وتغرس إلا في منابتها النخلُ(٢)

ولزهير يمدح بني الصيداء :

إنّي سترحلُ بالمطيِّ قصائدي   حتّى تحلَّ على بني ورقاء(٣)
مدحًا لهم يتوارثون ثناءها   رهن لآخرهم بطولِ بقاء
حلماء في النّادي إذا ما جئتهم   جهلاء يوم عجاجةٍ ولقاء(٤)
من سالموا نال الكرامة كلها   أو حاربوا ألوى مع العنقاء

وله :

إنَّ البخيل ملومٌ حيث كانَ   ولكنَّ الجوادَ على علاّته هرِم(٥)
هُو الجوادُ الذي يعطيكَ نائلهُ   عفواً ويظلمُ أحياناً فينظلمُ

ومن ذاك قول الحطيئة في بني بغيض :

وإنَّ التي نكّبتها عن معاشرٍ   علي غضاب أن صددتُ كما صدوا
أتت آل شمّاسِ بن لأيٍ وإنّما   أتاهم بها الأحلامُ والحسب العِدُّ(٦)

---

(١) توارثه آباء آبائهم : أى بجدم قديم ورثوه كابرا عن كابر .

(٢) الخطى : الرمح نسبه الى الخط وهي جزيرة بالبحرين يرفأ إليها سفن الرماح . الوشيج : القنا الملتف في منبته واحدته وشيجة ، أى لاتنبت القناة إلا القناة ، و تغرس النخلة إلا حيث تنبت ، كذلك لايولد الكرام الا في منبت كريم .

(٣) ورقاء : اسم رجل .

(٤) عجاجة : غبار وهول وشدة .

(٥) علاته : ما ينوبه من قلة ذات يده هرم : اسم الممدوح عفوا : سهلا بلا مطل ولا تعب . يظلم أحياناً : يطلب منه في غير موضع الطلب وفي غير وقته .

(٦) أراد المدحة التى عدل بها عن آل الزبرقان الى بغيض وقومه . العد القديم ، والحطيئة — شاعر مخضرم مجيد توفى عام ٣٠ هـ .

ومنها :

يَسوسون أحلاما بَعيداً أناتُها ... وإن غَضِبُوا جاء الحفيظة والجِدُّ

أقلُّوا عليهم لا أبا لأبيكُمُ ... من اللوم أو سدُّوا المكان الذى سدُّوا

أولئك قَومٌ إن بَنَوا أحسنُوا البِنَى ... وإن عاهدوا أوفُوا وإن عَقَدُوا شدُّوا

وإن كانت النَّعماء فيهم جزَوا بها ... وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كَدُّوا(١)

وتَعذُلُنى أبناء سعدٍ عَليهمُ ... وما قلتُ إلاّ بالذي عَلِمتْ سعدُ

ومن ذلك قول الأخطل :

صم عنِ الجهلِ عن قيلِ الخنا خرس ... وإن ألّمت بهم مكرُوهةٌ صبرُوا

شُمسُ العدَاوةِ حتّى يُستقاد لهم ... وأوسعُ النَّاسِ أحلاما إذا قَدَروا(٢)

ومن ذلك ما أنشدنا أحمد بن يحيى(٣) :

مَيامينُ يَرضونَ السِّياسةَ إنْ كفوا ... ويكفُونَ إن ساسوا بغير تكلّف

إذا صُرِّفوا للحقِّ يوما تصرَّفوا ... إذا الجاهلُ الحيرانُ لم يَتصرَّف

وإن كانَ فيهم مورِمرٌ بَثَّ فَضلَه ... وإن كانَ فيهم معسرٌ لم يُطوِّف

وأنشدنا أيضا :

وفِتيانِ صِدقٍ بائسينَ صَحِبتُهم ... يزيدهم هَولُ الجَنابِ تآسِيا

فإن يكُ خيراً أحسنوا أسلاَبها ... وإن كان شرٌّ يشركوه تحاسِياً(٤)

---

(١) ويروى لمن كانت النعمى عليهم — أى لأنهم إن انعموا لم يمنوا ولم يكدروا نعمتهم بالمن ولم يكدوا المنعم عليه بالثواب .

(٢) الخنا : الفحش . رجل شموس عسر فى عداوته شديد الخلاف على من عانده جمعه شمس .

(٣) هو ثعلب إمام الكوفيين فى النحو توفى عام ٢٩١ هـ .

(٤) السلب : ما يسلب والجمع أسلاب .

وأنشدنا :

إذا المحل أنسى العفة الناس ذهبت ... وحامت عن الأحساب بكرُ بن وائلِ
بهم بغض بعض الناس لكن يردهم ... حياء عفافٍ عن دنيء المآكلِ

وأنشدنا :

يذكرني بشراً بكاه حمامةٍ ... على فننٍ من بطن بيشة مائلِ(١)
فتىً مثل صفو الماء ليس بباخلٍ ... بخيرٍ ولا مُهدٍ ملاماً لباخلِ
ولا ناطقاً أحدوثةَ السبقِ مُعجباً ... بأظهارها في المجلسِ المتقابلِ(٢)
ترى أهلهُ في نعمةٍ وهو شاحبٌ ... طوي البطن مخماص الضحى والأصائلِ(٣)

وأنشدنا لمحمد بن زياد الحارثي :

تخالهم للحلم صمّاً عن الخنا ... وخُرساً من الفحشاء عند التهاجُرِ(٤)
ومرضى إذا لوقوا حياءً وعفةً ... وعند الحفاظ كالليوثِ الخوادرِ(٥)
لهم ذلُّ إنصافٍ وأُنسُ تواضعٍ ... ومن عزّهم ذلت رقابُ العشائرِ
كأنَّ بهم وصماً يخافون عارَه ... وليس بهم إلاّ اتقاء المعايرِ(٦)

ثم من الشعراء الآن من يجمل المديح ، فيكون ذلك باباً من أبوابه حسناً

---

(١) الفنن : الغصن أو ما تشعب منه جمعه أفنان . بيشة : موضع .
(٢) الأحدوثة : مايتحدث به الناس . السبق : ما يتسابق فيه الناس من المكارم .
(٣) الشاحب : المتغير من هزال وجوع . طوى البطن : لم يأكل شيئاً . المخماص : الجائع . الضحى والأصائل : وقتان يجوع فيهما الممدوح في حين أنهما وقتان يشبع فيهما غيره .
(٤) الخنا : الفحش . التهاجر : التقاطع .
(٥) الحفاظ : الذب عن المحارم . الخوادر جمع مفرده خادر والخادر أجمة الأسد ومنه أسد خادر .
(٦) المعاير : المعايب .

أيضا ، لبلوغه الارادة مع خلوه عن الاطالة ، وبعده عن الاكثار ودخوله فى باب الاختصار .

فمن ذلك قول الحطيئة :

تَزورُ امرَءًا يعطى على الحمدِ مالهُ ... ومن يُعطِ أثمانَ المكارم يحمدِ
يرى البُخلَ لا يبقى على المَرءِ ماله ... ويعلمُ أنَّ المالَ غيرُ مخلَّدِ
كسوبٌ ومتلافٌ إذَا ما سألتَه ... تهلَّلَ واهتزَّ اهتزَازَ المهنَّدِ(١)
متَى تأتِه تعشُو إلى ضوءِ نارهِ ... تجد خيرَ نارٍ عندها خيرُ موقدِ(٢)

فقد تصرف في الأبيات الأولى في أصناف المديح المتقدم ذكرها وأتى بجماع الوصف وجملة المديح على سبيل الاختصار في البيت الأخير ومن ذلك قول الشماخ :

رَأيت عرابةَ الأوسى يَسمو ... إلى الخيراتِ منقطعِ القرينِ(٣)
إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ ... تلقَّاهــا عُرَابةُ باليمينَ

وقد أومأ السمط بن مروان أبى حفصة في مدحه شرحبيل بن معن ابن زائدة إيماء موجزا ظريفا ، أتى على كثير من المدح باختصار ، وإشارة بديعة ، فقال :

---

(١) كسوب : كثير الكسب للمال . متلاف : كثير التلف للمال . تهلل : تلألأ وجهه . اهتزار المهند : اهتزاز السيف المشحوذ .

(٢) تعشو : تقصد فى الظلام . وعشا يعشو : اذا سار فى ظلمة تسمى عشوة . وقال ابن يعيش : عشوته أى قصدته فى الظلام ، ثم اتسع فقيل لكل قاصد عاش .

(٣) عرابة : هو ممدوح الشماخ . الأوسى : نسبة الى أوس . يسمو : يرتفع . منقطع القرين : عادم النظير .

رأيت ابنَ معن أفتنَ الناسَ جودُه فكلف قولَ الشعر من كان مفحَما(١)
وأرخصَ بالعدلِ السلاحَ بأرضنا فما يبلغُ السيف المهنّدُ درهَما

ومن الشعراء أيضا من يغرق فى المدح بفضيلة واحدة أو اثنين ، فيأتى على آخر ما في كل واحدة منهما أو أكثر ، وذلك إذا فعل مصيبا به الغرض في الوقوع على الفضائل ، ومقصرا عن المدح الجامع لها ، لكنه يجود المديح حينئذ كلما أغرق فى أوصاف الفضيلة ، وأتي بجميع خواصها أو أكثرها ، وذلك مثل في الجرأة والاقدام ، كما قال الفرزدق لسالم الغدانى ، حين قتل قاتل أخيه ، العائذ بجوار عبد الملك :

إذَا كنتَ فى دار تَخاف بها الرَّدَى فصمِّم كتصميمِ الغدانى سالِم (٢)
سخا طلبـاً للوتر نفساً بموتِهِ فَماتَ كريما عائفا للملايمِ (٣)
نقى ثياب الذِّكرِ من دنس الخنا يناجى ضميراً مُستدِفَّ العزائم(٤)
إذا هم أقرَى ما بِهِ هم ماضيا على الهولِ طلاَّعاً ثَنايا العظائم
ولمـا رأى السُّلطانَ لاَ ينفعونَه قَضى بين أيديهم بأبيضَ صارِمِ

وقد ينبغي أن يعلم أن مدائح الرجال، وهى التي صمدنا للكلام في هذا الباب ، تنقسم أقساما بحسب الممدوحين من أصناف الناس ، فى الارتفاع والارتضاع ، وضروب الصناعات ، والتبدي والتحضر ، وأنه يحتاج إلى الوقوف على المعين

---

(١) المفحم : من لا يقدر أن يقول شعراً . والمعنى لن ممدوحه قد بلغ من كثرة جوده وكرمه على مادحيه أن كلف بقول الشعر من هو عاجز عن قوله . وبلغ من عدله ان رخص ثمن السلاح لعدم الاحتياج إليه .

(٢) رجل من بنى غدانة بن يربوع قتل أخوه وكان لقاتله ناحية فى السلطان فشد عليه فقتله .

(٣) سخى كرم وبذل المال . والعائف . الكاره .

(٤) استدفاف الأمر : تهيؤه

يمدح كل قسم من هذه الأقسام :

فأما إصابة الوجه في مدح الملوك فمثل قول النابغة الذبياني في النعمان بن المنذر :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أعطاكَ سورةً ... تَرَى كل ملكٍ دونها يتذبذبُ(١)

فإنكَ شَمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعت لم يَبدُ منهنَّ كوكب

ومثل ذلك قول نصيب في سليمان بن عبد الملك :

أقولُ لركبٍ قافلين لقيتهم ... قَفَا ذات أوشالٍ ومولاكَ قاربُ(٢)

القفا : الثنية وهي العقبة ، والعرب تقول لقيت فلانا قفا الثنية ، أي خلف الثنية .

قِفوا خبِّرُوني عن سليمانَ إنَّني ... لمعروفه من أهل وَدَّان طالبُ

فعاجوا فأثنوا بالذي أنتَ أهله ... ولو سكتوا أثنت عليكَ الحقائبُ

هو البدر والنَّاس الكواكب حولَه ... وهل يشبه البدرَ المنيرَ الكواكب

ومثل قول الحزين الكناني في عبد الله بن عبد الملك بن مروان وقد وفد عليه وهو عامل مصر :

لمَّا وقفت عليهِ في الجموع ضحًى ... وقد تعرَّضتِ الحُجَّاب والخدَمُ(٣)

حييتهُ بسلامٍ وهو مرتفقٌ ... وضجَّة القوم عِند الباب تزدحِم

(١) السورة : القوة والسلطان . والملك بسكون اللام الملك بتحريكها .

(٢) قفا بفتح القاف : وراء . الأوشال : جمع وشل وهو الماء القليل ، ذات أوشال: موضع : قارب : طالب الماء ليلا. ولا يقال ذلك لطالب الماء نهاراً . وفي التهذيب : القارب : الذي يطلب الماء ولم يعين وقتا . ويريد بالمولى نفسه . والخطاب للخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك . ونصيب : شاعر أموي مشهور .

(٣) نسبت هذه القصيدة للفرزدق يمدح على بن زين العابدين بن الحسين حين سأل عنه هشام بن عبد الملك .

فى كفه خيزران ريحها عبق   في كف أروع فى عرنينه شمم(١)
يغضى حياء ويغضى من مهابته   فما يكلم إلا حين يبتسم
كلتا يديه ربيع غير ذى خلف   هذى خروج وهذى عارض همم(٢)

ومثل قول أبي العتاهية في الهادى(٣) :

يضطرب الخوف والرجاء إذا   حرك موسي القضيب أو فكرا

فأما مدح ذوى الصناعات ، كأن يمدح الوزير والكتاب بما يليق بالفكرة والروية وحسن التنفيذ والسياسة ، فان انضاف إلى ذلك الوصف السرعة فى إصابة الحزم ، والاستغناء بحضور الذهن عن الابطاء لطالب الاصابة كان أحسن وأكمل للمدح كما قال أشجع (٤) :

بديهته مثل تفكيره   متى رمته فهو مستجمع

وكما قال منصور النمرى(٥) :

وليس لأعباء الأمور إذا اعترت   بمكترث لكن لهن صبور
يرى ساكن الأوصال باسط وجهه   يريك الهوينا والأمور تطير(٦)

---

(١) الخيزران : العود اللدن ، يريد أن العصا التى يمسكها طيبة الرائحة لأنها تستمد طيبها من طيب كفه. الأروع : من يعجبك بحسنه وشجاعته. عرنينه : أنفه . شمم : ارتفاع وحسن وهو من علامات السيد الشريف

(٢) ربيع ، ويروى : غياث : أى نجدة : ومعونة . غير ذى خلف : يروى ايضاً عم نفعهما .

(٣) ابو العتاهة شاعر عباسى مشهور اشتهر بزهدياته توفى عام ٢١١ هـ ، والهادى خليفة عباسى ملك عاما واحداً (١٦٩ ـ ١٧٠هـ) .

(٤) أشجع السلمى شاعر عباسى مشهور من شعراء عصر الرشيد .

(٥) من شعراء عصر الرشيد والمأمون .

(٦) الأوصال : المفاصل أو مجتمع الأعظام جمع وصل بكسر الواو وضمها .

وأما مدح القائد فى ما يجانس البأس والنجدة ويدخل فى باب شدة البطش والبسالة فان أضيف إلى ذلك المدح الجود والسماحة والتخرق فى البذل والعطية كان المديح حسنا والنعت تاما . إذا كان السخاء أخا الشجاعة ، وكان في أكثر الأمور موجودين في بعداء الهمم ، وأهل الاقدام والصولة ، وذلك كما قال بعض الشعراء في جمع البأس والجود :

فتى دَهرُه شطرانِ فيما ينوبهُ　　ففى بأسهِ شطرٌ وفى جودِهِ شطر(١)

فلا من بغاةِ الخيرِ في عينهِ قَذى　　ولا من زئير الحرب فى أُذنِهِ وقر(٢)

وكما قال منصور النمري فى إفراده ذكر البأس وحده :

ترى الخيلَ يومَ الحربِ يظمأنَ تحته　　وترْوَى القنا في كفّهِ والمناصل(٣)

حلالٌ لاطرادَ الأسنّة نحرها　　حرامٌ عليها مَتْنها والكواهل(٤)

وكما قال بشار بن برد :

ألا أيُّها الحاسدُ المبتَغى　　نجومَ السَّماء بسعى أمَمَ(٥)

سمعتَ بعِكرمة ابنِ العلاء　　فأنشأت تطلبها لست ثَمّ(٦)

إذا عرضَ اللّهوُ فى صدرهِ　　لها بالعَطاء وضربِ البُهم(٧)

---

(١) البأس : الشدة فى الحرب ـ والبيت لأبى تمام فى رثاء محمد بن حميد الطوسى .

(٢) بغاة الخير : البغاة جمع مفرد باغى وهو الطالب . الزئير : الصوت . الوقر : ثقل فى الأذن بسبب عدم السمع ومنه قوله تعالى كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ، أى ثقلا .

(٣) القنا : الرمح والمناصل : السيوف .

(٤) متنها المتن . الظهر . الكواهل : جمع كاهل وهو مقدم أعلى الظهر مما يلى العنق وهو الثلث الأعلى فيه .

(٥) الأمم محركة : القرب .

(٦) ثم : اسم يشار به بمعنى هناك للمكان البعيد ظرف لايتصرف ، والمعنى أنك بعيد عنها ولست أهلا لها .

(٧) البهم : الرجل الشجاع .

يَلَذ العَطاء وسفك الدّماء ويغدو على نِعم أو نِقمْ
فقلْ لِلخليفةِ إنْ جئتَهُ نَصوحاً ولا خيرَ فى متّهم
إذَا أيقظَتكَ حروب العِدي فنبه لهـا عمراً ثمّ نمْ
فتًى لا ينامُ على ثأرهِ ولا يَشربُ المـاء إلا بدَم (١)

وأما مدح السوقة من البدو والحاضرة فينقسم قسمين ، بحسب انقسام السوقة : إلى المتعيشين بأصناف الحرف وضروب المـكاسب ، وإلى الصعاليك والحراب والمتلصصة ومن جرى مجراهم ، فمـدح القسم الأول يكون بما يضاهى الفضائل النفسانية التى قدمنا ذكرها خاليا من مدح الملوك ومن قدمنا ذكره من الوزراء والقواد ، وذلك مثل قول الشاعر :

يتراحمون ، ذَوو يسارهمُ يتعاطفونَ على ذوى الفقر
وذَوو يسارِهم كأنهم من صِدق عِفتهم ذوُو وعر (٢)
متَحلِّمين اطيبِ خيمهم لا يهلَعونَ لنبـوَة الدّهـر (٣)

ومدح القسم (٤) الثانى يكون بما يضاهى المذهب الذى يسلـكه أهله من الاقدام والفتك والتشمير والجد والتيقظ والصبر مع التخرق والسماحة وقلة الا كتراث للخطوب الملمة ، كما قال تأبط شرا يمدح صخر بن مالك (٥) :
وإنِّى لمهدٍ من ثنَائى فقاصدٌ به لابن عمّ الصدّق صخر بن مالك (٦)

---

(١) كناية عن كثرة حروبه وشدة بأسه .
(٢) ذوو وعر : مالهم قليل ، ويقال الرجل وقع فى وعر أى قل ماله
(٣) الخيم الشيمة والخلق والسجية ، وقيل الخيم الأصل . نبوة الدهر : جفوته .
(٤) وهم الصعاليك ومن فى حكمهم .
(٥) تابط شرا : من الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى
(٦) مهد : من أهديت . لابن عم الصدق : متعلق بمهد ، والمهدي محذوف لعلم السامع به أى ثناء أو قصيدة .

أهزُّ بهِ في ندوةِ الحيِّ عطفه ... كما هزّ عطفي بالهجان الأوارك(١)
أطيفُ الحوايا يقسمُ الزّاد بينه ... سواء وبين الذّئب قسم المشارك(٢)
كأنّ به في البرد أثناء حية ... بعيدُ الخطي شتّى الهوي والمسالكَ(٣)
يظلُّ بموماةٍ ويمسي بغيرها ... جَحيشاً ويعروري ظهُور المهالكِ(٤)
ويسبق وفد الرّيح من حَيث تنتحى ... بمنخرقٍ من شدّه المتدارك(٥)
إذا خاطَ عينيهِ كرى النّوم لم يزَل ... لهُ كالئٌ من قلب شيحان فاتِك(٦)
وإن طلعت أولى العـداةِ فنفرةٌ ... إلى سلةٍ من صارم الغرب باتِك(٧)
إذا هزّهُ في وجهِ قرنٍ تهللتْ ... نواجدُ أفواهِ المنايا الضّواحك(٨)

وقال أبو كبير الهزلي :

ولقد سريتُ على الظـلام بمغشمٍ ... جلدٍ منَ الفتيان غير مُثقل(٩)

---

(١) الندوة : النادى . عطفه : عطف كل شيء جانبه ، وقيل للعنق كما في قوله تعالى « ثانى عطفه » أى عنقه ، وقيل خصره . الهجان الاوارك : التى ترعى الأراك وهو نوع من الشجر .

(٢) الحوايا : أى الأمعاء .

(٣) شتى : المتفرق وتشتت الشيء تفرقه والأشتات جمع شت . المسالك : الطرق ويروى البيت برواية أخرى هي :

قليـل التشكى للمهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك

(٤) الموماة : المفازة التى لا ماء فيها وجمعها موام . جحيشا : وحيدا . أى منفرداً . ويعروري ظهور المهالك : أى يركبها ويروى ظهور .

(٥) وفد الريح : أولها . المنخرق : السريع . المتدارك : المتلاحق .

(٦) الـكرى : النوم الخفيف وإضافة الـكرى إلى النوم كما يضاف البعض إلى الجنس . شيحان : حازم . الفاتك : هو الذى يفاجىء غيره بمكروه .

(٧) العداة . الرجاله يعدون أمام الخيل : الباتك القاطع .

(٨) فى وجه قرن ويروى فى عظم قرن أى لا يتعرض له إلا من يقارنه بأساً وشدة . تهللت نواجذه : مجاز ، والتهلل : الضحك شبه بتهلل البرق ولمعانه .

(٩) على الظلام أى وقت الظلام . المغشم : من الغشم وهو الظلمة . الجلد : الصلب القوي . غير مثقل : حسن القبول .

مِمَّنْ حَمَلن به وهُنَّ عواقِدٌ ... حُبُكَ النِّطاقِ فشبَّ غير مُهَبَّلِ(١)

حملت به في ليلةٍ مزؤودةٍ ... كُرْهًا وعقدُ نطاقها لم يُحْلَلِ(٢)

فأتت به حوشَ الفؤادِ مُبَطَّنًا ... سُهُدًا إذا ما نام ليلُ الهَوْجَلِ(٣)

ومبرَّأٍ من كلِّ غُبَّرِ حيضةٍ ... وفسادِ مُرْضِعَةٍ وداءٍ مُغْيِلِ(٤)

ما أن يمسُّ الأرضَ إلا منكبٌ ... منه وحرفُ الساقِ طَيَّ المِحْمَلِ(٥)

وإذا انتبهت من المنامِ رأيته ... كرسوب كعب الساق ليس بزُمَّلِ(٦)

فإذا طرحت له الحصاةَ رأيته ... ينزو لوقعها نُزُوَّ الأخيلِ(٧)

وإذا رَميت به الفجاجَ رأيته ... ينضو مخارمها هُوِيَّ الأجدلِ(٨)

وإذا نظرتَ إلى أسرَّةِ وجهِهِ ... برقت كبرقِ العارضِ المتهلِّلِ(٩)

---

(١) ممن حملن : الضمير للنساء . حبك النطاق . المراد به حبك الثياب لأن النطاق لا يكون له حبك . والحبك واحدها حبيك . والمعنى أنه من الفتيان الذين حملت أمهاتهم بهم وهن غير مستعدات للفراش.

(٢) مزؤدة . من الزؤد : الذعر . كرها : كارهة . النطاق ما تنتطق به المرأة تشد به وسطها للعمل وذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر . والمعنى لأنها أكرهت ولم يحل نطاقها .

(٣) حوش الفؤاد : وحشيه لحدته وتوقده ، ورجل حوشي لا يخالط الناس وليل حوشي مظلم هائل : مبطن : خميص البطن الهوجل : الثقيل الكسلان وقيل الأحمق .

(٤) غبر الحيض : بقاياه ويروى مبرأ بالنصب ومبرىء بالجر فالنصب عطف على غير مهبل والجر عطف على قوله جلد من الفتيان . وفساد مرضعة : أضاف الفساد إلى المرضعة لأنه أراد الفساد الذي يكون من جهتها مغيل : المغيل من الغيل وهو أنه تغشى المرأة وهي ترضع فذلك اللبن الغيل : ويروى وداء معضل وهو الذي لا دواء له كأنه أعضل الأطباء .

(٥) المحمل : حمالة السيف

(٦) وإذا انتبهت من المنام ، يروى : وإذا يهب من المنام ، والمعنى : إذا استيقظ من نومه انتصب انتصاب كعب الساق .

(٧) طرحت . نبذت . رأيته : جواب إذا رأيته .نزو الأخيل ويروى طمور الأخيل ، والطمور . الوثوب .

(٨) الفج : الطريق الواسع في الجبل ونحوه والجمع فجاج . المخارم : جمع مخرم وهو منقطع أنف الجبل . والخرم : انف الجبل الاجدل : الصقر .

(٩) الأسرة : جمع سرار وهي الخيوط التي في الوجه العارض : من السحاب الذي يعرض في جانب السماء . والمعنى يصفه بحسن الطلعة وطلاقة الوجه .

تحمى الضحاب إذا تكون كريهة ... وإذا همُ أزمـوا فأوى العَيـل (١)

ثم نعقب الكلام فى المديح بالكلام فى الهجاء .

٢ ــ نعت الهجاء

إنه قد سهل السبيل إلى معرفة وجه الهجاء وطريقه ما تقدم فى قولنا في باب المدح وأسبابه ، إذ كان الهجاء ضد المدح ، فكلما كثرت أضداد المدح فى الشعر كان أهجى له ، ثم تنزل الطبقات على مقدار قلة الأهاجى فيها وكثرتها ، فمن الهجاء المقذع الموجع ما أنشدناه أحمد بن يحيي :

كاثر بسعدٍ إنّ سعداً كثيرةٌ ... ولا تبغ من سعدٍ وفاءً ولا نَصرا (٢)

ولا تَدْعُ سعداً للقراع وخَلِّها ... إذا أمنت من روعها البلدُ القفرَا (٣)

يَروعك من سعد بن عمرو جسُومُها ... وتزهـدُ فيها حين تقتلها خبرا

فمن إصابة المعني فى هـذا الهجاء أن هذا الشاعر سلم لهؤلاء القوم أمرين يظن أنهما فضيلتان ، وليستا بحسب ما وصفناه من الفضائل فضيلتين ، وهما : كثرة العدد وعظم الخلق ، وغزا بذلك مغازى دلت على حذقه فى الشعر :

فمنها : أن أدخل لهم هجاء في باب الأقوال الصادقة لإعطائه إياهم شيئا ومنعه لهم شيئا آخر وقصده بذلك أن يظن أن قوله فيهم إنما هو على سبيل الصدق وذكره إياهم بما فيهم من جيد وردىء .

---

(١) العيل جمع عائل وهو الفقير .

(٢) الكاثر : الكثير وعدد كاثر كثير ، يقول الأعشى :

ولست بالأكثر منهم حصى ... وإنما العزة للكاثر

(٣) القراع : القتال . خبرا : اختبارا . خبره بالضم وخبرة بالكسر : بلاه .

ومنها : ما بان من معرفته بالفضائل حتى يميز صحيحها من باطلها فيسلم الباطلة ومنع الصحيحة .

ومنها : أنه قطع عن هؤلاء القوم ما يعتذر به الكرام من قلة العدد ، فإن الكرام أبدا فيهم قلة ، كما قال السموأل :

تعيرنى أنَّا قليلٌ عديدنا فقلت لها إن الكرامَ قليلُ (١)

ومن خبيث الهجاء ما أنشدناه أحمد بن يحيي أيضا :

إن يغدروا أو يفجُروا أو يَبخلوا لا يحفلوا
يغدُوا عليك مُرجِّلين كأنهم لم يفعلوا

فمن جودة هذا الهجاء أن الشاعر به تعمد أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم لأن الغدر ضد الوفاء والفجور ضد الصدق والبخل ضد الجود ثم أتى بعد ذلك بضد أجل الفضائل وهو العقل حيث قال : وغدوا عليك مرجلين كأنهم لم يفعلوا ، لأن هذا الفعل إنما هو من أفعال أهل الجهل والبهيمة والقحة التى هى من عمى القوة المثيرة كما قال جالينوس فى كتابه في أخلاق النفس .

ولزياد الاعجم في غياض بن حصين بن المنذر :

وسميتَ غيَّاضًا ولستَ بغائظٍ عدوًّا ولكن الصَّديقَ تَغيظ
عدوُّك مسرُورٌ وذو الودِّ الذي يَرى بكَ من غيظٍ عليك كظيظا (٢)
تسى لما أُوليت من صالحٍ مضى وأنتَ لتعدادِ الذُّنوبِ حفيظ

---

(١) تعيرنا : يقال عيرته كذا وهو المختار . وقد جاء عيرته بكذا . ان الكرام قليل: نعم ان الكرام قليل ولهذا نجد أن الموت يعتامهم وولوع الدهر بهم وتضحيتهم فى الدفاع عن أحسابهم ولاهانة كرائم نفوسهم مخافة لزوم العار لهم .
(٢) كظيظ : المغتاظ أشد الغيظ .

تلينُ لأهل الغِلِّ والغَدر منهمُ ... وأنت على أهلِ الصفاء فظيظُ (١)

ومن الهجاء أيضا ما تجمل المعاني كما يفعل في المدح ، فيكون ذلك حسنا إذا أصيب به الغرض المقصود ، مع الإيجاز فى اللفظ ، وذلك مثل قول العباس ابن يزيد الكندى فى مهاجاته جريرا ، ومعارضته إياه ، فى قوله :

إذا غَضِبت عليـك بَنو تميمٍ ... حَسِبتَ الناس كلّهم غِضابا
لو اطّلعَ الغرابُ على تميمٍ ... وما فيها منَ السوءاتِ شابا (٢)

ومثل قول مرة بن عداء الفقعسى :

وإذا تسرُّكَ من تميمٍ خصلةٌ ... فلما يسوءكَ من تميمٍ أكثرُ

وقول الآخر :

ويُقضى الأمرُ حينَ تَغيب تيمٌ ... ولا يستأذنونَ وهُم شهُود

وللحكم الخضرى :

ألم تر أنهم رقِموا بلؤمٍ ... كما رقِمت بأذرُعِها الحميرُ (٣)

ومثل قول أعشى باهلة :

بنو تَيم قرارة كلِّ لؤم ... لكل مَصب سائلة قرار (٤)

وقد تبع أبو تمام حبيب بن أوس الطائى الأعشى فى هذا المعنى فقال :

---

(١) الغمر : الكريم الواسع الخلق . فظيظ : سيء الخلق . الغل : الحقد ؛
(٢) السوأة : الفاحشة والخلة القبيحة .
(٣) رقموا بلؤم : أى عرفوا وتميزوا به كما تخطط الحمير بالكى بالنار وبذلك تعرف بهذا الكى .
(٤) القرارة ما يقر فيه .

أضحوا بمستن سيل اللؤم وارتفعت ... أموالهم في هضاب المطل والعلل(١)

ومثل قول الآخر :

لو كان يخفى على الرحمن خافيةٌ ... من خلقه خفيت عنهُ بنو أسدِ

ومثل قول الآخر :

قومٌ إذا ما جنى جانيهمُ أمنوا ... من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قوداً (٢)

ومثل قول زياد الأعجم :

إنى لأكرمُ نفسى أن أكلفها ... هجاء جرم ولما يهجم أحد(٣)

ماذا يقول لهم من كان هاجيهم ... لا يبلغُ الناس ما فيهم وإن جهدوا

ومثل قول أوس بن معزاة :

فلست بعافٍ عن شتيمةِ عامرٍ ... ولا حابسى مما أقولُ وعيدُها (٤)

ترى اللؤم ما عاشوا جديداً عليهم ... وأبقى ثياب اللابسين جديدها

لعمرك ما تبلى سرابيلُ عامر ... من اللؤم ما دامت عليها جلودُها

هذه الأبيات قالها أوس وهو يهاجى النابغة الجعدى ، فيقال إن النابغة كان يقول إنى وأوسا نبتدر بيتا فمن قاله غلب على صاحبه فلما قال أوس البيت الأخير قال هذا هو البيت الذى كنا نبتدره ، فغلب أوس عليه .

ومثل قول عباس بن مرداس السلمى فى سفيان بن عبد يغوث النصرى :

وأوعد وقلْ ما شئت إنك جاهلٌ ... على أما أنت امرؤٌ من بنى نصر

(١) المعنى أن أموالهم متحصنة بحيث لا يراها السائلون .

(٢) القود : القصاص .

(٣) جرم : بطن من بطون طىء أو هى بطن من بطون قضاعة . جهدوا : بلغوا طاقتهم ووسعهم فى الهجاء . زياد: شاعر أموى مشهور توفى عام ١٢٠ هـ .

(٤) عامر : هى قبيلة النابغة الجعدى .

وما أجود ما قال الفرزدق فى عبد الله بن عمير الليثى حيث هرب من أبى فديك الخارجى وكان يتمنى لقاء الخوارج :

تَمَنَّيتهُم حتى إذا ما رأيتهم ... تركتَ لهم عند الجلادِ السّرادقا (١)
وأعطيتَ ما تعطى الحليلة بعلها ... وكنت حبارى إذ رأيت البوارقا (٢)

وفى قوله « ما تعطى الحليلة بعلها » مع إيجازه عجائب ، وكذلك فى قوله « حبارى » .

ومنهم من يفرط فى ذكر نقيصة واحدة كما يغلو عند المدح فى فضيلة واحدة ، فمن ذلك الحطيئة يغرق فى ذكر البخل وحده :

كدّدت بأظفارى وأعملت معولى ... فصادفتُ جلموداً من الصخر أملسا (٣)
تشاغَل لما جئتُ فى وجه حاجتى ... وأطرق حتى قلت قد مات أوعسى
وأجمعتُ أن أنعاه حين رأيته ... يفوق فُواق الموت حتى تنفّسا (٤)
فقلت له لا بأس لست بعائدٍ ... فأفرخ تعلوه السّمادير ملبسا (٥)

ولجرير فى ذكر العجز وحده :

ولا يتّقون الشّر حتى يصيبهم ... ولا يعرفون الأمر إلا من النذر (٦)

ثم ينظر أقسام المديح وأسبابه فيجرى أمر الهجاء بحسبها فى المراتب والدرجات والأقسام ، ويلزم ضد المعنى الذى يدل عليه إذ كان المديح ضد الهجاء والتبع القول فى الهجاء بالقول فى المراثى .

---

(١) الجلاد : القتال . السرادق : الذى يمد فوق صحن البيت .
(٢) الحبارى : طائر للذكر والأنثى . البوارق : السيوف .
(٣) كددت : اجتهدت : معولى : فأسى .
(٤) يفوق فوقا : يخرج صوته .
(٥) فافرخ : هدأ وسكن روعة . السمادير : ضعف البصر .
(٦) النذر : التعب والأرش جمعه نذور والنذر لا تكون إلا فى الجراح صغارها وكبارها

٣ – نعت المراثى

ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك ، مثل : كان ، وتولى ، وقضى نحبه ، وما أشبه ذلك(١) . وهذا ليس يزيد فى المعنى ولا ينقص منه ، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح في حياته ، وقد يفعل فى التأبين شيء ينفصل به لفظه عن لفظ المدح بغير كان وما جرى مجراها ، وهو أن يكون الحى مثلا يوصف بالجود ، فلا يقال كان جواداً ولكن يقال ذهب الجود أو فنى للجود بعده أو ليس الجود مستعملا مذ تولى، وما أشبه هذه الأشياء ، كما قالت ليلى الأخيلية(٢) ترثى توبة(٣) بن الحمير بالنجدة على هذه السبيل :

فليس رجالُ الحرب يأتون بعدها بعارٍ ولا غادٍ بركب مسافر

ومن الشعر من يرثي بذكر بكاء الأشياء التي كان الميت يزاولها ، وغير ذلك ، ومثله يحتاج إلى تعلم صحة هذا المعنى ، فى مثل ما تكلم به في مثل هذه الأشياء ، فإنه ليس من إصابة المعنى أن يقال فى كل شيء تركه الميت بأنه يبكى عليه ، لأن من ذلك ما إن قيل إنه بكى عليه لكان سيئة وعيبا لاحقين له .

فمن ذلك مثلا إن قال قائل في ميت : بكت الخيل إذ لم تجد لها فارسا مثلك كان مخطئا ، لأن من شأن ما كان يوصف فى حياته بكده إياه أن يذكر اغتباطه بموته(٤) وما كان فى حياته يوصف بالإحسان إليه أن يذكر اغتمامه بوفاته ، ومن ذلك احسان الخنساء في مرثيتها صخرا وإصابتها المعنى ،

---

(١) هذا خطأ من قدامة . فالتجربة الشعرية فى الرثاء غيرها فى المدح .
(٢) شاعرة أموية مشهورة توفيت عام ٨٠ هـ .
(٣) توبة الخفاجى شاعر أموى توفى عام ٦٧ هـ .
(٤) ليس ذلك ضربا لازبا فى كل حال .

حيث قالت تذكر اغتباط حذفة فرس بموته :

فقد فقدتكَ حذفة فاستراحت فليت الخيلَ فارسُها يراها (١)

ولو قالت : فقدتك حذفة فبكت ، لأخطأت ، وبكاء من يجب أن يبكى على الميت إنما هو من كان يوصف إذا وصف فى حياته بإغاثته والإحسان إليه كما قال كعب بن سعد الغنوى فى مرثية أخيه :

ليبككَ شيخٌ لم يجد من يُعينه وطاوى الحشا نائى المزار غريب (٢)

وكما قال أوس بن حجر يرثى فضالة بن كلدة الأسدى :

ليبكك الشَّرب والمدامة والفتيان طرًّا وطامعٌ طمعا (٣)

وذات هدم عار نواشرُها تصمتُ بالماء تولبا جدعا (٤)

والحى إذ حاذروا الصباحَ وإذ خافوا مغيرا وسائراً تلعا (٥)

فيجب أن يتفقد مثل هذا فى إصابة الغرض والانحراف عنه .

وإذا قد تبين بما قلنا آنفا أنه لا فصل بين المديح والتأبين إلا فى اللفظ دون المعنى ، فإصابة المعني به ومواجهة غرضه هو أن يجرى الأمر فيه على

---

(١) حذفة : اسم فرس صخر : والمعنى ليتك ترى الآن ما صارت اليه فرسك من الراحة والقوة والسمن لأنها استراحت من غزو صخر عليها .

(٢) الحشا : ما دون الحجاب مما فى البطن من كبد وغيره . والمعنى : طاوى الحشا من شدة الجوع . نائى المزار : بعيده .

(٣) الشراب : بالفتح جماعة الشاربين . المدامة : الخمر : طرا : جميعاً .

(٤) ذات هدم : أى خلق بالية : عارنوا شرها : أذرعها عارية : التولب : ولد الجحش الصغير : جدعا : سيء الغذاء .

(٥) حاذروا الصباح : خافوا من مجيئه لأنه وقت الغارة والحرب وهم قد فقدوا شجاعهم والمدافع عنهم تلعا : طويل الظهر أو العنق

سبيل المديح(١) . فمن المراثى التى تشبه فى المديح استيعاب الفضائل التى قدمنا ذكرها ، والأبيات عليها مثل قول كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه :

لَعَمْرى لَئِن كانت أصابت مُصيبة ... أخى والمنايا للرجالِ شَعُوبُ
لَقد كان أمّا حلمه فَمرَوح ... عَلينا وأمّا جهلهُ فَغريب
أخىما أخى لا فاحشٌ عندَ بيتهِ ... وَلا ورعٌ عندَ اللّقاء هيوب(٢)

فقد أتى فى هذه الأبيات بما وجب أن يأتى به فى المراثى ، إذ أصاب بها المعنى ، وجرت على الواجب ، أما فى البيت الأول فتذكر ما يدل على أن الشعر مرثية لهالك لا مديح لباق ، وأما فى الأبيات الأخرى [فقد بكى فيه الصفات] الأربع التى هى العقل والشجاعة والعفة والحلم ثم افتن كعب فى هذه المرثية بعد ذلك وزاد فى وصف بعض الفضائل ما لم يخرج به عن استقامة ، وهو قوله :

حليم إذا ماسورَة الجهل أطلقت ... حبَا الشّيبِ للنفسِ اللّجوج غلوبُ(٣)
كعاليةِ الرُّمح الرُّدينى لم يكن ... إذا ابتدَر القومُ العَلاء يخيبُ(٤)
فإنِّى لباكيه وإنِّى لصادِق ... عليهِ وبَعضُ القائلين كذوب
ليبكك شيخٌ لم يجد من يعينه ... وطاوى الحشا نائى المزارِ غَريب
جموعُ خلالِ الخيرِ من كلِّ جانبٍ ... إذَا جاء جيَّاءٌ بهنَّ ذَهوب(٥)
فتًى لا يُبالى أن يكونَ لِجسمهِ ... إذا نالَ خلاّتِ الكرامِ شحوبُ
حليمٌ إذَا ما الحلمُ زينٌ لأهلهِ ... مع الحلمِ فى عينِ العدُوِّ مهيب

(١) هذا خطأ من اساسه ، فالفرق كبير جداً بين المدح والرثاء .
(٢) هيوب محاذر كثير الخوف والإحجام .
(٣) سورة الجهل : شدته . اللجوج : المترددة المتمادية فى ما هى عليه .
(٤) عالية الرمح : أعلاه .
(٥) جموع خلال الخير : مسرع اليه . جياء : كثير المجىء .

إذا ما تراءاهُ الرِّجالُ تحفَّظوا فلم ينطقوا العوراء وهو قريب (١)

ومثل قول أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة الاسدى بجميع الفضائل التي ذكرناها إلا العفة وحدها ، فإنه ترك ذكرها ، إلا أنه في بعض القصيدة وَصَفَهُ بالكمال ، وفي الكمال كل فضيلة من العفة وغيرها .

أبا دُلَيجةَ من يكفي العشيرةَ إذ أمسَوا منَ الخطب في نارٍ وبلبالِ(٢)

أم من يكونُ خطيبَ القَوم إذ حفلوا لدى الملوكِ ذَوِي أيدٍ وإفضال

أم من لأهل لواء في مُسكَّعةٍ من حقِّهم لبِسُوا حقًّا بأبطال (٣)

أم من لحيٍ أضاعوا بعدَ أمرهم بينَ القسوطِ وبينَ الدِّينِ زَلزال(٤)

فرَّجتَ غمَّتهم وكنتَ مُعينهم حتى استقَرَّت نوامِ بعدَ تِزوال(٥)

فقد رثاه في هذه الأبيات بما جانس العقل والرأى واللسان ونحو ذلك ، وقال :

أبا دُليجةَ من يوصِى بأرملةٍ أم من لأشعثَ ذِي طمرَين طملال(٦)

وما خَليجٌ منَ المرازِ ذو حدب يَرِى الضريرَ بخشب الأيكِ والضالِ(٧)

يوماً بأجودَ منه حين تسأله ولا مُغِبٌّ ببرح بينَ أشبال(٨)

---

(١) التحفظ : قلة الغفلة في الأمور والتيقظ من السقطة كأنه على حذر .

(٢) البلبال : شدة الهم والوساوس .

(٣) المسكعة : المضلة من الأرضين لا يهتدى فيها لوجه الأمر . لبسوا : خلطوا .

(٤) القسوط : الجور والعدول عن الحق .

(٥) نوام : اقامتهم .

(٦) الطمر : بالكسر الثوب الخلق أو الكساء البالى من غير الصوف جمعه أطمار . الطملال : العارى من الثياب والفقير السيء الحال القبيح الهيئة .

(٧) الأيك : الشجر الملتف الكثير . الضال : نوع من الشجر أو السدر البرى .

(٨) المغب : الأسد . البرح : الشدة والشر . الأشبال : جمع مفرده شبل وهو ولد الأسد إذا أدرك الصيد .

ليثٌ عليهِ من البردِيِّ هِبرِيَةٌ كالمرزبانِيِّ عيّارٌ بأوصالِ (١)
يَوما بأجرأ مِنه جدًّ بادِرة على كَمِيٍّ بمهدِ الحدِّ فصّال

وقد رثاه فى هذه الأبيات بما جانس البذل والجود والسماحة والشجاعة ولم يذكر العفة ، إلا أنه قال فى أول القصيدة :

أم حِصانٌ فلم تضرب بكلتها قد طفت فى كل هذا الناس أحوالى
أى امرىء سوقة ممّن سمعت به أندىً وأكملِ منهُ أى إكمال

وقال أوس [بن حجر] يرثى فضالة :

أيتها النفسُ أجملي جزَعًا إنَّ الذى تحذَرينَ قد وقعا
إن الذي جمعَ السّماحةَ والنجدةَ والبأسَ والنّدَي جُمَعا
الألمعى الذي يظنُّ بكَ الظنَّ كأن قد رأى وقد سمعا (٢)

فقد جمع في هذه المرثية جميع الفضائل ووضع الشيء من ذلك مواضعه

ومن المراثي التى تشبه فى المديح اقتضاب المعانى واختصار الألفاظ ما قاله أوس فى قصيدته يرثى فضالة التى أولها :

ألم تكسف الشمسُ شمسُ النهار معَ النجم والقمرِ الواجبِ
لهلك فضالةَ لا تستوى الفقود ولا خلّة الذاهبِ
وأفضلتَ فى كلِّ شىءٍ فما يقاربُ سعيكَ من طالبِ

---

(١) الهبرية ما يتناثر من البردى فيبقى فى شعره متلبدا . عيار . هو الذى يذهب بأوصال الرجال إلى أجمته .

(٢) الألمعى : قال صاحب اللسان هو الداهية الذى يتظنن الأمور فلا يخطىء . وقيل : هو الذكى المتوقد الحديد اللسان والقلب ، وقال الأزهرى :الالمعى : الخفيف الظريف .

نجيحٌ مليحٌ أخو مأقط ثِقاب يحـدِّثُ بالغائبِ (١)
ويـكفى المَقالة أهـل الرِّجال غيرَ معيب ولا عائبِ

وليس ينبغى للناظر أن يظن خطأ فى وضع مليح موضع المـدح بالفضائل النفسية ، لأن مليحاً فى هذا الموضع ليس هو من قولهم « قريش ملح الناس» أي يستشفى بهم ، والذى يشهد بصحته قوله ثقاب يحدث بالغائب لأن هذا من جنس الرأي والحدث .

وقال الشماخ فى عمر بن الخطاب :

فَمن يسعَ أو يَركب جَناحى نَعامةٍ ليُدركَ ما قدمتَ بالأمس يُسبق(٢)

وقول الحطيئة(٣) يرثى علقمة بن علاثة :

فما كانَ بينى لو لقيتك سالما وبين الغنَى إلا لَيال قلائل
ولو عشتَ لم أملل حياتي فان تمت فما فى حياةٍ بعد موتك طائل(٤)

ومنهم أيضا من يغرق فى وصف فضيلة واحدة على حسب ما تقـدم ، وتـكون جميع الأحوال فى المراثى جارية على حسب أحوال المديح وفى ما تقدم فى باب المديح فى وصف ذلك ما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع ، ولنجعل كلامنا فى المراثى الـكلام فى التشبيه .

---

(١) ثقاب : ذكى رجل نجيح : منجح الحاجات ، ورأى نجيح صواب . المأقط : الشدة
(٢) فمن يسع أو يركب الخ : من يكلف لحاقك كان مسبوقا وضرب المثل بجناحى النعامة لأنه يضرب به المثل فى خفة العدو .
(٣) شاعر مخضرم توفى عام ٣٠ هـ .
(٤) الطائل : الفضل والقدرة والسعة .

٤ — نعت التشبيه

يجب أن نذكر أولا معنى التشبيه ثم نشرع فى وصفه فنقول :

إنه من الامور المعلومة أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا ، فصار الاثنان واحداً ، فبقى أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ، ويوصفان بها ، وافتراق فى أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها وإذ كان الأمر كذلك فاحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتركا كهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد . ومما جاء من التشبيهات الحسان قول يزيد بن عوف العليمى يذكر صوت جرع رجل قرى اللبن :

فغب دِخالاً جرعهُ متواترٌ كوقع السَّحاب بالطِّراف الممدّد(١)

فهذا المشبه إنما يشبه صوت الجرع بصوت المطر على الخباء الذى من أدم ومن جودته أنه لما كانت الأصوات تختلف ، وكان اختلافها إنما هو بحسب الأجسام التى تحدث الأصوات اصطكاكها ، وليس يدفع أن اللبن وعصب المرى الذين حدث عن اصطكاكهما صوت الجرع قريب الشبه من الاديم المؤتن والماء الذين حدث عن اصطكاكهما صوت المطر ، وعند سلوك هذه السبيل فى تعرف جودة التشبيه يستجاد قول جبهاء الأشجعى ، فى تشبيه صوت حلب عنز بصوت الكير إذا نفخ :

---

(١) دخالا : سريعاً . غب : شرب شربة بعد شربة . الطراف : الخيمة أى الخباء لذا كان من أدم . الممدد : المبسوط .

كأن أجيج الـكير أرْزامُ شخبها ... إذا امتاحها فى محلب الحىّ مائح (١)

وقال أوس بن حجر يشبه ارتفاع أصواتهم في الحرب تارة وهمودها وانقطاعها تارة بصوت التى تجاهد أمر الولادة :

لها صرخةٌ ثمَّ إسكاتَةٌ ... كما طرَّقت بنفاس بكر (٢)

ولم يرد المشبه فى هذا الموضع نفس الصوت ، وإنما أراد حاله في أزمان مقاطع الصرخات، وإذا نظر في ذلك وجد الذى وقف بين الصوتين واحدا وهو مجاهدة المشقة والاستعانة على الألم بالتبديد فى الصرخة

ومن جيد التشبيه قول الشماخ يذكر لواذ الثعلب من العقاب :

تلوذُ ثعالبُ الشَّرفين منها ... كما لاذ الغريمُ من التَّبيع (٣)

وقد يختلف اللواذان بحسب اختلاف اللائذين ، فأما التبيع فهو ملحٌّ فى طلب الغريم لفائدة يرومها منه ، والغريم بحسب ذلك مجتهد في الروغان في اللواذ خوفا من مكروه يلحقه ، وكذلك الثعلب والعقاب سواء ، لأن العقاب ترجو شبعها والثعلب يخاف موته ، وقال الشماخ:

كأنَّ على أوراكها من لعابه ... وخيفة خطمىٌّ بماء مُرجرج (٤)

فشبه لعاب الفحل إذا ظهر على أورك الاتن(٥) عند كدمه إياها بالخطمى

(١) أجيج الـكير: صوته . الشخب : ما خرج من الضرع من اللبن. امتاحها: استدر لبنها المـائح : المستدر اللبن يقال : امتاحت الشمس ذفرى البعير استدرت عرقه :

(٢) طرقت : من التطريق وهو خروج بعض الولد عند الوضع .

(٣) تلوذ : تفر . الثعالب : جمع مفرده ثعلب . الشرفين : تثنيه شرف وهو ما شرف من الأرض وهو اسم موضع . الغريم : الشخص المدين . التبيع : صاحب الدين .

(٤) الخطمى : بكسر الخاء وفتحها نبات محلل منضج ملين نافع لعسر البول والحصا .

(٥) جمع أتان .

وهو شبيه به فى قوام الثخن وفى الرغوة وفى اللون أيضا ، وذلك أن الحمار إنما يكثر كدمه(١) الاتن فى الربيع عند خضرة الرطب ، وشره في ذلك الوقت .

وقد أحسن الشماخ فى قوله حين شبه أضلاع الناقة حين براها السير بالقسى الموترة :

فقربتُ مبراةً كأنّ ضلوعَها من الماسخيات القسىَّ الموتّرا (٢)

مبراة من البرة التى تجعل فى الأنف من الناقة . والماسخيات : قسى تنسب إلى قوم ؛ وقد أحسن الشماخ في هذا التشبيه ، من قبل اجتماع الأضلاع والقسى الموترة في الشكل والتوتر والأعصاب والأوتار ، ولم يرد إلا الشكل فقط ، وقد أتى على ما فيه .

ولابن أحمر الباهلى يذكر قلب الفرس عند الحركة السريعة :

حتى ضحية طاويًا ذا شرّة وفؤادُه زجل كعرفِ الهُدهدِ (٣)

فتواتر نبض قلب الفرس إذا تحرك قريب الشبه من تواتر حركة عرف الهدهد .

والمرّار :

لهـا قلاص نعام يرتقين بها كأنهنّ سبى لابسو الهدم (٤)

---

(١) الكدم : الجماع والمواقعة .

(٢) الموتر : الذى شدت بالأوتار فقد شبه ضلوع الناقة فى الانحناء بالقوس وهذا تشبيه حسن بديع .

(٣) ضحية : اسم فرس الشاعر . شرة : قوة ونشاط . زجل : كثير الاضطراب والخفقان .

(٤) القلاص : فواضل ريش النعام .

فما أحسن ما شبه فواضل ريش النعام بانسدال الأطمار الرثة على اللابس ولا سيما السبي ، فإن في مشيهم أعجمية تشبه مشي النعام ، وفى ألوان ثيابهم قتمة من الدرن تشبه قتمة ريش النعام ، ففي الشيئين اشتراك في معان كثيرة .

وقد يقع في التشبيه تصرف إلى وجوه تستحسن :

فمنها : أن تجمع تشبيهات كثيرة في بيت واحد وألفاظ يسيرة كما قال امرؤ القيس :

له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ ... وإرخاء سرحانٍ وتقريبُ تتفلِ(١)

فأتى بأربعة أشياء مشبهة بأربعة أشياء وذلك أن مخرج قوله له أيطلا ظبي إنما هو على أنه له أيطلان كأيطلي الظبي وكذا ساقان كساقي نعامة وإرخاء كإرخاء السرحان وتقريب كتقريب التتفل .

ومنها : أن يشبه شيء بأشياء في بيت أو لفظ قصير وذلك كما قال امرؤ القيس :

وتعطو برخصٍ غير شثنٍ كأنه ... أساريعُ ظبي أو مساويكُ إسحلِ(٢)

ومنها : أن يشبه شيء في تصرف أحواله بأشياء تشبهه في تلك الأحوال كما قال امرؤ القيس يصف الدرع في حال طيها :

ومشدودةِ السّكِّ موضونةٍ ... تضاءل في الطيِّ كالمبردِ(٣)

---

(١) أيطلا ظبي : خاصرتا ظبي وإنما خص الظبي لأنه ضامر وكذلك النعامة لأنها طويلة الساقين . الارخاء : الجري الذى فيه سهولة مأخوذ من الرخاء وهو الريح السهلة . السرحان : الذئب . تتفل : ولد الثعلب .

(٢) تعطو : تتناول . برخص : بأصابع رخصة لينة . شثن : خشنة . أساريع : صغار ظبى : اسم رملة . الاسحل : شجر يستاك به .

(٣) مشدودة : متداخل بعضها في بعض . السك : الدرع . تضاءل في الطي : يعني إذا طويت صغرت ولطفت حتى تصير كالمبرد .

ثم وصفها فى حال النشر فى هذه الابيات فقال :

تفيضُ على المرءِ أردانها كفيض الأتيّ على الجد جدِ(١)

وكما قال يزيد بن الطثرية يشبه رأسه في حال كون الجمة عليه وبعد حلقها :

فأصبح رأسى كالصخيرة أشرفت عليها عقابٌ ثم طارت عقابها (٢)

وأحسن أيضا في تشبيه رأسه بعد الحلق بالصخرة ، وذلك أنه قريب منها في الضخامة والملاسة واللون المائل إلى خضرة . وقد قال بعضهم فى مثل ذلك :

حنا كل إملاء الأكفّ كأنها رؤوسٌ رجال حُلقت فى المواسم

وقال الحسين بن مطير يشبه أفعال رجل مات وكان جواداً :

فتى عيش فى معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

ومن أبواب التصرف فى التشبيه أن يكون الشعراء قد لزموا طريقة واحدة من تشبيه شيء بشيء فيأتى الشاعر من تشبيهه بغير الطريق التى أخذ فيها عامة الشعراء ، فمن أمثال ذلك أن أكثر الشعراء يشبهون الخوذ بالبيض كما قال سلامة بن جندل :

كأنّ نعاماً باض فوق رؤوسهم بنهى القذاف أو بنهى مخفق

وقال :

كأنّ نعام الدّوّ باضَ عليهم وأعينهم تحتَ الحبيكِ الجواحِر(٣)

(١) أردانها : أطرافها . الأتى : السيل . الجدجد : الأرض ذات الحصا .

(٢) أشرفت عليها الخ : أى علت عليها ووقفت والمراد شعر العقاص الذى فى مقدم رأسه فانه قد شبه رأسه قبل حلقها بالصخرة الصغيرة قد أشرف عليها عقاب وبعد حلقها بالصخرة التى طار عنها العقاب .

(٣) الدو : الفلاة الواسعة . الحبيك : جمع حبيكة وهي البيضة . الجواحر : البيض .

وأكثر الشعراء يلتزمون هذا التشبيه فقال أبو شجاع الأزدي :

فلم أرَ إلا الخيلَ تعدُو كأنما سَنوّرُها فوق الرُّؤس الكواكِب (١)

وربما كان الشعراء يأخذون في تشبيه شيء بشيء، والشبه بين هذين الشيئين من جهة ما ، فيأتي شاعر آخر في تشبيهه من جهة أخرى فيكون ذلك تصرفا أيضا ، مثال ذلك أن جل الشعراء يشبهون الدروع بالغدير الذي تصفقه الرياح كما قال أوس بن حجر :

وأملسَ صولِي كنهي قرَارِه أحسَّ بِقاعٍ نفخَ ريحٍ فأجفلاَ(٢)

وقال الآخر :

وعليَّ سابغة الذُّيول كأنها سوقُ الجنوب جنَاب نهيٍ مُفرط(٣)

وكثير من الشعراء ينحون في تشبيه الدروع هذا المنحى ، وإنما يذهبون إلى الشكل ، وذلك أن الريح تفعل بالماء في تركيبها إياه بعضا على بعض مايشبهه في حال التشكيل . فقال سلامة بن جندل عادلا عن تشبيه الشكل إلى تشبيه اللين وذلك أن اللين من دلائل جودة الدرع لصغر قتيرها وحلقها :

فألقوا لَنا أرسانَ كل نجيبةٍ وسابغة كأنها مَتنُ خرنق (٤)

وقال يذكر بريقها وهو وجه غير الوجهين الأولين :

---

(١) سنورها : لبوس من قد يلبس في الحرب .

(٢) النهي : بفتح النون وكسرها الغدير أو شبهه . القاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

(٣) سابغة الذيول : درع تامة طويلة واسعة . الجنوب : ريح تخالف الشمال مهبها من مطلع سهيل الى مطلع الثريا . نهى مفرط : غدير فريز .

(٤) ارسان جمع رسن وهو الحبل وما كان من زمام على أنف . نجيبة : الناقة السريعة اللين الظهر . خرنق : أرنب والمعنى درع لين كأنه ظهر أرنب .

مداخلة من نسج داود سكها   كنكب ضاح من عماية مشرف

ومن التشبيه الجيد للحكم الخضرى يصف غليان القدر بما فيها من قطع اللحم :

كأن جذول الناب فيها إذا غلت   دعاميص تخشى صائداً فتعوم(١)

ولقيس بن زهير :

كأن خذاريف السواعد بيننا   مغالى غواة يلعبون بها لعبا (٢)

وللمرقبان أحد بني عرافة بن سعد بن زيد :

وقد سقوهن سجالاً فاستقوا   من أجن كأنهن الزنبق(٣)

ثم أتبع القول في التشبيه القول في الوصف .

٥ – نعت الوصف

أقول : الوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات . ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها ، ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ويمثله للحس بنعته .

فمن ذلك : قول الشماخ يصف أرضا تسير النبالة فيها :

---

(١) الجذل : أصل الشيء . الناب : السن خلف الرباعية . الدعاميص : جمع دعموص وهي دويبة صغيرة تكون في مستنقع الماء .

(٢) خذاريف : جمع مفرده وهو شيء يدوره الصبي بيده فيسمع له دوي .

(٣) السجال : جمع سجل وهو الدلو الضخمة المملوءة ماء .

تقعقع في الآباطِ منها وفاضُها خلت غير آثار الأراجيلِ ترتمي (١)

فقد أتى في هذا البيت بذكر الرجالة ، وبين أفعالها بقوله ترتمي ، ومن الحال في مقدار سيرها بوصفه تقعقع الوفاض ، إذ كان في ذلك دليل على الهرولة أو نحوها من ضروب السير ودل أيضا على الموضع الذي حلت فيه هذه الرجالة الوفاض وهي أوعية السهام ، حيث قال في الآباط ، فاستوعب أكثر هيئات النبالة ، وأتى من صفاتها بأولاها وأظهرها عليها ، وحكاها حتى كأن سامع قوله يراها .

ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي ، يصف حال السيل عند انقلاع السحاب وسكون المطر :

لكلِّ مَسيلٍ من تِهامة بعدَ ما تَقطّعَ أقرانُ السحابَ عجيجُ (٢)

ومنه قول رجل من هذيل يصف حال القوم في الحرب عند الجلاد :

كمّاغم الثيرّان بينهم ضربٌ تغمضُ دونَهُ الحدَق

ومثله قوله معاوية بن خليل النصري ، من نصر بن قعين ، يذكر نباهة حيه ، وأنه أشهر من جدلم حي آخر :

فنحنُ الثُّريّا وعيُّوقُها ونحنُ السِّماكانِ والمرزَم (٣)

---

(١) الآباط : جمع أبط وهو باطن المنكب . الوفاض : جمع وافضة وهي جعبة السهام من الأدم . والشماخ شاعر مخضرم مجيد توفي عام ٢٢ هـ .

(٢) المسيل : موضع سيل الماء كالوادي . عجيج : صوت . تقطع أقران السحاب . كناية عن نزول المطر

(٣) العيوق : كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا في ناحية الشمال ، ويطلع قبل الجوزاء ، سمي بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا . المرزم والمرزام نجمان وهما مع الشعريين كالذراع المقبوضة هي لاحدى المرزمين ونظم الجوزاء أحد المرزمين .

وأنتم كواكبُ مجهولةٌ ترى في السماء ولا تعلمُ

وليزيد بن الصمد ، يصف آثار خيل وابل طردها فنجا بها :

ألا رُبَّ غزوٍ مارَ كبنا جوَادَه   وما قد عقرنا من صفِيٍّ ومن قرمِ(١)
وأصبحن َقدجاوزنَ أسفل ذي حسا   وآثارُها فوقَ المصيخِ كالرَّقمِ

ولعبد الرحمن بن عبد الله القس يصف إصغاء السامعين إلى الغناء الحسن المطرب وهو في سلامة :

إذا ما عج مزهرُها إليها   وعاجت نحوهُ أُذنٌ كرامُ (٢)
فأصغَوا نحوَها الأسماعَ حتّى   كأنهمُ وما ناموا نيامٌ

وللمرار بن المنقذ من بلعدوية يصف الفرس الكريم :

ذو مِراحٍ فإذَا وقَّرتَهُ   فذَلولٌ حسنُ الخلقِ يَسِر(٣)

وليزيد بن مالك الغامدي ، يصف فعل سنابك الخيل فى الأرض :

يُثرنَ بسهلِ الأرضِ ممّا يَدُسنَهُ   عجاجًا وبالِحزانِ نارَ الحباحب (٤)

ولعدى بن الرقاع العاملى ، يصف فعل سنابك حمارين إذا عدوا :

يتعاوران منَ الغبار ملاءةً   غبراء محكمة هما نسجاها (٥)

---

(١) الصفى : من الغنيمة ما اختاره الرئيس لنفسه ويجمع صفايا قال الشاعر :
لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول
القرم : الفحل .

(٢) عج : صاح . مزهرها : المزهر كمنبر العود يضرب به عاجت نحوه أذن : أى مالت وعطفت . كرام : جمع كريمة والكريمة كل جارحة شريفة كالأذن واليد .

(٣) وقرته : حملته حملا ثقيلا .

(٤) نار الحباحب : دويبة صغيرة تضيء بالليل ، والمعنى أن ما اقتدح من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة كالحباحب فى حالة طيرانها ليلا مضيئة .

(٥) يتعاوران من الغبار الخ : أى كل منهما يعير الآخر ملاءة من الغبار الذي يثيره ،

تطوى إذا علَوا مكاناً ناشزاً ... وإذا السنابكُ أسهلت نشراها (١)

ولذى الرمة :

ترى الخود يكرهن الرِّياحَ إذا جرت ... ومىٌّ بها لولا التحرُّجُ تفرحُ (٢)
إذا ضربتها الرِّيح فى المُرطِ أشرفَت ... روادِفها وانضمَّ منها الموشَّحُ

ولنتبع القول في الوصف بالقول فى النسيب .

---

(٦) ناشزا : مرتفعا . اسهلت : أى سارت فى أرض سهلة مستوية ذات غبار. نشراها : الضمير للملاءة أى إذا سارا فى مكان عال ذهبت عنهم الملاءة ، وإذا سارا فى مكان سهل نشراها فوقهم . وعدى شاعر أموى مجيد .

(١) الخود : الناعمة الحسنة الخلق جمعها خودات وخود. مى: معشوقة ذى الرمة التحرج: الضيق والملل . المرط : بالكسر كساء من صوف أوخز جمعه مروط. الروادف : الأعجاز. وذو الرمة شاعر أموى مجيد فى وصف الطبيعة البدوية . توفى عام ١١٧ ﻫ .

٦— نعت النسيب

أقول إن كثيراً من الناس يحتاج إلى أن يعلم أولا : ما النسيب ؟ ونحن نحده فنقول :

إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن ، وقد يذهب على قوم أيضا موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتقده الإنسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله ، فكأن النسيب ذكر الغزل ، والغزل المعنى نفسه .

والغزل إنما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء ، ويقال في الإنسان إنه غزل إذا كان متشكلا بالصورة التى تليق بالنساء ، وتجانس موافقاتهن ، لحاجته بالوجه الذى يجذبهن إلى أن يملن إليه والذى يميلهن إليه هو الشمائل الحلوة ، والمعاطف الظريفة والحركات اللطيفة والكلام المستعذب والمزاح المستغرب ، ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء متشاج ، وإنما هو متفاعل من الشجى ، أى متشبه بمن قد شجاه الحب .

وإذ قد بان أن الذى قلناه على ما قلنا ، فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والعز ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة ، فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض .

وقد يدخل فى النسيب التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابة ، والبروق اللامعة والحمائم الهاتفة والخيالات الطائفة وآثار الديار العافية

أشخاص الأطلال الدائرة ، وجميع ذلك إذا ذكر احتيج أن تكون فيه أدلة لى عظيم الحسرة ومن مضي الأسف والمنازعة .

ولست أذكر متى سمعت في التشوق بآثار الديار أوجز ولا أجمع ، ولا دل على لاعج الشوق ومكمد الوجد من قول محمد بن عبيد الأزدي :

فلم تدع الأرواحُ والماء والبِلَى من الدار إلا ما يشوقُ ويشغف (١)

ولعمرى إن عمرو بن أحمر الباهلى قد أوجز وأبان عن تشوق وعظم تحسر بقوله :

معارفُ تلوى بالفؤادِ وإن تَقُل لَهَا بيِّنى لى حاجةً لم تَكلم (٢)

وأما قوله « لم تكلم » فهو تجاهل الهائم ، وتدله الواله ، فإنه قد يحتاج إلى أن يكون فى شعر الوامق دليل على أنه لاتحان .

وممن شاقته المنازل صخر الخضرى وقد مر على ربع فقال :

بَليتَ كما يَبلى الرِّداءُ ولا أرى جنابًا ولا أكنافَ وزرةَ تخلقُ
أَلوَى حيازيمي بهنَّ صبابةً كما تنطوى الحيَّة المتشَرِّق (٣)

وممن شاقه البرق فأحس ما مر به من الشوق حبيش بن مطر العامرى ، حيث يقول ويذكر خفقان قلبه :

أَجِدكَ لا يبدو لكَ البرقُ مرَّةً من الدَّهر إلا ماءُ عينيكَ يذرِفُ (٤)

---

(١) الأرواح : جمع مفرده ريح . الا ما يشوق ويشغف : أى الا رسوما وآثارا تسبب الشوق والشغف على مامضى من أيام الأنس والنعيم .

(٢) معارف تلوى : المعارف الآثار ، تلوى : تذهب به .

(٣) الحيزوم : ما استدار بالظهر والبطن .

(٤) أجدك : منصوب على المصدرية ولايقال الا مضافا ومعناه القسم واليمين .

وقلبكَ من فرطِ اشتياق كأنه بدًا لامعٌ أو طائرٌ يتطرّف

ولرجل من عبس :

إذا الله أسقَى دِمنَتَين بِبلدَةٍ من الأرض سُقيًا رحمةٍ فسقَاهمُا (١)
نزَلنا بهذِي منزِلاً ثمَّ مَنزلاً بهذِي فَطابَ المنزِلانِ كلاهُما
فَبِتُّ أشيمُ البرقَ مرتَفِقاً له يداً عن يدٍ حتى وفي منكِباهُما (٢)

وقال الشماخ :

رأيتُ سنا برقٍ فقلت لصاحبي بعيدٌ بعلو ما رأيتُ سحيقُ (٣)
فبَاتَ مهمّا لى يذكّرُنى الهوى كأنّى لبرقٍ بالحجازِ صديقُ (٤)
وباتَ فؤادِي مُستخفًا كأنه خوافى عقابٍ بِالجناحِ خفوقُ (٥)

فأما النسيب نفسه فقد تقدمت أوصافنا له .

ومما أختم به القول أن المحسن من الشعراء فيه هو الذى يصف من أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذى وجد حاضر أو داثر أنه يجد أو قد وجد مثله ، حتى يكون الشاعر فضيلة الشعر .

---

(١) الدمنة : ما ارتفع من الأرض .

(٢) أشيم البرق : يقال شام البرق نظر إليه أين يقصد ، وأين يمطر مرتفقا له : اى واقفاً ثابتاً دائم الثبوت لأنظر إليه .

(٣) سنا برق : ضوءه . بعلو : اسم موضع وفى رواية بفلج وهي موضع كذلك بين البصرة وحمى . ما رأيت : ما بمعنى الذى . سحيق : بعيد ، وهو توكيد معنوى لبعيد . والمعنى : الذى يلمع بعيد .

(٤) مهما لى : محزنا لى . الحجاز : الأرض المعروفة لأنها سميت بهذا الاسم حجزت بين تهامة ونجد .

(٥) مستخفا : اسم مفعول استخفه الشيء فهو مستخف أى حمله الجهل والخفة . الخوافى : جمع خافية وهن ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت . هذا والشماخ شاعر مخضرم توفى عام ٢٢ هـ .

فمن ذلك قول أبي صخر الهذلي يصف ما أرى أن كل متعلق بمودة يجد مثله قوله :

أما والذي أبكى وأضحكَ والذي أماتَ وأحيا والذي أمره الأمر(١)
لقد كنتُ آتيها وفي النفس هجرُها بتاتًا لأخرى الدهر ما طلعَ الفجر
فما هوَ إلا أن أراها فجاءةً فأبهتُ لا عرفٌ لديَّ ولا نكرُ
وأنسى الذي قد كنت فيهِ هجرتها كما قد تُنسِّي لُبَّ شاربها الخمر

وفي هذه القصيدة أيضا موجع آخر ، دال على إفراط المحبة ، مبين عن سجية في أهل الهوى عامة وهو قوله :

ويمنعني من بعدِ إنكار ظلمها إذا ظلمت يوماً وإن كان لي عذر
مخافةَ أني قد عرفتُ لأن بدا لي الهجرُ منها ما على هجرها صبر
وإنِّي لأدري إذا النفس أشرفت على هجرها ما يفعلانّ بي الهجر

وكما قال الشاعر :

يودُّ بأن يُمسي سقيما لعلها إذا سمعت عنهُ بشكوى تُراسله(٢)
ويَهتزُّ للمعروفِ في طلبِ العلى لتُحمَدَ يوماً عند ليلى شمائله

فهو من أحسن القول في الغزل ، وذلك أن هذا الشاعر قد أبان في البيت الأول عن أعظم وجد وجده محب ، حيث جعل السقم أيسر ما يجد من الشوق ، فإنه اختاره ليكون سبيلا إلى أن يشفي بالمراسلة فهو أيسر ما يتعلق به الوامق وأدني فوائد العاشق ، وأبان في البيت الثاني عن إعظام منه شديد لهذه المرأة حيث لم يرض لنفسه كونها على سجيتها الأولى ، حتى احتاج إلى أن يتكلف

---

(١) كرر الذي للتفخيم . وجواب القسم قوله في البيت الآتي « لقد كنت آتيها » .
(٢) سقيا : مريضاً . شمائله : طبائعه مفرد شمأل.

سجايا مكتسبة يتزين بها عندها ، وهذه غاية المحبة ، ووصف الشاعر لذلك هو الذى يستجاد لاعتقاده إذ كان الشعر إنما هو قول ، وإذا أجاد فيه القائل لم يطالب بالاعتقاد ، لأنه قد يجوز أن يكون معتقدا لأضعاف ما في نفس هذا الشاعر من الوجد ، بحيث لم ينكروه وإنما اعتقدوه فقط ، ولم يدخلوا في باب من يوصف بالشعر والقول والنسيب قول طريح الثقفى :

بانَ الخليط وفُرِّقَ الشَّمل   وعلى التفرُّق ما بدَا الوصل (١)
أبكاكَ منهم ما فرِحتَ به   ولكلِّ مولد فرحةً ثكل

ومن هذه الأبيات :

ممسودةٌ خلقت فعاليُها   خوطٌ ومَعقد مَرِطَها عبلُ (٢)
تضعُ البريمَ فيستدير على   فعم أنفٌ كأنه رمل (٣)
يُسجى إذا ما قلت أخفضهُ   ويثور منكَشِطًا إذا يعلو (٤)
وقيامها حسنٌ وضحكتها   عِندَ العجيب تبسُّم رَتل (٥)
وعلاَ بها عظمٌ فألحقها   بنسائها ولدانها بسل

ولأبى صخر الهذلى في التصابى والخلاعة :

أرادَ الشيب مِنِّى ختلَ نفسى   لأنسي ذِكرَ ربَّاتِ الحِجَال (٦)

---

(١) بان : تفرق وابتعد . الخليط : الشريك .

(٢) ممسودة : مجدولة الخلق . خوط : ناعم رقيق كالغصن . ومعقد مرطها عبل : أى عنقها ضخم .

(٣) البريم : خيطان مختلفان أحمر وأبيض تشده المرأة على وسطها وعضدها . الفعم: التى استوى خلقها وغلظ ساقها فهى فعمة .

(٤) يسجى : يغطى . منكشطا : مرتفعا .

(٥) رتل : حسن .

(٦) ختل نفسى : خداعها .

إذا اختَصَمَ الصِّبي والشَّيْبُ عِندي فأفلجتِ الشبابَ فَلا أُبالي (١)

فقد أتينا من ذكر نعوت الأغراض التي نحتها الشعراء من المعاني ، وهي : المديح - والهجاء وغيرها مما عددناه وشرحنا أحواله ، على ما فيه كفاية لمن له فهم ، وعنده نظر وفحص .

وهذه المعاني التي ذكرناها من أغراض الشعراء فإنما هي أجزاء من جملة ، وما تكلمنا به فيها مع ما بيناه فيه من الحال فيه مثالا لغيره واعتبارا في ما لم نذكره .

فأما ما يعم جميع المعاني الشعرية فإنا نبتدىء بذكره وتحديده ، فمن ذلك :

١ - صحة التقسيم

وهي أن يبتدىء الشاعر فيضع أقساما فيستوفيها ولا يغادر قسما منها ، مثال ذلك قول نصيب يريد أن يأتي بأقسام جواب المجيب عن الاستخبار :

فقالَ فريقُ القومَ لا وفريقُهم نَعَم وَفريقٌ قالَ ويحكَ لا أدري

فليس في أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام .

ومثال ذلك أيضا قول الشماخ يصف صلابة سنابك الحمار وشدة وطئه على الأرض :

متى وقعت أرساغهُ مُطمئنةً على حجرٍ يَرفضُّ أو يتدحرجُ (٢)

---

(١) أفلجت الشباب : نصرت الشباب وجعلته ظافرا . وأبو صخر شاعر أموي مجيد .

(٢) أرساغه : جمع رسغ ، والرسغ بالضم وبضمتين الموضع المستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل ويجمع أيضاً على أرسغ . مطمئنة : ساكنة . يرفض : يتفرق ويذهب . يتدحرج : يتتابع .

فليس فى أمر الوطء الشديد إلا أن يوجد الذي يوطأ عليه رخوا فيرض أو صلبا فيدفع .

ومثال ذلك أيضا قول الأسعر بن حمدان الجعفي يصف فرسا على هيئته جميع جهاته :

أما إذا استقبلتَهُ فكأنّهُ باز يُكفكِفُ أن يطيرَ وقد رأى

أما إذا استدبرتَهُ فتَسوقُهُ ساقٌ قَموص الوَقع عارِيةُ النَّسا (١)

أمّا إذا استعرضته متمطِّراً فتقول هذا مِثل سِرحان الغَضا (٢)

فلم يدع هذا الشاعر قسما من أقسام النصبة التى يرى الفرس عليها إلا أتى به ، وقد يجوز أن يظن ظان فى قولنا أن هذا الشاعر قد أتى بجميع الأقسام ، وكل جسم فله ست جهات ، فإذا ذكرت حال أربع منها بقيت جهتان لم تذكرا ، وحل هذا الشك إن وقع من أحد هو أن هذا الشاعر إنما وصف فرسا لا جسما مطلقا ، وللفرس أحوال تمتنع بها من أن تنتصب على كل نصبة ،ومع ذلك فإن هذا الشاعر إنما وصف الجهات التى يراها الإنسان من الفرس ، إذا كان على بسيط الأرض وكان الرجل قائما أو قاعداً ، إذ كانت هذه الحال التي يرى الناس عليها الخيل فى أكثر الأمر ، فأما مثل أن يكون الإنسان فى علية فيرى من الفرس أعلاه فقط فما أبعد ما يقع ذلك ، ولم يقصده الشاعر ، ولا له وجه فى أن يريده ، إذ كان ليس فى ما يعرف ويعهد من النظر إلى الخيل إلا ما ذكره ، وهو أن تستقبل أو تستدبر أو تستعرض من أحد الجانبين .

ومثال هذا الباب أيضا قول (أبى) زبيد الطائي :

---

(١) عارية النسا : النسا عرق من الورك الى الكعب .

(٢) السرحان : الذئب . الغضا : نوع من الشجر.

يا أممَ صبراً على ما كان من حدثٍ   إنّ الحوادثَ ملقيٌّ ومنتظرُ (١)

فليس فى الحوادث إلا أن تكون قد لقيت أو ينتظر لقيها .

ومن أنواع المعاني وأجناسها أيضا :

٢ — صحة المقابلة

وهو أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة ، فيأتي فى الموافق بما يوافق وفى المخالف بما يخالف على الصحة ، أو يشرط شروطا ويعدد أحوالا فى أحد المعنيين ، فيجب أن يأتي في ما يوافقه بمثل الذى شرطه وعدده ، وفي ما يخالف بضد ذلك ، كما قال بعضهم :

تقاصَرنَ واحلولينَ لي ثمّ إنه   أتت بعدُ أيّامٍ طوال أمرّتِ

فقابل القصر والحلاوة بالطول والمرارة ، ومثله قول الآخر :

وَإِذَا حديثٌ ساءنى لم أكتئب   وإذا حديثٌ سرّنى لم أشر (٢)

فقد جعل بإزاء سرني ساءني ، وبازاء الاكتئاب الأشر وهذه المعاني غاية في التقابل .

ولعقيل بن حجاج :

تَشقّ فى حيثُ لم تَبعُد مصعدَةً   وَلم تُصوب إلى أدنى مَهاويها

فجعل بإزاء قوله « تبعد مصعدة » أدنى مهاويها ولو جعل بإزاء الإبعاد فى الصعود الهوى من غير أن يقول أدني المهاوى لكانت المقابلة ناقصة ، كما قال تبعد قال أدنى ، ولو قال « لم تبعد » لقنع منه بأن يقول تهوى من غير أن يأتي بالدنو .

---

(١) ياأمم : منادى ترخيم أسماء . الحدث : مايحدث للانسان من أحوال الدهر وأحداثه وأبو زبيد شاعر مخضرم توفى عام ٤١ هـ وكان مجيداً فى وصف الأسد .

(٢) لم أكتئب : لم أحزن . الأشر : المرح .

وللطرماح بن حكيم :

أسرناهم وأنعمنا عليهم   وأسقينا دماءهم الترابا
فما صبروا لبأسٍ عندَ حربٍ   ولا أدّوا لحسنِ يدٍ ثوابا (١)

فجعل بإزاء أن سقوا دماءهم التراب وقاتلوهم أن يصبروا ، وبإزاء أن أنعموا عليهم أن يثيبوا .

ولآخر :

جزَى الله عنّا ذاتَ بعلٍ تصدّقت   على عزبٍ حتى يكونَ له أهل (٢)
فإنّا سنجزيها كما فعلت بنا   إذا ما تزوّجنا وليسَ لها بعلُ (٣)

فقد أجاد هذا الشاعر حيث وضع مقابل أن تكونَ المرأة ذات بعل (أنه عزب) ، وقابل حاجته وهو عزب بحاجتها وهي عزبة ، من غير أن يغادر شرطا ولا أن يزيد شيئا .

٣ - ومن أنوع المعانى صحة التفسير

وهو أن يضع الشاعر معانى يريد أن يذكر أحوالها فى شعره الذي يصنعه فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها ولا يزيد أو ينقص مثل قول الفرزدق(٤) رحمه الله :

لقد جئتُ قوماً لو لجأتُ إليهم   طريدَ دم أو حاملاً ثقلَ مغرم

فلما كان هذا البيت محتاجا إلى تفسير قال :

---

(١) يد : اليد النعمة مجاز مرسل علاقته السببية . والطرماح شاعر أموى من زعماء الخوارج توفى عام ١٢٥هـ وقد حقق ديوانه عزة حسن وهو مطبوع بدمشق عام ١٩٦٨ .

(٢) البعل : الزوج . عزب : العزب محركة من لا أهل له .

(٣) سنجزيها : سنكافئها ويروى سنجديها .

(٤) الفرزدق شاعر العصر الأموي توفى عام ١١٠هـ

لألفيتُ فيهم مُعطيًا أو مُطاعنًا   وراءك شزرًا بالوشيجِ المقوَّم

ففسر قوله حاملا ثقل مغرم بقوله إن يلقَ ، فيهم من يطاعن دونه ويحميه .

ومثله قول الحسين بن مطير الأسدى (١) :

ولهُ بلاَ حُـزنٍ ولا بمسرةٍ   ضحكٌ يُراوح بيْنَهُ وبكاه

ففسر بلا حزن ببكاء ولا بمسرة بضحك .

وقال صالح بن جناح اللخمى :

لئن كنتُ محتاجًا إلى الحلم إنَّنى   إلى الجهل فى بعض الأحايين أحوَج (٢)

وفسر ذلك بأن قال :

ولىَ فرسٌ للحلمِ بالحلمِ مُلجمٌ   ولىَ فرسٌ للجهلِ بالجهلِ مُسْرج (٣)

فلم يزد المعنى ولا نقص منه ، ثم فسر البيت الثانى أيضا فقال :

فمن رامَ تقويمى فإنِّى مُقوَّم   ومن رام تعويجى فإنى مُعوَّج

وقال سهل بن مروان :

فواحسرَتى حتَّى متى القلبُ مُوجَع   بفقدِ حبيبٍ أو تعذرِ إفضالِ

---

(١) شاعر من مخضرمى الدولتين توفى عام ١٦٩ هـ
(٢) المراد بالجهل هنا الغضب .
(٣) ملجم : أى أن الحلم لاجمه ومانعه من الوقوع فى المكروه . ومسرج : أى أنى الجهل لتمكنه فيه كأنه مسرج فيه ويُنسب هذا البيت وما بعده للإمام على !

وفسر ذلك فقال :

فِراقُ خليلٍ مثِله يورِث الأسَى   وخلةُ حـرٍ لا يقومُ بها مالى

٤ – ومن أنواع نعوت المعاني التتميم

وهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التى تتم بها صحته وتـكمل معها جودته شيئا إلا أتى به ، مثل قول نافع بن خليفة الغنوى :

رِجالٌ إذا لم يقبلِ الحق منهم   ويعطوهُ عاذَوا بالسُّيوفِ القواطِع(١)

فما تمت جودة المعنى إلا بقوله : يعطوه وإلا كان المعنى منقوص الصحة .

ومثل قول عمير بن الأيهم التغلبي :

بها نِلنا القَـرَائبَ من سـوانا   وأحرَزنا القرائبَ أن تنالا

والذى أكمل جودة هذا البيت قوله « وأحرزنا القرائب أن تنالا » مع أنهم نالوا القرائب من سواهم .

ومثله قول طرفة :

فَسقى دِيارَكِ غـيرَ مُفسـدِها   صوبُ الرَّبيع وديمـةٌ تَهمى(٢)

فقوله « غير مفسدها » إتمام لجودة ما قاله لأنه لو لم يقل غير مفسدها لعيب كما عيب ذو الرمة(٣) فى قوله :

ألا يا اسلمى يا دَارَ مىٌ على البِلى   ولا زالَ مُنهلاً بجرعائِك القَطرُ

---

(١) عاذوا : التجئوا

(٢) صواب الربيع : انصبابه . الديمة : المطر الدائم . تهمى : تسيل . غير مفسدها : تتميم واحتراس للديار من الهدم . وطرفة من الشعراء الجاهليين أصحاب المعلقات وأشهرهم واحدة مات عن ستة وعشرين ربيعا (٥٤٠ – ٥٦٦م) .

(٣) شاعر بدوي وصاف للطبيعة وبيئة البادية . توفى عام ١١٧هـ .

فإن الذى عابه في هذا القول إنما هو بأن نسب قوله هذا إلى أن فيه إفساداً للدار التى دعا لها ، وهو أن تعرف بكثرة المطر . ومثل قول مضرس ابن ربعى :

والمانعونَ إذا كانت ممانَعةٌ والمائذُون بحسناهم إذا قدِروا

ومثل قول عبيد الراعى :

لا خيرَ فى طولِ الإقامةِ للفتى إلا إذا ما لم يجد متحولاَ (١)

ومثل قول كعب بن سعد الغنوى :

حليمٌ إذا ما الحلم زَينَ أهلَه مع الحلمِ فى عين العدوِّ مهيب

ومثل قول الأسود بن يعفر :

ألاَ مَن لَامنى إلا صديق فلاقى صاحباً كأبى زِياد

ومثل قول حسان بن ثابت(٢) :

لم تفتها شمسُ النهار بشىء غير أنّ الشباب ليس يدومُ

ومثل قول أعشى باهلة :

لا يَصعب الأمر إلا ريثَ يركبه وكل أمرٍ سوى الفحشاء يأتمر (٣)

ومثل قول النمر بن تولب :

لقد أصبحَ البيض الغوانى كأنما يرين إذا ما كنتَ فيهن أجرَبا (٤)

---

(١) يحبب الشاعر فى السفر والتنقل . والراعى شاعر أموى مجيد . توفى عام ٩٠ هـ .

(٢) شاعر رسول الله توفى عام ٦٠ هـ ويروى أن وفاته عام ٥٤ هـ .

(٣) الريث : الإبطاء .

(٤) البيض الغوانى : النساء الحسان .

وكنتُ إذَا لاقيْتهن ببلدةٍ يَقلنَ على النكراء أهلا ومَرحبا

فقوله « على النكراء » أتمّ جودة المعنى وإلا فلو كانت بينهم معرفة لم ينكر أن يقلن له : أهلا ومرحبا .

٥ — ومن أنواع نعوت المعانى المبالغة

وهى أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال فى شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك فى الغرض الذى قصده ، فلا يقف حتى يزيد فى معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فى ما قصد ، وذلك مثل قول عمير بن الأيهم التغلبى :

ونكرمُ جارَنا ما دَامَ فينا ونتبعهُ الكرامةَ حيثُ سارا

فإكرامهم للجار ما كان فيهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة ، وإتباعهم الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل .

ومثل ذلك قول الحكم الخضرى :

وأقبَح من قردٍ وأبخلُ بالقرَى منَ الكلبِ وهوَ غرثانُ أعجفُ(١)

فقد كان يجزى في الذم أن يكون هذا المهجو أبخل من الكلب ، ومن المبالغة فى هجائه قوله « وهو غرثان أعجف » .

ومن هذا الجنس لدريد بن الصمة :

متى ما تدع قومك أدع قومى فيأتى من بنى جشمٍ فئامُ(٢)
فَوارِسُ بهُمَةٍ حُشُدٌ إذا ما بدَا حضرُ الحَيية والخذامُ(٣)

---

(١) القرى : الطعام . الغرثان : الجائع . الأعجف : النحيف الذى ذهب سمنه .

(٢) الفئام : الجماعة من الناس ودريد بن الصمة شاعر جاهلى أدرك الإسلام ولم يسلم ، وقتل فى حنين عام ٨ هـ .

(٣) البهمة : الجيش .

والمبالغة الشديدة في هذا الشعر هي في قوله الحيية :

ومنه للحكم الخضرى أيضاً :

فكن يا جارهم في خير دار فلا ظلم عليك ولا جفاء

فقوله « فلا ظلم عليك ولا جفاء » توكيد ومبالغة .

ومنه قول رواش بن تميم ، أحد الغطاريف ، الأزدى :

وإنا لنعطى النصف منا وإنا لنأخذه من كل أبلخ ظالم (١)

فهذه مبالغات مضاعفة مكررة .

ومنه قول مضرس(٢) :

بهم تمتري الحربُ العوانُ وفيهمُ تؤدى القروضُ حلوُها ومريرُها

فقوله « ومريرها » مبالغة .

وكذلك قول أوس بن غلفاء الهجيمى :

همُ تركوكَ أسلحَ من حُبارَى رأت صقراً وأشرَدَ من نَعام(٣)

٦ — ومن نعوت المعانى التكافؤ(٤)

وهو أن يصف الشاعر شيئا أو يذمه ويتكلم فيه ، أي معنى كان ، فيأتى بمعنيين متكافئين .

والذي أريد بقولى متكافئين فى هذا الموضع أى متقابلين إما من جهة

(٤) النصف : الحق كاملا . الأبلخ : المتكبر .
(١) مضرس شاعر حسن التشبيه والوصف ، وهو مخضرم (٣٩٠ معجم الشعراء ، ٢/ ٢٩٢ الخزانة) . تمترى الحرب : يشتد وطيسها .
(٢) الحبارى : طائر .
(٣) هو الطباق .

المصادرة أو السلب والإيجاب أو غيرهما من أقسام التقابل مثل قول أبي الشعب العبسي :

حلوُ الشمائلِ وهو مرٌّ باسلٌ   يحمى الذمارَ صبيحةَ الأرهان (١)

فقوله « مر وحلو » تكافؤ .

ومثل قول أم الضحاك المحاربية :

وكيفَ يساوي خالدًا أو ينالهُ   خميصٌ منَ التقوى بطينٌ من الخمرِ (٢)

فقوله خميص وبطين تكافؤ .

ومثل قول طرفة :

بطيءٌ إلى الجلَّى سريعٌ إلى الخنا   ذلولٌ بإجماع الرجال ملهَّدِ (٣)

فقوله « سريع وبطيء » تكافؤ .

ومثل قول زهير (٤) :

حلماء في النادِي إذا ما جئتهم   جُهلاء يومَ عجاجةٍ ولِقاء

فقوله « حلماء وجهلاء » تكافؤ .

ومثل قول حميد بن ثور :

فلم أرَ محزونًا له مِثلُ صوتِها   ولا عربيًّا شاقَهُ صوتُ أعجما

فقوله « عربي وأعجم » تكافؤ .

---

(١) الشمائل : جمع الشمأل : الطبع . الذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته .

(٢) الخميص : الضامر البطن . بطين من الخمر : أي كثير الشرب لها .

(٣) الجلى : الشيء العظيم . الخنا : الفحش . ملهد : مدفع يدفعه الناس .

(٤) زهير حكيم الشعراء في الجاهلية ومن النقاد من يضعه على رأس الشعراء الجاهليين، وكان من أسرة شاعرة ، وهو من أصحاب المعلقات . توفي نحو عام ١٣ ق.هـ .

ومثل قول الآخر :

بطاء عن الفحشاء لا يحضرونها   سراع إلى داعى الصبّاح المثوّب (١)

ومثل قول عباس بن مرداس :

مطهّم خلقه شثّا سنابكه   صملاً على أنّ في الجنبين أجفارا (٢)

فجعل صملا مكافئا لأجفار .

ومثل قول الفرزدق :

فتى السنّ كهلُ العلم قد عرفت له   قبائلُ ما بين الدنى وأبادِ (٣)

فقوله « فتى » مكافأة لقوله « كهل » .

وقال الفرزدق أيضا :

لعمرى لئن قلّ الحصى في رجالكم   بنى نهشل ما لؤمكم بقليل (٤)

فهذا ضرب من المكافأة من جهة السلب .

واستجاد الناس قول دعبل حين روى أنه قال :

لا تعجبى يا سلمَ من رجلٍ   ضحكَ المشيبُ برأسه فبكى (٥)

لأن ضحك وبكى مكافأة .

---

(١) بطاء عن الفحشاء : قليلو الإسراع إليها . داعى الصباح : المؤذن للفجر . المثوب : الداعى إلى الصلاة .

(٢) المطهم : كمعظم السمين الفاحش السمن . السنبك : طرف الحافر . الصمل : الطويل وقيل الدقيق الرأس والعنق . الجفر : ماعظم واستكرش يجمع على أجفار . وعباس شاعر صحابى جليل من المخضرمين .

(٣) فتى السن : صغير السن . كهل العلم : قديم فيه . الدنى وإباد : اسمان لموضعين تقطن بينهما تلك القبائل .

(٤) الحصى : العدد .

(٥) ضحك المشيب : أى اشتد بياض شعره . ودعبل شاعر عباسى مشهور توفى عام ٢٤٦ هـ .

وقد أتى المحدثون من التكافؤ بأشياء كثيرة ، وذلك أنه بطباع أهل التحصيل والروية في الشعر والتطلب لتجنيسه أولى منه بطباع القائلين على الهاجس(١) بحسب ما يسنح من الخاطر مثل الأعراب ومن جرى مجراهم(٢) على أن أولئك (٣) بطباعهم قد أتوا بكثير منه ، وقد قدمنا بعضه ، وما للمحدثين في ذلك [أكثر] مثل قول بشار (٤) :

إذا أيقظتك حروب العِدَى فَنبِّه لها عمراً ثمّ نَم

فـ « نَبِّهْ » « ونَمْ » تكافؤ .

وله أثر في تجويد الشعر قوى فإنه لو قال مثلا « فجرد لها عمرا » لم يكن لهذه اللفظة لـ « نَبِّهْ » من الموضوع مع نم .

٧ - ومن نعوت المعانى الالتفات

وهو أن يكون الشاعر آخذا في معنى ، فكأنه يعترضه إما شك فيه أوظن بأن رادا يرد عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه ، فيعود راجعا إلى ما قدمه فإما أن يذكر سببه ، أو يحل الشك فيه ، مثال ذلك قول المعطل في بني رهم من هذيل :

تبينُ صلاةُ الحـرب منّا ومنهُم إذا ما التقَينَا والمسالم بادِنُ (٥)

فقوله بادن » رجوع عن المعنى الذى قدمه ، حين بين أن علامة صلاة الحرب أن المسالم يكون بادنا والمحارب ضامرا .

---

(١) أى على القريحة فهو عند أصحاب الصنعة أكثر منه عند أصحاب الطبع .
(٢) ممن هم من أصحاب الطبع .
(٣) أى أصحاب الطبع .
(٤) زعيم المحدثين توفى عام ١٦٧ هـ .
(٥) البادن : السمين

وقول الرماح بن ميادة :

فلا صَرمهُ يَبدُو وفي اليأسِ راحة   ولا وصلهُ يَبدُو لَنا فَنُكارِمُهْ (١)

فكأنه [وهو] يقول « وفي اليأس راحة » التفت إلى المعنى لتقدير أن معارضا يقول له ما تصنع بصرمه ؟ فقال لأن في اليأس راحة .

ومن هذا الجنس قول عبيد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

أجمِل إذا ما كنت لابدّ مانِعاً   وقد يَمنعُ الشيءَ الفتى وهوَ مجمِلُ (٢)

ومنه قول امرىء القيس :

يا هل أتاك وقد يحدِثُ ذو الودِّ القديم متمة الذَّحلِ (٣)

فكأنه لما قال « أتاك » وكان المعنى مسرعين مظهرا وهم أن المخاطب يقول له : كيف يبلغني فقال وقد يحدث ذو الود القديم متمة الذحل .

وقول طرفة :

وتَكفُّ عنكَ مَخيلةَ الرجلِ العرِّيضِ موضحة عنِ العظمِ (٤)

بحُسامِ سَيفِكَ أو لِسانِك والكلمُ الأصيلُ كأرغبِ الكَلمِ (٥)

فكأنه لما بلغ بعد « حسام سيفك أو لسانك » قدر أن معترضا يعترضه فيقول كيف يكون مجرى السيف واللسان واحدا فقال : والكلم الأصيل كأشد الجراح وأكثرها اتساعا .

---

(١) صرمه : الصرم القطع .

(٢) أجمل : أحسن وتلطف في المنع . والرماح بن أبرد واسم أمه ميادة : شاعر فصيح من مخضرمي الدولتين ، وكان جيد الغزل . توفي عام ١٤٩ هـ (٢/٨٥ ـ ١١٦ الأغاني ١١/١٤٣ ـ ١٤٨ معجم الأدباء ، ١/٧٧ الخزانة) .

(٣) الذحل : الثأر .

(٤) تكف : ترد وتمنع ويروى تصد العريض : كالكميت الذي يتعرض للناس بالشر .

(٥) الحسام : السيف القاطع .

ومنه قول جرير بن ربعان :

معازيلُ الهيجاء ليسوا بزادةٍ مجازيعُ عند اليأس والحرُّ يَصبر(١)

ففي قوله « والحر يصبر » التفات إلى أول كلامه .

* * *

وقد يضع الناس في باب أوصاف المعاني الاستغراب والطرافة بأن يكون المعنى مما لم يسبق إليه ، وليس عندي أن هذا داخل في الأوصاف لأن المعني المستجاد إذا كان في ذاته جيدا فإما أن يقال له جيد إذا قاله شاعر من غير أن يكون تقدمه من قال مثله ، فهذا غير مستقيم بل يقال لما جرى هذا المجرى طريف وغريب إذا كان فرداً قليلا فإذا كثر لم يسم بذلك وغريب وطريف هما شيء آخر غير حسن أو جيد لأنه قد يجوز أن يكون حسن جيد غير غريب ولا طريف فمثل تشبيههم الدروع بحباب الماء الذي تسوقه الرياح فإنه ليس جودة هذا التشبيه تعاور الشعراء إياه قديما أو حديثا .

وأما طريف وغريب لم يسبق إليه وهو قبيح بارد فملء الدنيا مثل أشعار قوم من المحدثين سبقوا إلى التردي فيها .

والذي عندي في هذا الباب أن الوصف فيه لاحق بالشاعر المبتدىء بالمعنى الذي لم يسبق إليه لا إلى الشعر ، إذ كانت المعاني مما لا يجعل القبيح منها حسنا لسبق السابق إلى استخراجها ، كما لا يجعل الحسن قبيحا الغفلة عن الابتداء .

وأحسب أنه اختلط على كثير من الناس وصف الشعر بوصف الشاعر فلم يكادوا يفرقون بينهما ، وإذا تأملوا هذا الأمر نعمًا علموا أن الشاعر موصوف بالسبق إلى المعاني واستخراج ما لم يتقدمه أحد إلى استخراجه ، لا الشعر .

---

(١) معازيل : جمع مفرده معزال وهو من لا رمح معه . الهيجاء : الحرب .

ولنتبع بذكر المعانى وهو القسم الرابع من أقسام الشعر المفردات ذكر الأربعة المركبات التى قدمنا القول فيها في أول الكتاب .

ولنبدأ بأولها وهو :

١ — نعت ائتلاف اللفظ مع المعنى

من أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى :

المساواة :

وهو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتي لا يزيد عليه ولا ينقص عنه ، وهذه هى البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلا ، فقال : كانت ألفاظه قوالب لمعانيه أي هى مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر .

وذلك مثل قول امرئ القيس :

فإن تكتمُوا الداء لا نخفِهِ ... وإن تَبعَثوا الحربَ لا نَقعُدِ(١)

وإن تَقتُلونا نُقتِّلكم ... وإن تَقصدوا الدَّم لا نَقصدِ(٢)

ومثل قول زهير :

ومهما يكن عند امرئٍ منْ خليقةٍ ... وإن خالَها تخفى على الناسِ تُعلَمِ(٣)

ومثل قوله :

---

(١) لا نخفه : لا نظهره ، أى اذا دفنتم ما بيننا من فتن لانثيرها نحن . وإن تبعثوا الحرب لا نقعد ويروى لانقعد . والمعنى أنكم اذا أثرتم الحرب ثرنا بها ولا نقاعد .

(٢) وإن تقصدوا الخ أى أردتم حقن الدماء لا نخالفكم فى ذلك .

(٣) الخليقة : الطبيعة . والمعنى أن من كتم خليقته على الناس وظن أنها تخفى عليهم فلابد أن تظهر .

إذا أنتَ لم تَرْحلْ عن الجهلِ والخنَا ... أصبتَ حليما أو أصابكَ جاهلُ(١)

ومثل قوله :

سعَى بعدَهم قومٌ لكى يُدركوهم ... فلم يُدركوا ما أدركوهُ ولم يَألوا(٢)

ومثل قول طرفة :

لعَمْرُكَ إن الموتَ ما أخطأ الفتَى ... لَكالطِّول المرْخى وثنْيَاهُ باليدِ(٣)

ستُبدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيك بالأخبارِ مَن لم تُزوِّدِ(٤)

ومثله قول خالد بن زهير بن أخى أبى ذؤيب الهذلى :

فلا تجزَعنْ من سنَّةٍ أنت سِرتَها ... فأوّلُ راضٍ سُنةً مَن يَسيرُها(٥)

ومثل قول ليلى الأخيلية :

فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوب إنما ... لِقاء المنَايا دارِعًا مِثل حاسِرِ(٦)

ومن أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى :

الإشارة :

وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بإيماء إليها ،

---

(١) ترحل : تبعد . الخنا : الفحش . هذا وزهير من أشعر الشعراء الجاهليين ، ومن أصحاب المعلقات وشهر بالحوليات وبالحكمة . توفى نحو ١٣ ق . هـ (١/٣٧٥ الخزانة - الشعر والشعراء - الأغانى) .

(٢) سعى بعدهم قوم الخ أى تقدم هؤلاء فى المجد والشرف وعلو المنزلة وسعى على آثارهم قوم آخرون لكى يدركوهم فلم يمكنهم .

(٣) لعمرك : بفتح العين أقسم بحياتك ان الموت لا يخطىء الفتى . الطول : الحبل . ثنياه : طرفاه .

(٤) ستبدى : ستظهر .

(٥) سنة : طريقة وعمل .

(٦) توب : ترخيم (توبة) وهو توبة الخفاجى المتوفى عام ٦٧ هـ وكان يهيم حبا بليلى وتوفيت ليلى بعده عام ٨٠ هـ .

أو لمحة تدل عليها كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة فقال : هي لمحة دالة .

ومثل ذلك قول امرئ القيس :

فإنْ تَهلِكْ شنوءة أو تبدَّلْ فسيرى إنَّ في غَسّانَ خالاَ
لِعزِّهِمُ عَزَزْتَ وإن يَذِلُّوا فَذُلُّهُمُ أنالكَ ما أنالاَ

فبينة هذا الشعر على أن ألفاظه مع قصرها قد أشير بها إلى معان طوال ، فمن ذلك قوله « تهلك أو تبدل » ، ومنه قوله « إن في غسان خالا » ، ومنه ما تحته معان كثيرة وشرح وهو قوله « أنالك ما أنالا » .

ومثل قول طرفة :

مَوْضوعُها زولٌ ومَرفوعها مرعابُ لجب وسَط الرِّيح

فقوله « زول » مُشارٌ به إلى معان كثيرة وهو شبيه بما يقول الناس في إجمال نعت الشيء واختصاره ، عجب .

وقال آخر :

هاجَ ذا القلبِ من تذكُّرِ جُمْلٍ ما يُهيِّجُ المتيَّمَ المحزُونا

فقد أشار هذا الشاعر بقوله « ما يهيج المتيم المحزونا » إلى معان كثيرة .

ومثل قول امرئ القيس :

على هَيكلٍ يُعطيكَ قبلَ سؤالِهِ أفانينَ جَرْى غيرَ كزٍّ ولا وانِى(١)

فقد جمع بقوله « أفانين » جرى على ما لو عد لكان كثيراً ، وضم إلى

(١) على هيكل : فرس طويل جميل ذو روعة . أفانين : ضروب . غير كز : ليس بالمنقبض . ولا وان : غير فاتر .

ذلك أيضا جميع أوصاف الجودة فى هذا الفرس ، وهو قوله « قبل سؤاله » أى يذهب في هذه الأفانين طوعا من غير حث ، وفي قوله « كز ولا وانى » ينفى عنه أن يكون معه الكزازة من قبل الجماح والمنازعة والونى من قبل الاسترخاء والفترة .

ومثله أيضا قوله يصف ذئبا :

فَظَلَّ كَمِثْلِ الخِشْفِ يَرفعُ رَأسَهُ وسائرُه مِثلَ الترابِ المدَقَّقِ(١)

وجاء خَفِيًّا يَسفِنُ الأرضَ بطنُه ترَى التُّربَ منه لازِقا كل مَلزَقِ(٢)

فى هذا الشعر إجمال المعانى كثير ، وأوكد ما فيه من ذلك قوله « كل ملزق » .

ومثل قول زهير :

فإني لوْ لَقِيتُكَ واتجَهنَا لكان لِكلّ مُنكَرَة كفاء(٣)

ومثل قول أوس بن حجر :

فإنْ يَهوَ أقوامٌ رِدائِي فإنّنى يَقيني الإلهُ ما وَقَى ورِدائِيا

ومثل قول قتادة بن طارق الأزدى :

أهاجكَ ربعٌ قد تحمّل حاضره وأوحش بعد الحيّ منه مناظِره

---

(١) الخشف : مثلثة ولد الظبي أول مايولد . مثل التراب : للصوقه بالأرض .

(٢) يسفن الأرض : يقشر الأرض ببطنه . لازقا كل ملزق . ويروى لاصقا كل ملصق. هذا وامرؤ القيس زعيم الشعراء الجاهليين ومن أصحاب المعلقات وأول من تفتح به صفحة الشعر والشعراء فى اللغة العربية .

(٣) منكرة : خبيثة . كفاء : أى شىء يكافئه .

يقول : ما تنظر إلى موضع منه إلا ذكرت فيه من الأنس ممن كان يحله ما قد أوحش في هذا الوقت بخلوه منه .

وللعامرية :

كيف الفَخارُ وقد صارُوا لِنسوَتِكم يَومَ الفَخار بَنُو ذَبيَانَ أرْبابَا
إذ جزَّ ناصِيتي حصنٌ وأعتقني وذاكَ شيَّبَ مني اليوْمَ ما شابا

ولامرئ القيس :

فَظلَّ لنا يَوْمٌ لذيذٌ بنِعمَةٍ فَقَلْ في مقيل نحسُهُ متَغَيبُ

ولامرأة من عكل :

يا ابنَ الدَّعيِّ إنها عكلٌ فَقِفْ لَتَعلَمَنَّ اليوْمَ إن لم تَنصرِف(١)
أنَّ الـكريمَ واللئيمَ يختلفْ

ومن أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى :

الإرداف(٢) :

وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعانى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معني هو ردفه وتابع له ، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع بمنزلة قول الشاعر(٣) :

بَعيدةُ مَهوَى القرْطِ إما لِنَوْفَلٍ أبوها وإما عبدُ شمسٍ فهاشمُ(٣)

وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به ، بل

---

(١) العكل : بالـكسر والضم اللئيم وجمه أعكال .
(٢) يريد به الـكناية .
(٣) ... ربيعة المخزومى المتوفى عام ٩٣هـ . بعيدة مهوى القرط : طويلة العنق .

أنى يعني هو تابع لطول الجيد ، وهو بعد مهوى القرط .

ومثله قول امرئ القيس :

ويُضحى فَتيتُ المسكِ فَوقَ فِراشِها   نؤومُ الضُّحى لم تَنتَطِقْ عن تَفَضُّلِ (١)

وإنما أراد امرؤ القيس أن يذكر ترفه هذه المرأة وأن لها من يكفيها فقال : « نؤوم الضحى » وأن فتيت المسك يبقى إلى الضحى فوق فراشها ، وكذلك سائر البيت ، أي هي لا تنتطق لتخدم ولكنها في بيتها متفضلة ، ومعنى عن هذا البيت معني بعد كذلك قوله :

وقد أغتَدِي والطيرُ في وُكُناتِها   بِمُنجَرِدٍ قَيدِ الأوابِدِ هَيكَلِ (٢)

فإنما أراد أن يصف هذا الفرس بالسرعة وأنه جواد فلم يتكلم باللفظ بعينه ولكن بأردافه ولواحقه التابعة له ، وذلك أن سرعة إحضار الفرس يتبعها أن تكون الأوابد وهي الوحوش كالمقيدة له إذا نحا في طلبها ، والناس يستجيدون لامرئ القيس هذه اللفظة فيقولون هو أول من قيد الأوابد ، وإنما عنى بها الدلالة على جودة الفرس وسرعة حضره ، فلو قال ذلك بلفظه لم يكن عند الناس من الاستجادة ما جاء من إتيانه بالردف له ، وفي هذا برهان على أن وضعنا الإرداف من أوصاف الشعر ونعوته واقع بالصواب .

---

(١) الفتيت : ما تفتت من المسك عن جلدها . نؤوم الضحى : التى تنام فى وقت الضحى لأن لها من الخدم والحشم من يكفيها ويقوم بلوازم بيتها . لم تنتطق : لم تجعل فى وسطها نطاقا للعمل فى البيت .

(٢) المغتدى : أسير غدوة   الوكنات جمع وكنة بضم فسكون وهي عش الطائر . المنجرد : الماضى فى السير وقيل هو القليل الشعر . الأوابد : الوحوش النافرة وقيد الأوابد : مبالغة فى سرعة العدو : الهيكل : الضخم من كل شيء ويوصف به الفرس الطويل وامرؤ القيس أول من قيد الأوابد وأشعر الشعراء فى وصف الفرس .

ومنه قول ليلى الأخيلية(١) :

ومخرق عنه القميص تخاله ... بين البيوت من الحياء سقيما

فإنما أرادت وصفه بالجود والكرم فجاءت بالأرداف والتوابع لهما أما ما يتبع الجود فإن «مخرق عنه القميص» المنعوت فسر أن العفاة تجذبه فتخرق قميصه من مواصلة جذبهم إياه ، وأما ما يتبع الكرم فالحياء الشديد الذي كأنه من إماتة نفس هذا الموصوف وإزالته عنه الأشر يخال سقيما .

ومنه أيضاً قول الحكم الخضري :

قد كان يعجب بعضهن براعتي ... حتى سمعن تنحنحي وسعالي

فأراد وصف الكبر لا باللفظ بعينه ولكنه أتى بتوابعه وهي السعال والتنحنح.

* * *

ومن هذا النوع ما يدخل في الأبيات التي يسمونها أبيات المعاني ، وذلك إذا ذكر الردف وحده وكان وجه اتباعه لما هو ردف له غير ظاهر أو كانت بينه وبينه أرداف أخر كأنها وسائط وكثرت حتى لا يظهر الشيء المطلوب بسرعة إذا غمض ، ولم يكن داخلا فى جملة ما ينسب إلى جيد الشعر إذ كان من عيوب الشعر الانغلاق وتعذر العلم بمعناه .

ومن نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى :

التمثيل :

وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معني

---

(١) شاعرة عاشت العصر الإسلامى ، وشبب بها توبة الخفاجى (المتوفى عام ٦٧ هـ) وتوفيت عام ٨٠ هـ .

آخر وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه .

ومثال ذلك قول الرماح بن ميادة(١) :

أَلَم تَكُ في يُمنى يَديكَ جَعلتني   فلا تَجعلنِّي بعدها في شِمالكا
ولوْ أنني أذنبْتُ ما كنتُ هالكا   على خِصلةٍ مِن صالحاتِ مهالكا

فعدل أن يقول في البيت الأول إنه كان عنده مقدما فلا يؤخره ، أو مقربا فلا يبعده ، أو مجتبي فلا يجتنبه ، إلى أن قال : إنه كان في يمنى يديه فلا يجعله في اليسرى ، ذهابا نحو الأمر الذي قصد الإشارة إليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل له ، والإبداع في المقالة ؛ وعلى ذلك قول عمير بن الأيهم :

راحَ القطينُ من الأوطانِ أو بكَروا   وصدَّقوا من نهارِ الأمسِ ما ذكَروا(٢)
قالوا لنا وعرَفنا بعْدَ بَينهم   قَوْلاً فما ورَدُوا عنه وما صدَروا(٣)

فكان يستغني عن قوله « فما وردوا عنه وما صدروا » بأن يقول : فما تعدوه أو يقول : فما تعدوه أو فما تجاوزوه ، ولكن لم يكن له من موقع الإيضاح وغرابة المثل ما لقوله « فما وردوا عنه ولا صدروا » .

ومن هذا قول بعض بني كلاب :

دع الشرَّ واحلُلْ بالنَّجاةِ تعزُّلاً   إذا هو لم يَصْبُغكَ في الشرِّ صابغ(٤)

---

(١) أمه أم ولد بربرية وهو شاعر من شعراء مخضرمي الدولتين وكان جيد الغزل، توفي عام ١٤٩ هـ (٢/٨٠ـ ١١٦ الأغاني ـ ١١/١٤٣ـ١٤٨ معجم الأدباء ـ ٥ـ١٠٥ـ١٠٩ طبقات الشعراء لابن المعتز) .

(٢) القطين : المقيمون من الأحباب . ماذكروا : من العزم على الرحيل .

(٣) البين : الفرقة .

(٤) تعزلا: تنحيا على جنب .

ولكنْ إذا ما الشَّرُّ ثارَ دفينه　　عليكَ فانضجْ منه ما أنتَ دابغ(١)

فأكثر اللفظ والمعنى في هذين البيتين جار على سبيل التمثيل ، وقد كان يجوز أن يقال مكان ماقيل فيه : دع الشر ما لم تنشب فيه فإذا نشبت فيه فبالغ ولكن لم يكن لذلك من الحظ في الكلام الشعري والتمثيل الظريف ما لقول الكلابي

ومن هذا قول الآخر :

تركتُ الركابَ لأربابها　　وأكرهتُ نفسي على ابن الصَّعقْ

جعلتُ يَديَّ وشاحاً له　　فأجزأ ذاكَ عن المعتنق

قوله «جعلت يدي وشاحا» إشارة بعيدة بغير لفظ الاعتناق وهي دالة عليه .

ومنه قول يزيد بن مالك الغامدي :

فإنْ أسمعوا ضَبْحاً زَأرنا فلم يكن　　شبيهاً بزَأرِ الأُسدِ ضبح الثعالب

فقد أشار إلى قوتهم وضعف أعدائهم إشارة مستغربة لها من الموقع بالتمثيل ما لم يكن لو ذكر الشيء المشار إليه بلفظ .

ومثل ذلك قول عبد الرحمن بن علي بن علقمة بن عبدة :

أوردتهم وصدورُ العيسِ مُسْنِفةٌ　　والصبح بالكوكبِ الدُّرِّيِّ مَنحور(٢)

فقد أشار إلى الفجر إشارة ظريفة بغير لفظه .

وكذلك قول اللعين المنقري يصف ناره :

---

(١) الدفين : الخفي .

(٢) العيس : بالكسر الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . مسنفة : بفتح النون خاص بالبعير يقال أسنف البعير قدم عنقه للسير .

رأى أُم نيران عوانًا تـكفُّها بأعرافها هُوج الرِّياح الطرائِدِ(١)

فقد أومأ بقوله « أم نيران » إلى قدمها و « عوانًا » إلى كثرة عادته لإيقادها إيماء غريبًا ظريفا وإن كانت العرب تذكر ذلك فى النار كثيراً .

وقال بعض الأعراب :

فتى صدَمَته الـكاسُ حتى كأنما به فالجٌ من دائها فهو يرعش

فالـكأس لا تصدم ، ولـكنه أشار بهذا التمثيل إشارة حسنة إلى سكره .

وقال عباس بن مرداس(٢) :

كانوا أمام المسلمينَ رَديئةً والبيضُ يومئذٍ عليهم أشمسُ

يريد أن البيض عليهم قد صارت شموسا .

* * *

وقد يضع الناس من صفات الشعر المطابق والمجانس وهما داخلان فى باب ائتلاف اللفظ والمعنى ، ومعناهما أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت فى لفظة واحدة وألفاظ متجانسة مشتقة ، فأما المطابق فهو ما يشترك فى لفظة واحدة بعينها مثل قول زياد الأعجم .

ونُبِّئْتُهم يستنصِرُون بكاهِلٍ وللؤم فيها كاهلٌ وسَنَام

وقال الأفوه الأزدى :

واقطـع الهوْجَل مستأنسا بهوجَل عِيسدانةٍ عَنتريس(٣)

---

(١) الهوجاء الريح التى تقلع البيوت والجمع هوج وقال ابن الأعرابى هى الشديدة الهبوب من جميع الرياح .

(٢) شاعر صحابى جليل وهو من المخضرمين .

(٣) العنتريس : الناقة الغليظة الوثيقة .

فلفظة الموجل في هذا الشعر واحدة قد اشتركت في معنيين ، لأن الأول يعني الأرض والثاني الناقة .

وكذلك قول أبي دؤاد الإيادي :

عَهِدت لهـا مَنزِلاً دائراً وإلا على المـاء يحمِلنَ إلا

فالإلا الأولى في المعنى غير الثاني لأن الأول أعمدة الخيام ، والثاني من السراب .

وأما المجانس فأن تكون المعاني اشتراكها في ألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق ، مثل قول زهير:

كأنَّ عيني وقد سالَ السليلُ بهم وَجيرة ماؤهمُ لو أنهمْ أم(١)

ومثل قول العوام في يوم العظالى :

وفاضَ أسيرَاها بهِ وكأنما مَفَارِقُ مَفرُوق تَغشَّيْنَ عندمَا

ومثل قول حيان بن ربيعة الطائي :

لقدْ عَلِمَ القبائلُ أن قَومى لهم حدٌّ إذا لبسَ الحديدُ

ومثل قول الفرزدق :

جَفافُ أجفَّ اللهُ منه سَحابةَ وأوسَعَهُ من كلّ سافٍ وحاصبِ(٢)

ومثل قول الكميت :

---

(١) السليل : واد بعينه وماعنا زائدة . الأمم : القصد والقرب . وجواب لو محذوف .

(٢) سفت الريح التراب تسفيه ذرته ، والفرزدق : شاعر العصر الأموي وناقض جريراً طول حياته ، وكان يقال : لولا الفرزدق لذهب ثلث العربية — توفي عام ١١٠ هـ .

فقل لجـذام قد جذمتم وَسيله ... إلينَا كمختارِ الرَّداف على الرَّحل(١)

ومثل قول مسكين الدارمي :

وأقطَع الِخرق بالخرقاءِ لاهية ... إذا الـكواكبُ كانت في السَّما سُرُجا

وكما قال النعمان بن بشير لمعاوية بن أبي سفيان :

ألم تَبْتَدِرْكمْ يومَ بدرٍ سُيوفُنَا ... وليلكَ عما نابَ قومكَ نائمُ

وقال ذو الرمة :

كأن البُرىَ والعَاج عيجت مُتُونه ... على عشر نهى به السَّيل أبطَح(٢)

وقال رجل من بنى عبس :

إن ذَلَّ جارِكم بالـكُرْهِ حالفكُمُ ... وإنَّ أنفكمُ لا يَعرفُ الأنفَا

وقال المرار :

وأعطاني أن أرَى زائراً ... واختلاف الحيُّ قوماً خلوفَا

---

(١) الـكميت بن زيد الأسدى شاعر الشيعة توفى عام ١٢٦ هـ ـ الرداف : بوزن كتاب : الموضع يركبه الرديف .

(٢) البرى : الخلاخيل ـ وذو الرمة شاعر أموى مجيد ـ توفى عام ١١٧ هـ .

نعت ائتلاف اللفظ والوزن

وهو أن تكون الأسماء والأفعال فى الشعر تامة مستقيمة كما بنيت لم يضطر الأمر فى الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة عليها والنقصان منها ، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال والمؤلفة منها وهى الأقوال على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها ، ولا اضطر أيضا إلى إضافة لفظة أخرى يلتبس المعنى بها ، بل يكون الموصوف مقدما والصفة مقولة عليها ، وغير ذلك مما لو ذهبنا إلى شرحه لاحتجنا إلى إثبات كثير من صناعتى المنطق والنحو فى هذا الكتاب ، فكان يصعب النظر فيه على أكثر الناس ، ولكن فى ما أجملته فى هذا القول وأشرت إليه من التنبيه على الطريق التى يعرف بها جودة هذا الباب ما كفى ، وأغنى عند ذوي القرائح السليمة ، ومن قد تعلق ببعض الآداب السهلة .

ومن هذا الباب أيضا أن لا يكون الوزن قد اضطر إلى إدخال معنى ليس الغرض فى الشعر محتاجا إليه ، حتى إذا حذف لم تنقص الدلالة لحذفه أو إسقاط معنى لا يتم الغرض المقصود إلا به ، حتى إن فقده قد أثر فى الشعر تأثيراً بان موقعه . ولم آت فى هذا الباب بأمثلة لأن كل شعر سليم ، مما ذكرت ، مثال لذلك ، وأما الأشعار التى (لم) تسلم منه فأنا أذكرها فى باب عيوب الشعر إن شاء الله تعالى .

نعت ائتلاف المعنى والوزن

هو أن تكون المعاني تامة مستوفاة لم تضطر بإقامة الوزن إلى نقصها عن الواجب ولا إلى الزيادة فيها عليه ، وأن تكون المعانى أيضا مواجهة للغرض لم تمتنع عن ذلك وتعدل عنه من أجل إقامة الوزن والطلب لصحته ، والسبب فى تركنا أن نأتى لهذا الجنس بأمثلة من الشعر هو السبب في تركنا ذلك فى باب ائتلاف اللفظ مع الوزن ، ونحن نذكر ما يجب ذكره من أمثلة عيوب هذا الباب في جملة ما سنذكره من عيوب الشعر .

نعت ائتلاف القافية

أهو مع ما يدل عليه سائر البيت أن تكون القافية متعلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له وملاءمة لما مر فيه .

فمن أنواع ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر معنى البيت :

التوشيح :

وهو أن يكون أول البيت شاهداً بقافيته ومعناها متعلقا به حتى إن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته .

مثال ذلك قول الراعي(١):

وأن وزنَ الحصَى فوَزنتُ قَومي   وَجدتُ حصَى ضريبتهم رَزِينَا

فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت استخرج منها لفظة قافيته ، لأنه يعلم أن قوله وزن الحصى سيأتي بعده رزين لعلتين :

أحدهما : أن قافية القصيدة توجبه .

والأخرى : أن نظام المعنى يقتضيه لأن الذي يفاخره برجاحة الحصى يلزمه أن يقول في حصاه إنه رزين .

وقول عباس بن مرداس :

هم سودُوا هجنا وكُل قبيلَةٍ   يبين عن أحسابِهاَ مَن يَسُودها

فمن تأمل هذا البيت وجد أوله يشهد بقافيته .

---

(١) من شعراء العصر الأموي المجيدين وكان قوله كله يذهب في البديع كما يقول الجاحظ في البيان والتبيين ـ توفي عام ٩٠ هـ .

وقول نصيب (١) :

فقد أيقَنْتُ أن ستَزولَ لَيلى ... وتُحجَبَ عنكَ إنْ نَفعَ اليَقين

وقول مضرس بن ربعى :

تمَنَّيتُ أن ألقى سَليما ومالكا ... على ساعةٍ تُنسى الحليم الأمانيا

ومن أنواع ائتلاف القافية مع سائر معنى البيت :

الإيغال :

وهو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فى ما ذكره صنع ثم يأتى بها لحاجة الشعر فيزيد بمعناها فى تجويد ما ذكره من المعنى فى البيت كما قال امرؤ القيس :

كأنَّ عيونَ الوحشِ حَولَ خِبائنَا ... وأرحلنَا الجَزْعُ الذى لم يُثقَّب (٢)

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملا قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش شبيهة به ثم لما جاء بالقافية أوغل بها فى الوصف ووكده وهو قوله «الذى لم يثقب» فإن عيون الوحش غير مثقبة وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه .

وقال زهير :

كأنَّ فُتَاتَ العِهْنِ فى كلِّ منزِلٍ ... نزَلت به حَبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ (٣)

(١) نصيب شاعر أموى مشهور توفى عام ١٥٥ هـ — ونصيب الأصغر شاعر من مخضرى الدولتين توفى عام ١٧٥ هـ .

(٢) الجزع : بكسر الجيم وفتحها الخرز اليمانى الصينى فيه سواد وبياض قد شبهت به العيون .

(٣) الفتات : ما تفتت من الشيء . وزهير من أعلام الشعراء الجاهليين ، وكان حكيم الشعراء فى الجاهلية — توفى نحو عام ١٣ هـ (الخزانة ١/٣٧٥ ، الشعر والشعراء ١/٨٦ — ١٠٣ ، وغيرها) .

فالعهن هو الصوف الأحمر ، والفنا حب تنبته الأرض أحمر فقد أتى على الوصف قبل القافية لكن حب الفنا إذا كسر كان مكسره غير أحمر فاستظهر فى القافية لما أن جاء بها بأن قال «لم يحطم» فكأنه وكد التشبيه بإيغاله فى المعنى .

ومثله :

إذا ما جَرى شأوَين وابتَل عطفُهُ ... تقولُ هَزيزُ الرِّيح مرّتْ بأثابِ (١)

فقد تم الوصف والتشبيه قبل القافية لأنه يكفي أن يشبه حفيف جرى الفرس بالريح ، فلما أتى بالقافية أوغل إيغالا زاد به فى المعنى ، وذلك أن الآثاب شجر الريح فى أغصانه حفيف شديد . ومما يدل على أن المعانى قد كانت فى نفوس الناس قديمًا أن أبا العباس محمد بن يزيد النحوى (٢) قال حدثنى الثوزى قال قلت للأصمعى : من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتى إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيراً أو إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت نحو من ؟ قال: نحو ذى الرمة حيث يقول :

قِف العيسَ فى أطلالِ مية فاسألِ ... رُسُوماً كأخلاقِ الرداء المسَلسَلِ (٣)

فتم كلامه قبل المسلسل ثم قال المسلسل فزاد شيئا ثم قال :

أظن الذى يُجدى عليكَ سُؤالَهَا ... دُموعاً كتبديدِ الجُمَان المفصّل (٤)

فتم كلامهم ثم احتاج إلى القافية فقال « المفصل » فزاد شيئا ، قال قلت : ونحو من ؟ قال : الأعشى حيث قال :

---

(١) الشأو : الأمد والمسافة : هزيز الريح : صوته ودويه والبيت لأمرىء القيس

(٢) هو المبرد صاحب الكامل توفى عام ٢٨٥ ه .

(٣) العيس : بالكسر الإبل الأبيض يخالط بياضها شقرة .

(٤) الجمان : اللؤلؤ .

كناطِحٍ صَخرةً يَومًا لِيَفلِقَهَا ... فلمْ يَضِرْها وأَوْهى قَرنَهُ الوَعِلُ(١)

فتم مثله إلى قوله « قرنه » ثم احتاج إلى القافية فقال « الوعل » مفضلا على كل ما ينطح ، قال : كيف ؟ قال : لأنه ينحت من قلة الجبل على قرنه فلا يضره .

---

(١) ليفلقها : يروى ليوهنها . الوعل : تيس الجبل والأعشى هو أبو بصير ميمون ابن قيس توفى عام ٧هـ (الأغانى ٨/٧٤ــ٨٢ ــ المؤتلف ١٢ ــ الخزانة ١/ ٨٣ الشعر والشعراء ١/٢١٢ــ٢٢٣ ــ معجم الشعراء ٤٠١ و٤٠٢ ــ رغبة الأمل ٤/٧٠ ــ معاهد التنصيص ١/١٩٦) .

الفصل الثالث

وإذ قد أتيت على ما ظننت أنه نعت للشعر وعددت أجناس ذلك وفصلت أنواعه ، فالآن أحب أن أبتدئ بذكر عيوب الشعر وأذكر أجناس ذلك على الترتيب الذي رتبت النعوت عليه وبحسب تلك السياقة .

عيوب اللفظ

أن يكون ملحونا وجاريا على غير سبيل الإعراب واللغة ، وقد تقدم من استقصى هذا الباب ، وهم واضعو صناعة النحو، وأن يرتكب الشاعر فيه ما ليس ليس يستعمل ولا يتكلم به إلا شاذا ، وذلك هو الحوشي الذي مدح عمر بن الخطاب زهيراً بمجانبته له وتنكبه إياه فقال : كان لا يتتبع حوشي الكلام .

وهذا الباب مجوز للقدماء ليس من أجل أنه حسن لكن من شعرائهم من كان أعرابيًا قد غلبت عليه العجرفة ومست الحاجة إلى الاستشهاد بأشعارهم في الغريب ، ولأن من كان يأتي منهم بالحوشي لم يكن يأتي به إلا على جهة التطلب والتكلف ، لما استعمله منه لكن بعادته ، وعلى سجية لفظه ، فأما أصحاب التكلف لذلك فهم يأتون منه بما ينافر الطبع وينبو عنه السمع مثل شعر أبي حزام غالب بن الحارث العكلي، وكان في زمن المهدى وله في أبي عبيدالله قصيدة أولها :

تذكرْتُ سَلمَى وإهلاسَهَا فَلَمْ أَنْسَ والشَّوْقُ ذُو مَطْرُوه(١)

وفيها يقول :

لحَيٌّ الوزيرَ إمامَ الهُدَى وهو بالأربِ ذُو مَحْجُوَه(٢)

---

(١) راجع القصيدة فى الموشح للمرزبانى ص ٣٥٤ .

(٢) لحى بالارب . الموشح .

يَسوسُ الأُمورَ فتأبى لَهُ ... وما في عَزِيمَتِهِ مَنهُوَه
وَفى بالأمانَةِ صَفوَ التقى ... ومَا الصفوَ بالرَّنْقِ المَخْمُوَه
وعِندَ معاوية المصطفى ... حيًّا غيرُ ماجٍ ولاَ مَطْرُوَه
فقَالَ الوزيرُ الأمينُ انظُموا ... قريضًا عويصًا على اللؤلُوَه
فقَيَّدْتُ مرتفِقًا وَحيَه ... بغيرِ انصبابٍ إلى المشكُوَه
سَفيدى من الحقِّ ذو فِطنَةٍ ... مَعِى فى العواقِب والمبدُوَه
بيوتًا علىَّ لهَا وجهَةٌ ... بغيرِ السِّنَادِ ولا المكْفُوَه

ومثل شعر أحمد بن جحدر الخراساني فى مالك بن طوق ، ويقال إنها لمحمد بن عبد الرحمن العربي الكوفى فى عيسى الأشعرى :

هَيَا منزِلَ الحيِّ حيثُ الفَضَا ... سَلامُكَ إنَّ النَّوى تَصرِمُ
وَيَاطَلاً آيَة مَا ارتَمَت ... بليلاكَ غُرْبَتُهَا المرجَمُ
حلَفتُ بمَا أرقلَت نحوَه ... هَمَرجَلَةٌ خلقُهَا شَيظَمُ(١)
ومَا شَرَقَتْ من تَنُوفِيَّةٍ ... بهَا من وَحى الجنِّ زِنْزَزِمُ(٢)

فبلغني أنه أنشد ابن الأعرابى هذه القصيدة فلما بلغ إلى ههنا قال له ابن الأعرابى إن كنت جادًا فحسبك الله .

ومنها :

لأُمٌّ لكُمْ نَجلَتْ مالِكًا ... من الشَّمس لو نجلتْ أكرمُ
ومن أين مثلك ؟ لا أين هو ؟ ... إذا الريقُ أقفرَ منهُ الفَمُ(٣)

---

(١) الهمرجلة : السريعة . الشيظم . الطويل الجسم .
(٢) بها من وجى الجن : يروى فى الموشح نقلا عن هذا الكتاب من وحا الجن .
(٣) أقفر منه : ذهب منه .

ومن الأعراب أيضا مَن شعرُه فظيع التوحيش ، مثل ما أنشدناه أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابى لمحمد بن علقمة التميمى ، يقولها لرجل من كاب ، يقال له ابن الفنشخ وورد عليه فلم يسقه :

أفرخْ أذَا كَلْبٍ وأفرخْ أفرخِ   أخْطأْتَ وَجْهَ الحقِّ فى التَّطخطُخِ (١)
أما وربِّ الرَّاقصات الزُّمخِ   يخرجنَ ما بينَ الجبالِ الشُّمَّخِ (٢)
يزُرنَ بيتَ اللهِ عندَ المصرخِ   لتطمِخَنَّ برَشَا مُمَطَّخِ (٣)
ماءٌ سوى مائِىَ يا ابنَ الفَنْشَخِ   أو لتجيئنّ بوشىٍ بَخْ بَخِ (٤)
من كيسِ ذى كيسٍ وضأنٍ منفخِ   قد ضمّهُ حَوَلَينِ لم يُسمَّخ
صم الصَّمائخِ صماخَ الأصاخ

ومن عيوب اللفظ :

المعاظلة :

وهى التى وصف عمر بن الخطاب زهيراً بمجانبته لها أيضا حيث قال: وكان لا يعاظل بين الكلام ، وسألت أحمد بن يحيى عن المعاظلة فقال مداخلة الشىء فى الشىء ، يقال تعاظلت الجرادتان وعاظل الرجل المرأة إذا ركب أحدهما الآخر وإذا كان الأمر كذلك فمن المحال أن تنكر مداخلة بعض الكلام فى ما يشبهه من وجه أو في ما كان من جنسه وبقى النكير إنما هو في أن يدخل بعضه في ما ليس من جنسه وما هو غير لائق به وما أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة .

---

(١) أفرخ أذا كلب . وافرخ : سكن .
(٢) الزمخ : المتكبرين الشمخ : العالية .
(٣) المصرخ الميث والمعين .
(٤) بخ بخ : عظيم . وبخ تقال وحدها وتكرر .

مثل قول أوس :

وَذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشرُهَا   تُصمت بالماءِ تَوْلبًا جدِعًا(١)

— فسمى الصبى تولباً وهو ولد الحمار .

ومثل قول الآخر :

وَمَا رَقدَ الوِلدانُ حتى رَأَيتُهُ   على البَكرِ يَمْرِيهِ بِسَاقٍ وحافِرِ(٢)

فسمى رجل الإنسان حافراً فإن ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه .

وقد استعمل كثير من الشعراء الفحول المجيدين أشياء من الاستعارة ليس فيها شناعة كهذه وفيها لهم معاذير إذا كان مخرجها مخرج التشبيه .

فمن ذلك قول امرئ القيس :

فقلتُ لهُ لمّا تَمَطّى بِصُلبِهِ   وأرْدَفَ أعجَازًا وناءَ بِكلْكَلِ(٣)

فكأنه أراد أن هذا الليل في تطاوله كالذى يتمطى بصلبه لا أن له صلبا وهذا مخرج لفظه إذا تؤمل(٤) .

ومنه قول زهير :

صَحَا القلبُ عن سَلمَى وأقصرَ باطِلُهْ   وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبَى ورَوَاحِلُهْ(٥)

---

(١) راجع شرح هذا البيت فى صفحة ١١٩ وأوس شاعر جاهلى مجيد ، وهو أوس ابن حجر .

(٢) البكر : الفتى من الإبل .

(٣) تمطى : طال . أو تمدد وتطاول بصلبه الأرداف . ناء : نهض . الكلكل : الصدر : والجمع كلاكل .

(٤) يعيب قدامة البيت ، وهو فى عرف جميع النقاد من أروع الصور الشعرية .

(٥) أقصر : كف . باطله : صباه ولهوه . عرى : ترك

فكأن مخرج كلام زهير إنما هو مخرج كلام من أراد أنه كما أن الأفراس للحرب وإنما تعرى عند تركها ووضعها فكذلك تعرى أفراس الصبى إن كانت له أفراس عند تركه والعزوف عنه(١) .

وكذلك قول أوس بن حجر :

وإنى امرُؤٌ أعددْتُ للحَرْبِ بعدَمَا   رَأيتُ لها نابًا من الشَّرِّ أعصَلا

فإنه إنما أراد أن هذه الحرب قديمة قد اشتد أمرها كما يكون ناب البعير أعصل إذا طال عمره واشتد .

وكذلك قول عنترة العبسى :

جادَتْ عليها كلُّ بكرٍ حرَّةٍ   فتَرَكْنَ كلَّ قَرارَةٍ كالدِّرْهمِ(٢)

وقول طفيل الغنوى :

وحملتُ كُوري خَلفَ ناجِيَةٍ   يقتَاتُ شحمَ سَنَامِها الرَّحلُ(٣)

وقول عمرو بن كلثوم :

ألاَ أبلغ النعمانَ عنى رِسالةً   فمجدُك حولىٌّ ولؤمُك قارحُ(٤)

وقول أبى ذؤيب الهذلى :

---

(١) يعيب قدامة البيت وهو من أبلغ وأروع الشعر .

(٢) جادت نزلت بكثرة البكر : من السحاب السابق. الحرة من كل شىء خالصه والمراد هنا البيضاء القرارة : القاع المستدير المنخفض كالدرهم فى الاستداره والبيت من أروع صور التشبيه عند جميع النقاد إلا قدامة

(٣) ما أروع صورة الاستعارة فى هذا البيت الذى عابه قدامة .

(٤) القارح : هو الذى انتهت أسنانه وإنما تنتهى فى خمس سنين لأنه فى السنة الأولى حولى ثم جذع ثم ثنى ثم رباع ثم قارح .

وإذا المنيّة أنشبَت أظفارَها　　ألفيتَ كُلَّ تميمَة لا تَنفَعُ(١)

وقول أوس بن معز يهجو بنى عامر :

يَشيبُ على لؤم الفِعَالِ كبيرُهَا　　وَيُغذَى بثَدى اللؤمِ منها وَليدُهَا

وقال المخبل :

يُعالج عِزًّا قد عسَا عظم رأسِه　　قراسية كالفحل يَصْرِفُ بَازِلُه(٢)

فما جرى هذا المجرى مما له مجاز كان أخف وأسهل مما فحش ولم يعرف له مجاز وكان منافراً للعادة بعيداً مما يستعمل الناس مثله .

* * *

ولنتبع الكلام في عيوب اللفظ عيوب الوزن .

(١) المنية: الموت. انشبت : علقت . التميمة: التعويذة، والبيت من أجل صور الاستعارة عند الجميع ماعدا قدامة .

(٢) القراسية : بالضم وتخفيف الياء الضخم الشديد من الإبل ، والصريف صوت يحدث من احتكاك الأسنان : البازل : السن تطلع فى وقت البزول . والبزل الشق .

الكلام فى عيوب الوزن

من عيوبه الخروج عن العروض ، وقد تقدم من استقصى هذه الصناعة إلا أن من عيوبه التخلع ؛ وهو أن يكون قبيح الوزن قد أفرط تزحيفه وجعل ذلك بنية للشعر كله حتى ميله إلى الانكسار وأخرجه من باب الشعر الذى يعرف السامع له صحة وزنه في أول وهلة إلى ما ينكره حتى ينم ذوقه أو يعرضه على العروض فيصح فيه ، فإن ما جرى هذا المجرى من الشعر ناقص الطلاوة قليل الحلاوة .

وذلك مثل قول الأسود بن يعفر(١) :

إنا ذَممْنَا على ما خيّلتْ   سَعْدُ بنْ زيدٍ وعمرو من تميم
وضبّةُ المشترى العـار بنَا   وذاكَ عمٌّ بنَا غيرُ رحيمْ
لا ينتهُون الدهرَ عن مَولى لنَا   قوْركَ بالسهم حافاتِ الأديم
ونحنُ قومٌ لنَا رماحٌ   وثروةٌ من موالٍ وصميم
لا نشتَـكى الوصم في الحربِ   ولا نئنُّ كنَاَنَاتِ السّليم

ومثل قول عروة بن الورد(٢) :

يا هنـدُ بنت أبى ذِرَاع   أخلفتِنى ظني وترتى عشقي
ونـكحتِ رَاعِي ثَلَّة يثمّرهَا   والدهر فَاتُنْهُ بما يُبْـقِي

ومثل قصيدة عبيد بن الأبرص وفيها أبيات قد خرجت عن العروض ألبتة ، وقبح ذلك جودة الشعر حتى أصاره إلى حد الردىء ، فمن ذلك قوله :

---

(١) راجع الموشح ص ٨٢ ، حيث ذكر أن هذه الأبيات تنسب لغيره أيضاً .
(٢) من صنا ليك العرب والشعراء في الجاهلية .

والمرء مَا عَاشَ في تكذيبٍ   طُول الحياةِ له تعذيبُ

فهذا معنى جيد ولفظ حسن ، إلا أن وزنه قد شانه وقبح حسنه ، وأفسد جيده(١) ، فما جرى من الزحيف في القصيدة أو الأبيات كلها أو أكثرها كان قبيحا ، من أجل إفراطه في التخليع مرة ، ومن أجل دوامه وكثرته ثانية ، وإنما يستحب من الزحيف ما كان غير مفرط ، وكان في بيت أو بيتين من القصيدة من غير توالٍ ولا اتساق ، ولا إفراط يخرجه عن الوزن ، مثل ما قال متمم بن نويرة :

وَفقدَ بني أُمٍّ تداعَوا فلم أكُنْ   خلافَهم لأستكين وأضرَعا

فأما الإفراط والدوام [فهو] قبيح .

وقال إسحاق يحكي عن يونس(٢) أنه قال : أهون عيوب الشعر الزحاف وهو أن تنقص الجزء عن سائر الأجزاء ، فمنه ما نقصانه أخفى ، ومنه ما هو أشنع ، وهو جائز في العروض .

قال خالد ابن أخي أبي ذؤيب الهذلي(٣) :

لعلك إمّا أُمُّ عمرو تبدّلَتْ   سواكَ خليلاً شاتمي تَستخيرهَا

فهذا مزاحف في كاف سواك ومن أنشد خليلا سواك كان أشنع(٤) ، قال : كان الخليل بن أحمد رحمه الله يستحسنه في الشعر إذا قل منه البيت

---

(١) القصيدة من مخلع البسيط وليس في وزنها شيء من القبح ، وما حدث فيها من زحاف فهو مقبول .

(٢) من أئمة النحاة : توفي عام ١٨٠ هـ .

(٣) صحيح بأنه خالد بن زهير وأبو ذؤيب خاله (ديوان الهذليين القسم الأول ص١٥٦) .

(٤) لأن القبض في فعولن حسن وفي مفاعيلن قبيح .

والبيتان ، فإذا توالى وكثر في القصيدة سمج ، قال إسحاق : فإن قيل كيف يستحسن وهو عيب ؟ قلنا : قد يكون مثل هذا الحول واللثغ في الجارية يشتهي القليل منه فإن كثر هجن وسمج ، والوضح في الخيل يشتهي ، ويستظرف خفيفة الغرة والتحجيل ، فإذا فشا وكثر كان هجنة ووهنا ، قال : وخفيف البلق يحتمل ولم أر أبلق سابقا ولم أسمع به .

* * *

وانتبع الكلام في عيوب الوزن عيوب القوافي .

الكلام فى عيوب القوافى

ولندع ما أتى به لمن استقصى ذلك فى ما وصفه في الكتب إذ كان لا أرب فى إعادته ، ولكننا نتكلم في ذلك بظاهر ما يعرفه جمهور الناس من المعايب التى ليست من جنس ما وضعت فيه الكتب ، ولنذكر مما وضع فيها ما كانت القدماء تعيب به دون غيره .

فمن ذلك : التجميع :

وهو أن تكون قافية المصراع الأول من البيت الأول على روى متهيئ لأن تكون قافية آخر البيت فتأتى بخلافه .

مثل ما قال عمرو بن شاس :

تذكَّرتُ ليلى لاَت حين ادّكارُها وقد حَنى الأصلاب ضلا بتضلال

ومثل قول الشماخ(١) :

لمنْ منزل عافٍ ورَسْم منازل عفتْ بعد عهدِ العَاهِدِينَ رياضها

ومن عيوبها : الإقواء :

وهو أن يختلف إعراب القوافي فتكون قافية مرفوعة مثلا وأخرى مخفوضة وهذا فى شعر الأعراب كثير جدا ، وفيمن دون الفحول من الشعراء ، وقد ارتكبت بعض فحول الشعراء الاقواء فى مواضع ، مثل سحيم بن وثيل الرياحى .

عَذرتُ البزل إن هى خاطَرَتْني فما بَالى وبال ابن اَللبُونِ

---

(١) شاعر مخضرم توفى عام ٢٢ هـ .

ومَاذا تَبتَغى الشعَــراء مِنّى   وقد جاوَزْت حدَّ الأربعينَ

فنون الأربعين مفتوحة ونون اللبون مكسورة ولكنه كأنه وقف القوافي فلم يحركها .

وقال جرير :

عرينٌ مِن عُرينَةَ ليسَ مِنَّا   بَرِئتُ إلى عُرينَةَ من عرينِ(١)
عرَفنَا جعفراً وبَنى عبيـدٍ   وأنكرنَا زَعانِفَ آخرينَ(٢)

ومنه : الإيطاء :

وهو أن تتفق القافيتان فى قصيدة فإن زادت على اثنين فهو أسمج ، فإن اتفق اللفظ واختلف المعنى كان جائزاً كقولك أريد خياراً وأوثر خياراً أي تريد خياراً من الله لك في كذا وخيار الشيء أجوده ، والإيطاء من المواطأة أى الموافقة ، قال الله تبارك وتعالى : ليواطئوا عدة ما حرم الله ؛ أي ليوافقوا .

ومنه : السناد :

وهو أن يختلف تصريف القافيتين ، كما قال عدى بن زيد(٣) :

ففاجأها وقد جمعتْ جُموعاً   على أبوابِ حصن مُصلتينَا
فقدّمتُ الأديمَ لراهِشيه   وألفى قولَهَا كذِباً ومينَا(٤)

---

(١) العرين : مأوى الأسد . وجرير شاعر العصرى الأموى وقرين الفرزدق توفى عام ١١٠ هـ .

(٢) الزعانف : جمع مفرده زعنفة . وهي القطعة من القبيلة تشذ وتنفرد أو القبيلة القليلة تنضم إلى غيرها .

(٣) شاعر فصيح من شعراء الجاهلية ، سكن الحيرة والعراق ، وخدم فى بلاط كسرى والنعمان بن المنذر ، وكان يحسن العربية والفارسية ، وهو أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى - وكان نصرانياً ، وعلماء اللغة لا يحتجون بشعره .

(٤) الأديم : الجلد . مينا : كذبا.

وكقول الفضل بن العباس اللهبي :

عبد شمس أبي فإن كُنْتِ غضبي ... فاملئي وَجهكِ المليحَ خُمُوشَا(١)

نحنُ كنَّا سُكانَها من قريش ... وبنا سُمِّيَتْ قريشٌ قريشَا

والسناد من قولهم خرج بنو فلان برأسين متساندين ، أى كل فريق منهم على حياله ، وهو مثل ما قالوا : كانت قريش يوم الفخار متساندين ، أى لا يقودهم رجل واحد .

* * *

ولنتبع ذلك بالكلام على عيوب المعاني .

(١) خموشا : جروحا .

عيوب المعانى

قد كنا قدمنا في باب النعوت أن جملتها أن يكون المعنى مواجهاً للغرض غير عادل عنه إلى جهة أخري ، وبينا من الأغراض التى تنتحيها الشعراء في ذلك الموضع ما إذ حفظ عرف العيب بالعدول عنه ، وبدأنا فى باب المديح بأمور جملناها أمثلة فلا بأس أن نأتي في أمثالها بأمثلة أيضا .

١ — ذكر المديح

لما كنا قدمنا من حال المديح الجارى على الصواب ما أنبأنا أنه الذى يقصد فيه المدح للشيء بفضائله الخاصة به ، لا بما هو عرضى فيه ، وجعلنا مدح الرجال مثالا في ذلك ، وذكرنا أن من قصد لمدحهم بالفضائل النفسية كان مصيبا ، وجب أن يكون ما يأتي به من المدح على خلاف الجهة التي ذكرناها فى النعوت معيبا .

ومن الأمثلة الجياد فى هذا الموضع ما قاله عبد الملك بن مروان(١) لعبيد الله بن قيس الرقيات(٢) حيث عتب عليه فى مدحه إياه ، فقال له : إنك قلت فى مصعب بن الزبير :

إنما مُصعبٌ شِهابٌ من الله تَجلّت عن وجهِهِ الظُلماء

وقلت فىّ :

يأتلقُ التاجُ فَوقَ مَفرِقِهِ على جَبينٍ كأنّه الذّهب

---

(١) الخليفة الأموى المشهور .

(٢) شاعر الزبيريين السياسى توفى عام ٨٥ هـ وقد قتل عبد الله بن الزبير عام ٧٠ .

فوجه عتب عبد الملك إنما هو من أجل أن هذا المادح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التي هي العقل والعفة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة ، وقد كنا قدمنا أن ذلك غلط وعيب .

ومنه قول أيمن بن خزيم في بشر بن مروان :

يابنَ الذَّوائبِ والذُّرَى والأرؤُس والفرعِ من مُضَرِ العَفرنَى الأنفس
يابنَ المكارمِ من قريشٍ ذا العُلَى وابنَ الخلائفَ وابنَ كُلِّ قَلَمَّسِ
من فَرْعِ آدمَ كابراً عن كابرٍ حتى انتهيتَ إلى أبيكَ العَنبَسى
مَرْوانُ إنْ قناتَهُ خطيَّةٌ غُرِسَت أُرومتُها أعزَّ المَغرس
وبنيتَ عِندَ مَقامِ رَبِّكَ قُبَّةً خضراءَ كلَّلَ تاجَها بالفِسفَس
فسماؤُها ذهبٌ وأسفلُ أرضِها ورِقٌ تلألأ في البهيمِ الحندس

فما في هذه الأبيات شيء يتعلق بالمدح الحقيقي وذلك أن كثيراً من الناس لا يكونون كآبائهم في الفضل ، فلم يصف هذا الشاعر غير الآباء ، ولم يصف الممدوح بفضيلة في نفسه أصلا ، وذكر بعد ذلك بناءه قبة ثم وصف القبة أنها من الذهب والفضة ، وهذا أيضاً ليس من المدح ، لأن في الملك والثروة مع الصنعة والفهم ما يمكن معه بناء القباب الحسنة واتخاذ كل آلة فائقة ، ولكن ليس ذلك مدحا يعتد به ، ولا جاريا على حقه ، ومما نذكره في هذا الموضع ليصح به شدة قبح هذا المدح قول أشجع بن عمرو في المدح بما يخالف اليسار(١) .

يريدُ الملوكُ نَدَى جعفرٍ ولا يَصنَعُون كما يَصنَعُ
وليس بأوسَعِهِم في الغنَى ولكنَّ معروفَهُ أوسَعُ

فقد أحسن هذا الشاعر حيث لم يجعل الغنى واليسار فضيلة بل جعلها غيرهما .

---

(١) هنا يمدح جعفراً البرمكي .

وقال أيضا أيمن بن خزيم فى بشر [بن مروان] :

فلو أعطاكَ بشرٌ ألفَ ألفٍ   رأى حقًّا عليه أن يَزيدَا
وأعقبَ مِدْحتى سَرْجًا خلَنْجًا   وأبيضَ جوْزَجانِيًّا عقُودَا
فإنا قد وجدْنا أمَّ بشرٍ   كأُم الأُسْدِ مِذْكاراً وَلُوداً

فجميع هذا المدح على غير الصواب ، وذلك أنه أومأ إلى المدح والتناهى فى الجود أولا ، ثم أفسده فى البيت الثانى بذكر السرج وغيره ، ثم ذكر في البيت الثالث ما هو إلى أن يكون ذمًّا أقرب ، وذلك أنه جعل أمه ولوداً ، والناس مجمعون على أن إنتاج الحيوانات الكريمة يكون أندر .

ومنه قول الشاعر :

بُغاثُ الطيرِ أكثرُها فِراخًا   وأُمُّ الصقرِ مقلاتٌ نَزورُ(١)

---

(١) بغات الطير : أضعفها . مقلات : مقلة من الأولاد — نزور : لاتضع إلا نادراً .

٢ — ذكر عيوب الهجاء

كما أن معرفة رداءة المدح كانت مسهلة جيدة فكذلك عيب الهجاء ، يسهل الطريق إلى العلم به ما تقدم فى باب نعته .

وجماع القول فيه أنه متى سلب المهجو أموراً لا تجانس الفضائل النفسانية ، كان ذلك عيباً فى الهجاء ، مثل أن ينسب إلى أنه قبيح الوجه أو صغير الجسم أو مقتر أو معسر أو من قوم ليسوا بأشراف إذا كانت أفعاله في نفسه جميلة ، وخصاله كريمة نبيلة ، أو أن يكون أبواه مخطئين إذا كان مصيبا ، وغويين إذا وجد رشيداً سديداً ، أو بقلة العدد إذا كان كريما ، وعدم النضار إذا كان راجحاً شهما ، فلست أرى ذلك هجاء جاريا على الحق .

ومما يدل على ذلك بَعْدَ القياس الصحيح والنظر الصريح أشعار وأقوال أعددها .

فنها ما أنشدناه أبو العباس أحمد بن يحيى(١) :

رَأَتْ نصف أسفَار أُمَيْمَةَ قاعداً ... على نِصف أسفَارٍ يجن جُنونُها
فقَالت مِن أَى الناس أنتَ أَتَيتَنَا ... فإنَّكَ راعى ثَلَّةٍ لا تَرَيْنَها
فقلْتُ لَهَا ليس الشُّحُوبُ على الفتى ... بعَارٍ ولا خَيرُ الرِّجالِ سَمينُها(٢)

فهذا صحيح فى أن القبح والشحوب والسماجة ليست بعار .

ومن هذا أيضا قول بعضهم فى ابن له ازدراه رجال فمنهم من نعمه فأغاروا عليها :

---

(١) هو ثعلب إمام الكوفة فى النحو توفى عام ٢٩١ هـ .

(٢) الشحوب : تغير لون الوجه من مرض أو هزال .

رَأوه فازْدَروه وهْو خرق ... وينْفَع أهلَه الرَّجل القبيح

ومن الأبيات الأول فى أن قلة المال ليست عاراً قوله :

عليكَ براعى ثَلّة مُسْلحِبَّة ... يروحُ عليهِ مَحْضُها وحَقِينُها
سَمِينُ الضَّواحى لم تُؤَرِّقه لَيلة ... وإن عَمّ أبكارَ الهُموم وعُونُها(١)

وللسموأل(٢) فى أن قلة العدد ليس عيباً ولا سبة :

تُعيرُنا أنَّا قليلٌ عديدُنا ... فقلتُ لها إن الكِرامَ قليلُ
وما ضَرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا ... عَزِيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذَليل

فعدى هذا الشاعر عن الهجاء الذى عيرتهم به هذه المعيرة ، واحتج فيه بما دل على أنه غير ضائر ، ثم وصف بعد ذلك نفسه وقومه بالأوصاف التى تليق بذكرنا إياها فى هذا الموضع للمنفعة فى تعليم الهجاء الجارى على الصواب فقال :

وإنَّا لَقومٌ ما نرى القَتْلَ سُبَّةً ... إذا ما رأتهُ عامرٌ وسَلولُ(٣)
يقرِّب حب الموتِ آجالَنَا لنَا ... وتكرَهُه آجالُهُ فتَطُولُ
وما مَاتَ منَّا سيِّدٌ حَتْفَ أنفِهِ ... ولا طُلَّ منّا حيث ماتَ قَتيلُ(٤)
لنَا جبلٌ يحتَلُّهُ مَن نُجيرُه ... منيع يرد الطرفَ وهو كليلُ(٥)

---

(١) العون الكبيرة من البكر .

(٢) السموال : شاعر جاهلى يهودى اشتهر بلا ميته .

(٣) السبة : ما يسب به . وعامر وسلول : عامر بن صعصعة . وبنو سلول هم بنو مرة ابن صعصعة التى تنتهى الى قيس بن عيلان .

(٤) حتف أنفه : وانما خص الأنف بذلك لأنه من جهته يقتضى الرمق وحتف منصوبة على الحال . ولاطل منا الخ أى لم يبطل دم قتيل منا .

(٥) المراد بالجبل العز والسمو . الطرف : النظر والعين . والأبيات للسموأل ، ومات قبل البعثة (الأغانى ١٩/٩٨ — ١٠٢ ، طبقات ابن سلام ٢٣٥ — ٢٣٧ ، سمط اللآلى ١ / ٥٩٠ ، معجم البلدان ١ / ٨٦ و ٨٧ ، الشريشى ١ / ٣٩٠ ، معاهد التنصيص ١/٣٨٨ — ٣٩١) .

فأتى في هذه الأبيات بالمدح من جهة الشجاعة والبأس والعزم ثم قال :

وننكر إنْ شئنا على الناسِ قولَهُمْ ... ولا يُنكرون القولَ حين نقولُ

إذا سَيِّدٌ منَّا خلا قامَ سَيِّدٌ ... قؤُولٌ لما قال الكِرامُ فَعولُ

سَلِي إن جَهِلتِ الناسَ عنَّا وعنهُم ... فليس سواءٌ عالمٌ وجهُول

فأتى في هذه الأبيات بالوصف والمدح من جهة العقل والرأى والفهم ، ثم قال :

فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا ... كهامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيلُ(١)

فأتى بالمدح من جهة الجود ، وهو أحد أقسام العدل كما بيَّنَّا ، ثم قال :

صفوْنَا فلم نكدر وأخلصَ سرَّنا ... إناثٌ أطابتْ حملنا وفحول

فأتى بالمدح من جهة العفة إذ كان في ذكره طيب الحمل دليل على ذلك ، أفلا ترى أن هذا الشاعر لما علم أن المعيرة لم تأت بما يضرهم احتج في ذلك بما يزيل الظنة عنهم ، ثم عمد إلى الفضائل التي هي فضائل بالحقيقة فأوجبها ، فكأنه أرى بهذا الفعل أن ما قالته المعيرة جاريا على غير الصواب ، وأنشد أحمد بن يحيى(٢) في هذا المعنى :

وإنيَ لا أخزَى إذا قيلَ مُملق ... جوادٌ وأخزَى أن يُقال بخيل(٣)

وبلغني أن ابن الزبير لما دخل الشام ناداه أهله يا ابن ذات النطاقين فقال لابن أبي عتيق : وتلك شكاة ظاهر عنك عارها ، فأبان بهذا القول أنه لا يلزمه ما يقال في أمه ، فإذا تؤمل ما ذكرته في هذا الباب لم يبعد الوقوف على عيب الهجاء كيف يتعرف .

---

(١) ماء المزن : المطر وهو أصفى المياه عندهم فشبه صفاء أنسابهم بصفاء ماء المطر والمزن : الأبيض . الكهام : الكليل الحد .

(٢) ثعلب إمام الكوفة في النحو توفي عام ٢٩١ هـ

(٣) مملق : فقير من أملق .

٣ — عيوب المراثى

وأما المراثى ففي ما قدمته فى باب نعوتها أيضا ما أبان عن الوجه في باب عيوبها إذا كان النظر صحيحا والفكر سليما .

٤ . وأما عيب التشبيه

فذاك سبيله أيضا لمن كان حافظا لما تقدم من أقوالنا في باب نعوته .

٥ — وأما عيب الوصف

فى المضادة في باب نعوته .

٦ — وأما الغزل

فالقول فيه كالقول فى ما مر من هذه الأبواب إذ كان عيبه إنما هو مضادة ما قدمنا ذكره فى باب نعته ، ومن الغزل الجارى على تلك المضادة وفيه — مع أنه مثال فى هذا الموضع للعيب - توكيد لما قدمناه في باب النعوت : قول إسحاق الأعرج مولى عبد العزيز بن مروان :

فلمَّا بدَا لى ما رَاعنِى   نزعتُ نزوعَ الأبىِّ الكريمِ

وبلغنى أن أبا السائب المخزومي لما أنشد هذا البيت قال : قبحه الله ، لا والله ما أحببتها ساعة قط .

ومثله لنابغة بنى تغلب واسمه الحارث بنى عدوان :

هجرتَ أمامةَ هجراً طويلاً   وما كان هجرُك إلا جميلاَ
على غيرِ بُغضٍ ولا عن قِلَى   وليس حَياء وليس ذُهولاَ(١)

(١) قلى الشيء أبغضه وكرهه غاية الكراهة .

ولكن بَخِلنا لبخلك عمداً فكيف يلومُ البخيلُ البخيلاَ

ولما كان المذهب في الغزل إنما هو الرقة واللطافة والشكل والدماثة كان مما يحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة مقبولة غير مستكرهة ، فإذا كانت جاسية كان ذلك عيبا إلا أنه لما لم يكن عيْبا على الإطلاق أمكن أن يكون حسنا إذ كان قد يحتاج إلى الخشونة فى مواضع مثل ذكر البسالة والنجدة والبأس والرهبة ، وكان أحق المواضع التي يكون فيها عيبا الغزل لمنافرته تلك الأحوال وتباعده منها .

فمن الكلام المستثقل فى الغزل قول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

إنْ تنأ دارُكِ لا أملُّ تذكراً وعليكِ منّى رحمةٌ وسلام(١)

ومن المستخشن قول هذا الشاعر :

سلاَمُ ليتَ لساناً تَنطِقين به قبل الذى نالهُ من صوته قُطِعَا

فما رأيت أغلظ ممن يدعو على محبوبته بقطع لسانها حيث أجادت فى غنائها له .

---

(١) تنأ : تبعد .

فأما العيوب العامة للمعانى

من الأغراض التى ذكرناها وغيرها وعموم ذلك إياها كعموم النعوت التى قدمنا وعدد فى أبوابها .

فمنها : فساد الأقسام :

وذلك يكون إما بأن يكررها الشاعر أو يأتى بقسمين أحدهما داخل تحت الآخر في الوقت الحاضر أو يجوز أن يدخل أحدهما في الآخر في المستأنف ، وأن يدع بعضها فلا يأتى به ، فأما التكرير فمثل قول هذيل الأشجعى :

فما برحتْ تُومى إلىَّ بطَرْفِها   وتُومضُ أحياناً إذا خصمُها غفل

لأن تومض وتومي بطرفها متساويان في المعنى .

وأما دخول أحد القسمين فى الآخر فمثل قول أحدهم :

أُبادِر إهلاكَ مُسْتَهلِكٍ   لمالى أو عَبثَ العابثِ

فعبث العابث دخل في إهلاك مستهلك .

ومثل قول أمية بن أبي الصلت :

لله نِعمتُنَا تبارَكَ رَبُّنا   ربُّ الأنام وربُّ من يتأبد(١)

فليس يجوز أن يكون أمية أراد بقوله من يتأبَّدُ: الوحش وذلك أن من لا تقع على الحيوان غير الناطق ، وإذا كان الأمر على هذا فمن لا يتوحش داخل فى الأنام أو يكون أراد بقوله يتأبد أي يتقوت من الأبد ، وذلك داخل فى الأنام

---

(١) يتأبد : يتوحش . وأمية شاعر جاهلى كان يتحنف فى شعره وشهد الرسالة ولم يسلم . وتوفى عام ٩ هـ .

وأما أن يكون القسمان مما يجوز دخول أحدهما في الآخر فمثل قول أبي عدي القرشي :

غير ما أنْ أكونَ نلتُ نوالا   منْ نَداها عَفواً ولا مهنئا

فالعفو قد يجوز أن يكون مهنئا والمهنئ قد يجوز أن يكون عفواً ، وقد ضحك من أنوك سأل مرة فقال علقمة بن عبدة جاهلي أم من تميم فإن الجاهلي قد يكون من بني تميم أو من بني عامر والتميمي قد يكون إسلاميا وجاهليا .

ومن ذلك قول عبد الله بن سليم الغامدي :

فهيَّجتُ سِرْباً ما يُفزَّعُ وحشُه   منْ بين سِرْبِ نَاوِئٍ وكُنوس

ناوئ سمين يقال نوئ أي سمن والسمين يجوز أن يكون كانسا والكانس يجوز أن يكون سمينا وهزيلا . وأما الأقسام التي يترك بعضها مما لا يحتمل الواجب تركه . . فمثل قول جرير في بني حنيفة :

صارت حنيفةُ أثلاثاً فثُلثُهم   منَ العبيدِ وثلثٌ من مَوَاليها

فبلغني أن هذا الشعر أنشد في مجلس ورجل من بني حنيفة حاضر فقيل له من أيهم أنت فقال : من الثلث الملغى ذكره .

ومن عيوب المعاني: فساد المقابلات :

من كان حافظا لما ذكرنا من صحة المقابلات في باب النعوت ظهرت له الحال في فسادها ظهوراً أكثر ، وهو أن يضع الشاعر معنى يريد أن يقابله بآخر إما على جهة الموافقة أو المخالفة فيكون أحد المعنيين لا يخالف الآخر أو يوافقه.

مثال ذلك قول أبي علي القرشي :

يا ابنَ خير الأخيارِ من عبدِ شمس   أنت زينُ الدنيا وغيثُ الجنودِ

فليس قوله وغيث الجنود موافقا لقوله زين الدنيا ولا مضادًّا وذلك عيب .

ومنه قول هذا الرجل فى مثل ذلك :

رُحماء لذى الصلاح وضرّابون قدمًا لِهَامةِ الصنديدِ(١)

فليس الصنديد فى ما تقدم ضد ولا مثل ، ولعله لو كان مكان قوله الصنديد الشرير لكان جيداً لقوله ذى الصلاح ، والمعدول عن هذا العيب غير الرواة قول امرئ القيس :

فلوْ أنهَا نفسٌ تموتُ سوِيّةً ولـكنها نَفسٌ تساقِطُ أنفُسًا(٢)

فأبدلوا فى مكان سوية جميعة لأنه فى مقابلة تساقط أنفسا أليق من سوية .

ومن عيوب المعاني : فساد التفسير :

من كان ذاكراً لما قدمناه في باب نعت هذا المعنى عرف الوجه فى عيبه ، مثال ذلك إذ جاءنى بعض الشعراء فى هذا الوقت وأنا أطلب أمثلة في هذا الباب ليستفتينى فيه وهو :

فيَا أيُّها الحيرَان فى ظلم الدُّجى وَمَن خاف أنْ يَلقَاهُ بغيٌ منَ العِدَى

تعالى إليه تلقَ مِن نورِ وَجهِهِ ضياء ومن كَفَّيْهِ بحراً من الندي

وقد كان هذا الرجل يسمعنى كثير الخوض في أشياء من نقد الشعر ، فيعى بعض ذلك ، ويستجيد الطريق التي أوضحها له ، فلما وقع هذان البيتان فى قصيدة له ولاح له ما فيهما من العيب ولم يتحققه صار إلى ، وذكر أنه عرضهما على جماعة من الشعراء وغيرهم ومن ظن أن عنده مفتاحا وأن بعضهم جوزهما

(١) الهامة : رأس كل شيء . الصنديد : السيد الشريف .
(٢) تموت سوية أي تموت مرة واحدة ، ولكنها بغير ذلك فإن المرض ينقصها شيئاً فشيئاً .

وبعضهم شعر بالعيب فيهما ، فذكرت له الحال فيهما وأثبت البيتين في هذا الموضع مثالا ، ووجه العيب فيهما أن هذا الشاعر لما قدم في البيت الأول الحيرة في الظلم وبغي العدى كان الجيد أن يفسر هذين المعنيين في البيت الثاني بما يليق بهما فأتى بإزاء الظلام بالضياء وذلك صواب وكان الواجب أن يأتي بإزاء العدي بالنصرة أو بالعصمة أو بالوزر أو بما جانس ذلك مما يحتمي به الإنسان من أعدائه ، فلم يأت بذلك وجعل مكانه ذكر الندى ، ولو كان ذكر الفقر أو العدم لكان ما أتى به صوابا ، وقد يتفرع من هذا الباب خطآن إذا وقعا فيه خرجا إلى آخرين من أبواب عيوب الشعر : أحدهما أن يكون هذا الشاعر لو لم يأت بخلاف القسم الثاني مثلا بل تركه لدخل في باب الخلل ولو لم يتركه بل أتى به وزاد عليه لدخل في باب الحشو ، وقد ذكرنا هذين البابين في مواضعهما .

ومن عيوب المعاني : الاستحالة والتناقض :

وهو أن يذكر في الشعر شيء فيجمع بينه وبين المقابل له من جهة واحدة ، والأشياء تتقابل على أربع جهات ، إما على طريق المضاف ومعنى المضاف هو الشيء الذي يقال بالقياس إلى غيره مثل الضعف إلى نصفه والمولى إلى عبده والأب إلى ابنه ، فكل واحد من الأب والابن والمولى والعبد والضعف والنصف يقال بالإضافة إلى الآخر ، وهذه الأشياء من جهة ما إن كان واحد منها يقال بالقياس إلى غيره ، هي من المضاف ، ومن جهة أن كل واحد منها بإزاء صاحبه كالمتقابل له فهي من المتقابلات فإما على طريق التضاد مثل الشرير للخير والحار للبارد والأبيض للأسود ، وإما على طريق العدم والقنية مثل الأعمى للبصير والأصلع وذي الجمة .. وإما على طريق النفي والإثبات مثل أن يقال زيد جالس وزيد ليس بجالس ، فإذا أتى في الشعر جمع بين متقابلين

من هذه المتقابلات وكان هذا الجمع من جهة واحدة فهو عيب فاحش غير مخصوص بالمعانى الشعرية بل هو لاحق بجميع المعانى ، وأعني بقولى من جهة واحدة أنه قد يجوز أن يجتمع في كلام منظوم ومنثور متقابلان من هذه المتقابلات ويكون ذلك الاجتماع من جهتين لا من جهة واحدة ويكون الكلام مستقيما غير محال ولا متناقض ، مثال ذلك أن يقال في تقابل المضاف أن العشرة مثلا ضعف وأنها نصف لكن يقال إنها ضعف الخمسة ونصف العشرين فلا يكون ذلك محالا إذا قيل من جهتين ، كما لو قيل فى إنسان واحد أنه أعمى العين بصيرها فلا محال ، وكذلك في التضاد أن يقال للفاتر حار بالنسبة إلى البارد وبارد بالنسبة إلى الحار فأما عند أحدهما فلا ، وفى النفى والإثبات أن يقال زيد جالس فى وقته الحاضر الذي هو جالس وغير جالس فى الوقت الآتى الذى يقوم فيه إذا قام فذلك جائز ، وأما في وقت واحد وحال واحدة جالس وغير جالس فلا، ولهذه العلة يجوز ما يأتي فى الشعر على هذه السبيل مثل ما قال خفاف بن ندبة :

إذا انتكثَ الحبلُ ألفيتَهُ صبورَ الخبارِ رزينًا خَفيفا(١)

فلو لم يرد أنه رزين من حيث ليس هو خفيفا لم يكن مجوزاً .

ومثل ما قال الشنفرى :

فدَقَّت وجلتْ واسبكرت وأكملتْ فلوْ جُن إنسانٌ من الحسنِ جنَّت(٢)

فإنه إنما أراد دقت من جهة وجلت من جهة أخرى ، فأما لو كان أراد أنها دقت من حيث جلت لم يكن جائزاً ، وقد جاء فى الشعر من الاستحالة والتناقض ما لا عذر فيه وما جمع في ما قيل فيه بين المتقابلات من جهة واحدة ،

ومنه ما التناقض فيه ظاهر يعلم في أول ما يلقى إلى السمع ، ومنه ما يحتاج إلى تنبيه على موضع التناقض .

ومما جاء في ذلك على جهة التضاد قول أبي نواس في الخمر :

كأنَّ بقايا ما عفا من حَبابها تفاريقُ شيبٍ في سوادِ عذارِ (١)

فشبه حباب الكأس بالشيب وذلك قول جائز لأن الحباب يشبه به في البياض وحده لا في شيء آخر غيره ثم قال :

تردَّتْ به ثم انفرى عن أديمها تفرِّيَ ليلٍ عن بياض نهارِ (٢)

فالحباب الذي جعله في هذا البيت الثاني كالليل هو الذي كان في البيت الأول أبيض كالشيب والخمر التي كانت في البيت الأول كسواد العذراء هي التي صارت في البيت الثاني كبياض النهار وليس في التناقض له منصرف إلى جهة من الجهات للعذر لأن الأسود والأبيض طرفان متضادان وكل واحد منهما في غاية البعد عن الآخر ، فليس يجوز أن يكون شيء واحد يوصف بأنه أسود وأبيض إلا كما يوصف الأدكن في الألوان بالقياس إلى واحد من الطرفين الذي هو واسطة بينهما ، فيقال إنه عند الأبيض أسود .

ولعل قوماً يحتجون لأبي نواس بأن يقولوا إن قوله « تفرى ليل عن بياض نهار » لم يرد به لا أبيض ولا أسود لكن الذي أراده إنما هو ذات التفرى والحسار الشيء عن الشيء أسود كان أو أبيض أو غير ذلك من الألوان . فنقول من يحتج بهذه الحجة تبطل من جهات :

إحداها أن الرجل قد صرح بأنه لم يرد غير اللون فقط بقوله عن بياض نهار .

---

(١) الحباب : الفقاقيع تطفو كأنها القوارير .

(٢) انفرى انشق : أديمها : جلدها .

والثانية تشبيهه الحباب لا يشبه الشيب من جهة من الجهات غير البياض .

والثالثة أن الليل والنهار ليس هما غير الظلمة والضياء فيظن بالجاعل لهما في وصف من الأوصاف أنه أراد شيئا آخر فإن القائل مثلا في شيء قد يتبرأ من شيء كما تتبرأ الشعرة من العجين .

وقد يجوز أن يصرف قوله هذا على وجهين :

أحدهما(١) أن يظن أنه أراد تبريء الأسود من الأبيض لأن في الشعرة والعجين جسما يجوز أن يتبرأ من جسم وسواداً وبياضا ، فأما الليل والنهار فليس هما غير سواد وبياض فقط ، فأما جسم يتبرأ من جسم فلا .

ومما جاء من الشعر في التناقض على طريق المضاف قول عبد الرحمن بن عبد الله القس(٢) :

فإنِّي إذا ما الموتُ حلَّ بنفسها ... يزال بنفسي قبلَ ذاكَ فأقبر

فقد جمع بين قبل وبعد وهما من المضاف لأنه لا قبل إلا لبعد ولا بعد إلا لقبل حيث قال إنه إذا وقع الموت بها وهذا القول كأنه شرط وصفة ليكون له جواب يأتي به وجوابه قوله « يزال بنفسه » قبل ذلك ، وهذا شبيه بقول قائل لو قال إذا انكسرت الجرة انكسر الكوز قبلها ، ومنزلة هذا التناقض عندي فوق منزلة جمع المتقابلين في الشناعة ، لأن هذا الشاعر جعل ما هو قبل بعداً .

ومما جاء في الشعر على طريق القنية والعدم قول ابن نوفل :

لأعلاج ثمانية ... وشيخ كبيرِ السِّنِّ ليس بذى ضَرير

---

(١) الوجه الثاني ساقط من الأصل .

(٢) محبوبته (سلامة) كانت تجيد الغناء وهما من العصر الأموي .

فلفظة ضرير إنما تستعمل وهي تصريف فعيل من الضر في الأكثر للذى لا بصر له ، وقول هذا الشاعر فى هذا الشعر إنه ذو بصر وإنه ضرير تناقض من جهة القنية والعدم ، وذلك أنه يقول إن له بصراً ولا بصر له فهو بصير أعمى.

فإن قال قائل : إنه ضرير راجع إلى البصر بأنه أعمى فالعرب أولا إنما تريد بضرير الإنسان الذى قد لحقه الضر بذهاب بصره لا البصر نفسه ، وأيضا فليس البصر هو العين التى يقع عليها العمى بل ذات الإبصار وذات الإبصار لا يقال لها عمياء كما لا يقال إن حدة السيف كليلة بل إنما يقال السيف كليل لأن الحدة لا تكل وكذا البصر لا يعمى ولكنه في توسع اللغة وتسمح العرب فى اللفظ جائز على طريق المجاز ، وقد جاء فى أقوى المواضع حجة وهو القرآن فى قوله عز وجل « إنها لا تعمى الأبصار » ولكنه إذا جاز فى البصر أن يقال أعمى فلا أراه يجوز أن يقال فيه مضرور .

وأرى أن مما يدخل في هذا البيت من التناقض قول ابن هرمة :

تراهُ إذا ما أبصرَ الضيفَ كلبُه ... يُكلِّمه منْ حبه وهو أعجم(١)

فإن هذا الشاعر أقنى الكلب الكلام في قوله يكلمه ثم أعدمه إياه عند قوله وهو أعجم من غير أن يزيد فى القول ما يدل على أن ما ذكره إنما أجراه على طريق الاستعارة فإن عذر هذا الشاعر ببعض المعاذير إذا كانت الحجج كثيرة ، فهلا قال كما قال عنترة :

---

(١) ابن هرمة (٧٠ ـ ١٥٠ هـ) هو إبراهيم بن هرمة ، ساقة الشعراء وآخر من يحتج به منهم ، وهو من مخضرمى الدولتين (الشعر والشعراء ٢/٧٢٩ ـ ٧٣١ ـ الأغانى ٤/١٠١ ـ ١١٣ ـ الخزانة ١/٢٠٣ و٢٠٤ ـ سمط اللآلى ١/٣٩٨ ـ والبيت فى حماسة أبى تمام ـ وأمالى المرتضى ٢ / ١٣ و ١٤ ـ وديوان المعانى ١ / ٣٣ ـ وخزانة الأدب ٤/٥٨٤ ـ والشعر والشعراء ٢/٧٣١ ـ الموشح ٢٢٣ ـ والشريشى ٢/٣٢١ ـ والحيوان ١/٣٧٨) .

فازْوَرَّ من وقْعِ القَنَا بلَبَانِهِ ... وشكى إليَّ بعَبرةٍ وتَحَمْحُمِ(١)

فلم يخرج الفرس عما له من التحمحم إلى الكلام ثم قال :

لو كان يَدري ما المُحاوَرةُ اشتكى ... ولكان لوْ علِمَ الكلامَ مكلمى

ومما جاء من الشعر على طريق الإيجاب والسلب قول عبد الرحمن بن عبد الله القس :

أرَى هَجرَها والقَتْلَ مِثلَيْنِ فاقصِرُوا ... مَلامَكم فالقتلُ أعفَى وأيْسَرُ

فأوجب هذا الشاعر للقتل والهجر أنهما مثلان ثم سلبهما ذلك بقوله القتل أعفى وأيسر ، فكأنه قال إن القتل مثل الهجر وليس هو مثله :

وأرى أن هذا الشاعر أراد أن يقول بل القتل أعفى وأيسر ، ولو قال بل لكان الشعر مستقيما لأن مقام لفظةُ بل مقام ما ينفى الماضى ويثبت المستأنف لكنه لما لم يقلها وأتى بجمع الإثبات ونفيه استحال شعره وليس إذا علمنا أن شاعراً أراد لفظة تقيم شعره فجعل مكانها لفظة تحيله وتفسده وجب أن يحسب له ما يتوهم أنه أراده ويترك ما قد صرح به ولو كانت الأمور كلها تجرى على هذا لم يكن خطأ .

وأرى أن مما يجرى هذا المجرى قول يزيد بن مالك الغامدى حيث قال :

أكفُّ الجَهلَ عن حُلمَاءِ قَومي ... وأعرضُ عن كلامِ الجاهلِينَا(٢)

إذا رَجُلٌ تعرَّضَ مُستَخِفاً ... لنَا بالجهلِ أوشكَ أن يَحينَا(٣)

---

(١) ازور : اعوج . ولهذا اطلقوا على بغداد الزوراء لازورارها عن القلة . الحمحمة : صوت الفرس اذا طلب العلف. أورأى صاحبه فاستأنس اليه والبيت من أجود الشعر وأروعه.

(٢) الجهل : الظلم .

(٣) أن يحينا : أن يقتل .

فقد أوجب هذا الشاعر في البيت الأول لنفسه الحلم والإعراض عن الجهال ونفى ذلك بعينه في البيت الثاني بتعديه فى معاقبة الجاهل إلى أقصى العقوبات وهو القتل .

ولأبي نواس أيضا شيء يشبه هذا وهو قوله :

وَلِيُّ عهْدٍ ما لهُ قَرِينُ ولا لهُ شَبَهٌ ولا خَدِينُ(١)
أستغفرُ اللهَ بلى هارونَ يا خيرَ مَن كان ومن يكون
إلا النبيُّ المصطفى المأمون

فصير هارون شبيها بولى العهد ولم يستثن بهارون فكأنه خير منه وليس خيراً منه لأنه شبيهه أو كشبيهه وليس بشبيهه لأنه خير منه وهذا جمع بين النفي والإثبات .

ومما يجرى هذا المجرى وقد أنكره الناس وعابوه قول زهير بن أبي سلمى :

قِف بالديارِ التى لم يعفُها القِدَم بلى وغيرَها الأرواح والدِيَم(٢)

ومن عيوب المعانى : إيقاع الممتنع فيها في حال ما يجوز وقوعه ويمكن كونه .

والفرق بين الممتنع والمتناقض الذى تقدم الكلام عليه أن المتناقض لا يكون ولا يمكن تصوره فى الوهم والممتنع لا يكون ولكن يمكن تصوره في الوهم .

ومما جاء في الشعر وقد وضع الممتنع فى ما يجوز وقوعه قول أبي نواس :

يَا أمينَ اللهِ عشْ أبداً دُم على الأيامِ والزّمنِ

فليس يخلو هذا الشاعر من أن يكون تفاءل لهذا الممدوح بقوله

---

(١) الخدين : الصاحب .
(٢) لم يعفها : لم يبلها ويدرسها ويمح أثر قدمها .

« عش أبداً » أمراً أو دعاء ، وكلا الأمرين مما لا يجوز ومستقبح .

ولعل معترضاً يعترض هذا القول منا في هذا الموضع فيقول إنه مناقضة لما استجزناه ورأيناه صواباً في صدر هذا الكتاب من الغلو ، ويجعل قول أبي نواس هذا غلوا فيلزمنا تجويزه كما فصلنا تجويز الغلو ، ونحن نقول إن هذا وما أشبهه ليس غلوا ولا إفراطا بل خروجا عن حد الممتنع الذى لا يجوز أن أن يقع ، لأن الغلو إنما هو تجاوز فى نعت ما للشيء أن يكون عليه وليس خارجا عن طباعه إلى ما لا يجوز أن يقع له ، لأن الذى يكون قلنا إنه جائز مثل قول النمر بن تولب :

تظلُّ تحفُرُ عنهُ إن ضَرَبْتَ به   بعد الذِّراعينِ والسّاقَينِ والهادى(١)

فليس خارجا عن طباع السيف أن يقطع الذراعين والساقين والهادى وأن يؤثر بعد ذلك ويغوص فى الأرض ولكنه مما لا يكاد يكون . وكذلك ما قلناه فى ما قال مهلهل(٢) :

فلولا الرِّيحُ أسمعَ مَن بحُجْرٍ   صَليلَ البيض تقرَع بالذُّكورِ

فإنه أيضا ليس يخرج عن طباع أهل حجر أن يسمعوا الأصوات من الأماكن البعيدة ولا خارج عن طباع البيض أن تصل ويشتد طنينها بقرع السيوف إياها ولكن ينعد ببعد المسافة بين موضع الوقعة وحجر بعداً لا يكاد يقع وليس فى طباع الإنسان أن يعيش أبداً فإنا كنا قد قدمنا أن مخارج الغلو إنما هى على (يكاد) ، وليس فى قول أبى نواس « عش أبداً » موضع يحسن فيه لأنه لا يحسن على مذهب العلماء أن يقال أمين يكاد أن يعيش أبدا .

---

(١) تقدم البيت وشرحه فى صفحة ٩٢ والنمر شاعر مخضرم توفى عام ١٤ هـ .

(٢) مهلهل من قدامى الشعراء الجاهليين وأرقهم غزلا ورثاء وكان خال امرىء القيس وهو خاله .

ومن عيوب المعاني : مخالفة العرف والإتيان بما ليس في العادة والطبع مثل قول المرار :

وخالٍ على خدّيك يبدو كأنه   سَنَا البرق في دعجاء بادٍ دجونها(١)

فالمتعارف المعلوم أن الخيلان سوداء وما قاربها في ذلك اللون والخدود الحسان إنما هي البيض وبذلك تنعت فأتى هذا الشاعر بقلب المعنى .

ومن هذا الجنس قول الحكم الخضرى :

كانت بنو غالب لأمتها   كالغيث في كلّ ساعةٍ يكِفُ(٢)

فليس المعهود أن يكون الغيث واكفا في كل ساعة .

ومن عيوب المعاني : أن ينسب إلى الشيء ما ليس له .

كما قال خالد بن صفوان(٣) :

فإن صورةٌ راقتك فاخبُر فربما   أمرّ مذاقُ العودِ والعودُ أخضرُ

فهذا الشاعر بقوله « أمر مذاق العود والعود أخضر » كأنه يومئ إلى أن سبيل العود الأخضر في الأكثر أن يكون عذبا أو غير مر ، فهذا ليس بواجب لأنه ليس العود الأخضر بطعم من الطعوم أولى منه بالآخر .

• • •

ولنتبع ما تكلمنا به في عيوب المعاني بما في الأقسام الأربعة المؤتلفة من ذلك .

---

(١) الدعجاء . أو المحاق وهي ليلة ثمانية وعشرين . دجونها : الدجن : المطر الكثير .

(٢) يكف : يقطر .

(٣) من بلغاء الدولتين الأموية والعباسية وهو تميمي منقري ، كان من أعلام الخطباء ، توفى عام ١٣٣هـ (أمالى المرتضى ٢/٢٦١ - ٢٦٣ ، الوفيات ٢/٢٢٥و٢٢٦ ، المعارف ٤٠٣ ، نكت الهميان ١٤٨و١٤٩) .

عيوب ائتلاف اللفظ والمعنى

فمنها : الإخلال :

وهو أن يترك من اللفظ ما به يتم المعنى ، مثال ذلك قول عبيد الله بن عبد الله بن مسعود :

أعاذل عَاجِلُ مالِى أحبُّ إلىَّ من الأكثرِ الرَّائثِ

فإنما أراد أن يقول عاجل مالى مع القلة أحب إلى من الأكثر البطىء فترك مع القلة وبه يتم المعنى .

ومثل ذلك قول عروة بن الورد :

عجبتُ لَهُمُ إذ يَقتلون نفوسهم ومقتلُهم عند الوَغى كان أعذَرَا

وإنما أراد أن يقول عجبت لهم أن يقتلون نفوسهم فى السلم ومقتلهم عند الوغى أعذر فترك «فى السلم» .

ومن هذا الجنس قول الحارث بن حلزة :

والعيشُ خيرٌ في ظِلالِ النَّوكِ مِمن عاش كَدًّا(١)

فأراد أن يقول « والعيش خير فى ظلال النوك من العيش بكد فى ظلال العقل » ، على أنه لو قال ذلك لكان في هذا الشعر خلل آخر ، وهو أن الذى يظهر أنه أراده هو أن يقول : إن العيش الناعم فى ظلال النوك خير من العيش الشاق فى ظلال العقل فأخل بشىء كثير .

ومن هذا الجنس نوع آخر ، وهو كما قال بعضهم :

---

(١) النوك : بالضم والفتح الحمق والجنون، والحارث من شعراء المعلقات المشهورين .

لا يرمضُونَ إذا حرّتْ مَشَافِرُهم ولا ترى مِنهُم في الطّعن مَيّالا(١)
ويفشلونَ ، إذا نَادى رَبيئُهُم ألاَ اركَبُنَّ فقد آنستُ أبطَالاَ(٢)

فأراد أن يقول ولا يفشلون فحذف « لا » فعاد إلى الضد .

* * *

ومن عيوب هذا الجنس(٣) عكس العيب المتقدم ، وهو أن يزيد في اللفظ ما يفسد به المعنى .

مثال ذلك قوله :

فَمَا نطفةٌ من مَاء مَحْضٍ عُذَيبَةٌ تَمَنّعَ من أيدي رُقَاةٍ يَرُومُهَا
بأطيبَ مِن فِيهَا لو انكَ ذُقتَهُ إذا ليلةٌ أسجَت وغَارتْ نجومُهَا(٤)

فقول هذا الشاعر « لو انك ذقته » زيادة توهم أنه لو لم يذقه لم يكن طيبا .

---

(١) ومض النصل يرمضه جعله بين حجرين أملسين ثم دق ليرق
(٢) الربيء : ما تقدم القوم وسار في طلعتهم وعلى وارتفع عنهم .
(٣) وهو ائتلاف اللفظ والمعنى .
(٤) اسجت : سكنت .

عيوب ائتلاف اللفظ والوزن

منها : الحشـو :

وهو أن يحشى البيت بلفظ لا يحتاج إليه لإقامة الوزن .

مثال ذلك ما قال أبو عدي العبشمى :

نحن الرؤوسُ وما الرؤسُ إذا سَمَت   في المجدِ للأقوامِ كالأذناب

فقوله « للأقوام » حشو لا منفعة فيه .

وقال مصقلة بن هبيرة :

ألِكنى إلى أهلِ العراقِ رسالةً   وخُصّ بها حُيِّيتَ بكر بن وائل(١)

فقوله « حييت » حشو لا منفعة فيه .

ومنها : التثليم :

وهوأن يأتى الشاعر بأشياء يقصر عنها العروض فيضطر إلى ثلمها والنقص منها.

مثال ذلك قول أمية بن أبي الصلت :

مَا أرى مَن يُعِيثُنى فى حياتي   غيرَ نَفسى إلا بَنى إسرالِ(٢)

وقال في هذه القصيدة :

أيّمَا شَاطنٍ عَصاه عداه   كم تلقى فى السِّجنِ والأكبَال(٣)

---

(١) الكنى : أرسلنى .

(٢) إسرال : أى إسرائيل وامية شاعر جاهلى كان يتحنف فى شعره ـ أدرك الإسلام ولم يدخل فيه ـ مات عام ٩ هـ .

(٣) الأكبال : القيود .

وقال علقمة بن عبدة :

كأنّ إبريقهم ظبيٌ على شرف   مُفَدَّمٌ بسبا الكتّان ملثوم(١)

أراد بسبائب الكتان فحذف للعروض .

وللبيد :

درس المنا بمتالع فأبان

أراد بالمنا بالمنازل .

* * *

ومنها : التذنيب :

وهو عكس العيب المتقدم ، وذلك أن يأتي الشاعر بألفاظ تقصر عن العروض فيضطر إلى الزيادة فيها ، مثل ما قال الكميت :

لا كعَبد المليكِ أو كيزيد   أو سُليمان بعدُ أو كهشامِ

فالملك والمليك اسمان لله عز وجل ، وليس إذا سمى إنسان بالتعبد لأحدهما وجب أن يكون مسمى بالآخر ، كما أنه ليس من سمى عبد الرحمن هو كمن سمى عبد الله .

* * *

ومن هذا الجنس : التغيير :

وهو أن يحيل الاسم من حاله وصورته إلى صورة أخرى إذا اضطره الوزن إلى ذلك .

كما قال بعضهم يذكر سليمان عليه السلام .

ونسج سُليم كل قَضَّاء ذائلِ

---

(١) مفدم : من الفدام وهو الصداد .

وكما قال آخر :

مِنْ نسجِ داودَ أبي سلّامِ

* * *

ومنه : التعطيل :

وهو أن لا ينتظم نسق الكلام على ما ينبغي لمكان العروض فيقدم ويؤخر كما قال دريد بن الصمة (١) :

وبلّغ نُميرًا إن عرضتَ ابنَ عامرٍ   فأى أخٍ في النّائباتِ وصاحبِ

ففرق بين نمير بن عامر بقوله « إن عرضت » .

وكما قال أبو عدى القرشى :

خيرُ رَاعى رعيةٍ مرهُ اللهُ هشامُ وخيرُ مأوى طريدِ

---

(١) سيد بنى جشم وشاعرهم وفارسهم — قتل عام ٨ هـ (الأغانى ٩/٢—١٩ — الشعر والشعراء ٢/٧٢٥—٧٢٩ — الخزانة ٣/٤٦١و٤٦٢ — الروض الأنف ٢/٢٨٧) .

عيوب ائتلاف المعنى والوزن معاً

منها : المقلوب :

وهو أن يضطر الوزن الشاعر إلى إحالة المعنى وقلبه إلى خلاف ما قصد به.

مثال ذلك لعروة بن الورد(١) :

فَلَوْ أنى شهدتُ أبا سُعَاد غَدَاة غدا بمهجته يفُوقُ
فَدَيْتُ بِنَفْسِهِ نَفسِى ومَالِي ومَا آلوكَ إلا مَا أطيقُ

أراد أن يقول فديت نفسه بنفسى فقلب المعنى.

وللحطيئة :

فَلمّا خَشِيتُ الهونَ والعيرُ مُمسِكٌ على رَغْمِهِ ما اثبت الحبلُ حافرَه

أراد الحبلَ حافرُه فانقلب المعنى .

ومنها : المبتور :

وهو أن يطول المعنى عن أن يحتمل العروض تمامه فى بيت واحد فيقطعه بالقافية ويتمه فى البيت الثانى .

مثال ذلك قول عروة بن الورد :

فلو كاليومِ كانَ علىَّ أمرى ومن لك بالتدبُّرِ فى الأمور

فهذا البيت ليس قائما بنفسه فى المعنى ولكنه أتى بالبيت الثانى فقال :

إذاً لملكتُ عصمةَ أم وهبٍ على ما كان مِن حَسَكِ الصُّدورِ(٢)

فالمعنى في البيت الأول ناقص فأتمه في البيت الثاني .

---

(١) من الشعراء الصعاليك الجاهليين المشهورين .

(٢) الحسك : نوع من النبات له ثمر كالحصا شائك وهذا كناية عن شدة الغيظ الكامن في نفسه .

عيوب ائتلاف المعنى والقافية

منهـا أن تـكون القافية مستدعاة قد تـكلف في طلبها فاستعمل معنى سائر البيت .

مثل ما قال أبو تمام الطائى(١) :

كالظبية الأدماء صافَتْ فارتعت زَهر القرار الغَضَّ والجثجاثا

فجميع هذا البيت مبني على طلب هذه القافية وإلا فليس في وصف الظبية بأنها ترتعى الجثجاث كثير فائدة ، لأنه إنما توصف الظبية بأنها ترتعى الجثجاث إذا قصد نعتها بأحسن أحوالها ، بأن يقال إنها تعطو(٢) الشجرة لأنها حينئذ تـكون رافعة رأسها وتوصف بأن ذعراً يسيراً قد لحقها ، كما قال الطرماح (٣):

مِثـل ما عاينت مخروفة نصهـا ذاعر روع مؤام

فأما بأن ترتعى الجثجاث فلا أعرف له معنى فى زيادة الظبية لا سـيما والجثجاث ليس من المراعى التى توصف بأن ما يرتعى يؤثره .

ومن عيوب هذا الجنس : أن يؤتى بالقافية لأن تـكون نظيرة لأخواتها في السجع ، لا لأن لها فائدة فى معنى البيت .

كما قال على بن محمد البصرى :

وسابغة الأذيال زغف مفاضة تـكنفها مني النجاد المخطط

---

(١) من أشهر الشعراء العباسيين (١٩٠ ــ ٢٣١هـ) .

(٢) أي تتناول .

(٣) من شعراء الخوارج في العصر الأموي توفي عام ١٢٥ هـ وديوانه بتحقيق عزة حسن (طبع دمشق ١٩٦٨) .

فليس لأن يكون هذا البجاد(١) مخططا صنع فى صفة الدروع وتجويد نعتها لكنه أتى به من أجل السجع.

ومن هذا الجنس قول أبي عدى القرشي :

وَوَقَتْ الحتوفَ من وارث وال وأبقاكَ صالحًا ربُّ هود

فليس نسبة هذا الشاعر الله عز وجل إلى أنه رب هود أجود من نسبته إلى أنه رب نوح ، ولكن القافية كانت دالية فأتى بذلك للسجع ، لا لإفادة معنى بما أتى به منه ..

والله أعلم.

انتهى كتاب « نقد الشعر » لقدامة بن جعفر
المتوفى عام ٣٣٧ هـ = ٩٤٨ م

---

(١) البجاد : ثوب غليظ .

الكلمة الأخيرة .. بقلم المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله وشكراً على ما أعان ووفق وسدّد ؛ له الحمد ، وله الشكر ، وله الثناء الحسن الجميل .

وصلاة وسلاماً على رسوله النبي العربي المبين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فهذا هو كتاب « نقد الشعر » لقدامة ، في ثوب جديد ، وتقديم طريف ، وتحقيق دقيق ، وتعليق مفيد .

أرجو بذلك كله أن أكون قد حققت الهدف الذى قصدت إليه ، وأصبت الغرض الذى ألقيت برحلى لديه .

والقارئ يعرف مدي الصعوبة فى تحقيق هذا الكتاب والتعليق عليه، لأنه أصل من أهم أصول تراثنا في النقد القديم ، ولأنه أقام مذهباً جديداً فى النقد ؛ فأسس منهجاً موضوعياً في الحكم على الشعر وتقييمه .

وأسأل الله التوفيق والسداد ، وما توفيقى إلا بالله ؟

المحقق

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥٦٩ / ١٩٧٨ — الترقيم الدولى ٨-٣١-٧١٩٦

دار عطوه للطباعة

